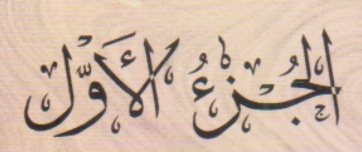
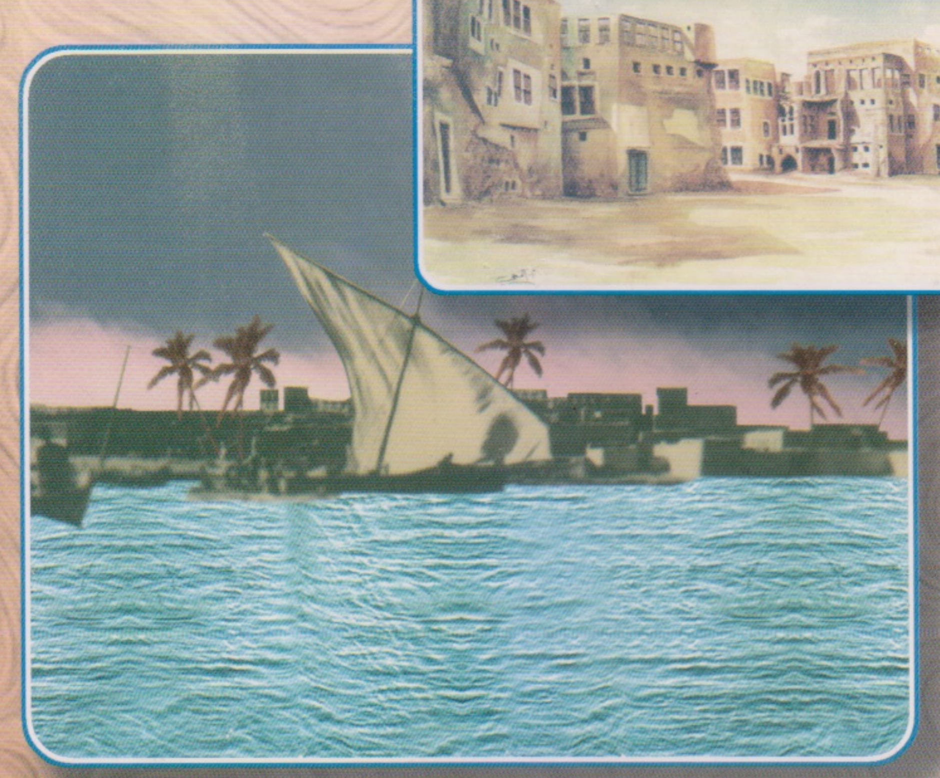
خيوط من الشمس

قصة وتاريخ





محمد سعيد الشيخ علي الخنيزي



خيوط من الشمس

قصة وتاريخ

الطبعة الأولى
بيروت
٢٠٠٠م - ١٤٢٠/٢١ هـ





المكتب : بئر العبد سنتر الإنماء - ط٣ - المستودع : صفير - جانب فرن الأمراء
ص.ب : ١١٧٩٥٢ - هاتف : ٠١/٥٥٣١١٩ - ٠٥/٤٦٣٢٥٨ - بيروت لبنان

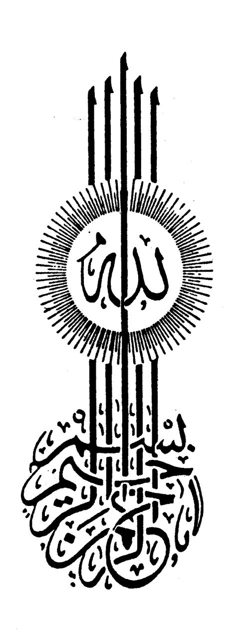
خيوط من الشمس

قصة وتاريخ

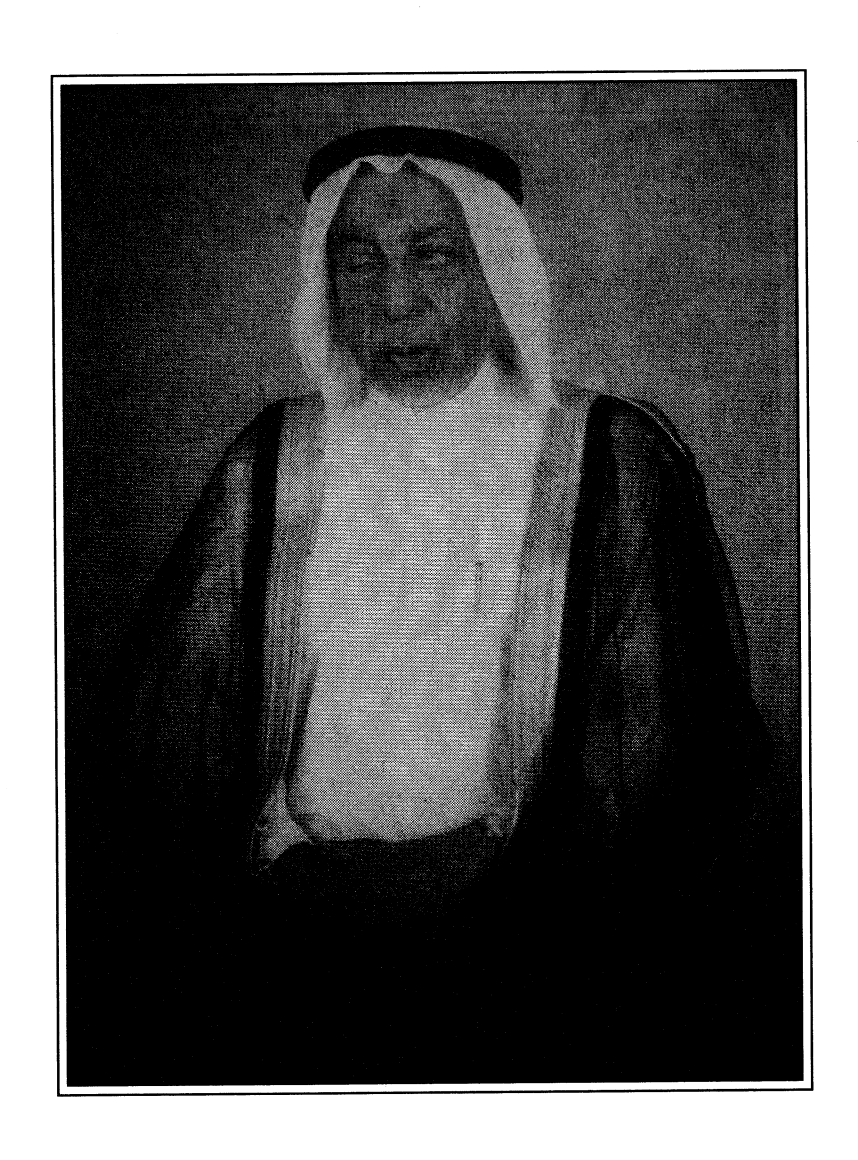
الجزء الأول

محمد سعيد الخنيزي

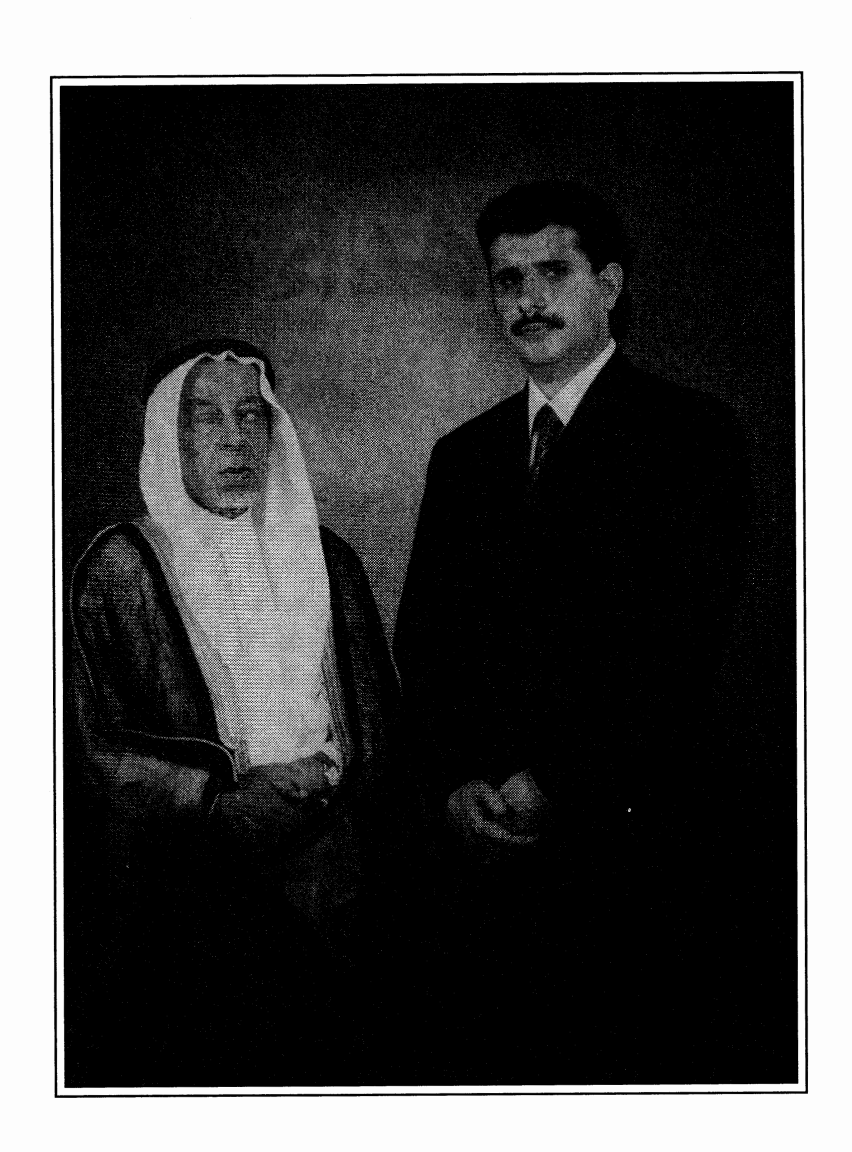



الله
بسم الله الرحمن الرحيم

صورة المؤلف



صورة المؤلف وسبطه الدكتور حسام حبيب




الإهداء

بسم الله الرحمن الرحيم

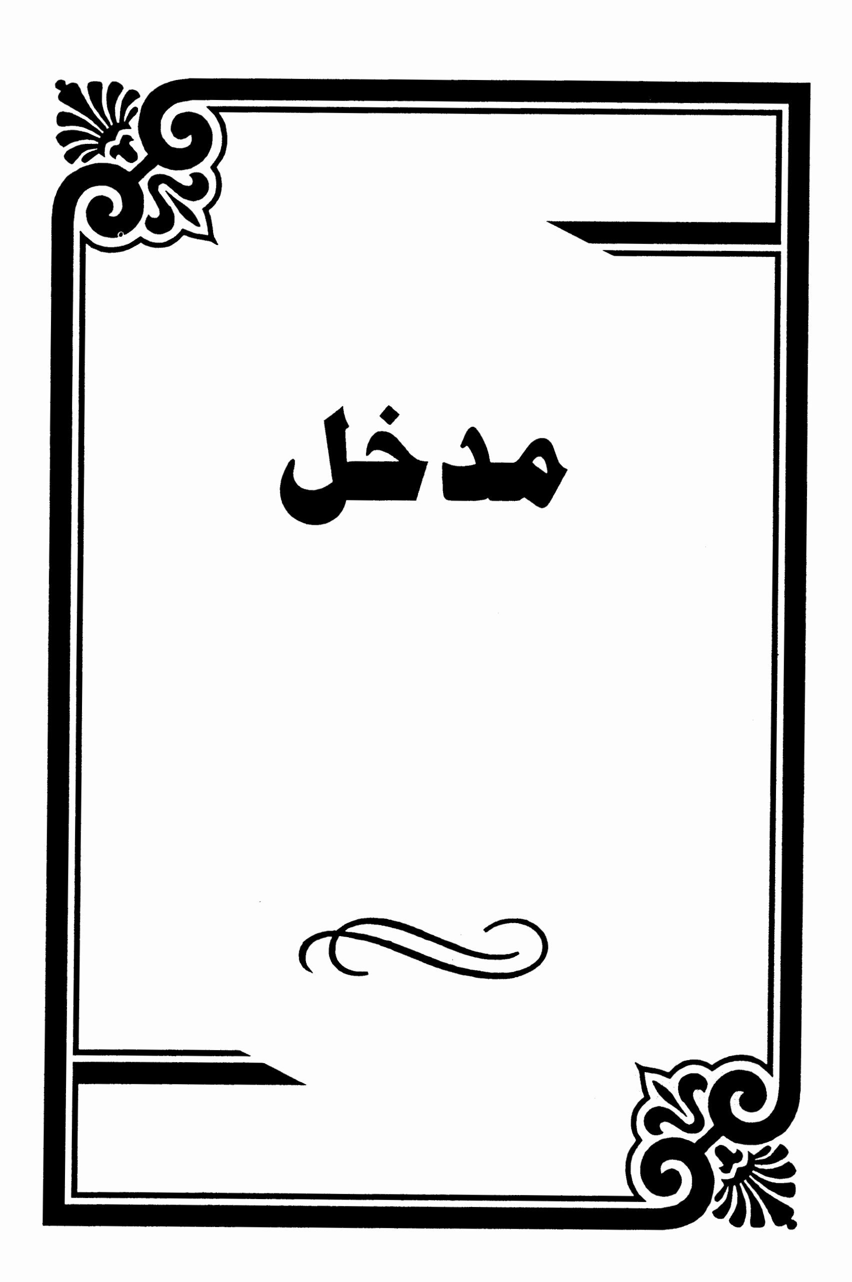
إلى التائهين في أعماق التاريخ، الباحثين عما فيه من حقائق بصدق وأمانة، أرفع لهم الجزء الأول من كتابي.

محمد سعيد الشيخ علي الخنيزي

١٦ محرم ١٤١٧ هـ

٢ يونيو ١٩٩٦ م



مدخل

تعود بي هذه الخاطرة، الّتي أرسم لوحاتها التاريخية بين دفتي هذا الكتاب إلى طيف عام ثمانية بعد الأربعمائة والألف هجرية، الموافق عام ثمانية وثمانين بعد التسعمائة والألف ميلادي، حينما أصيبت زوجي بأزمة قلبية، وسافرت مع ابني علي إلى مدينة هيوستن في ولاية تكساس بالولايات المتحدة الأمريكية، فكان الفراغُ الّذي تركته مع مرض الوالدة جليداً يتكدسُ في نفسي، ويتضبب في سماء بيتي، ولم يكن معي من العائلة غير سبطتي هند كامل سلمان العبدالهادي الحبيب - قبل أن تدخل القفص الذهبي - وما تلقيته من أنباءٍ عن انتكاسة حدثت للزوج بعد العملية، كل ذلك مثل لي حياة مبطنة بالآلام لا أطيق وَصفها.

وفي هذا الفراغ والجو الملبد بضباب أحداث الحياة وما يطل فيها من بلايا عنيفة الوقع، سنحت لي سانحةٌ - وإن السوانح بنت الفكر- ومرت بي خاطرةٌ - كبارقة الفجر - فكونت من هذا الفراغ عملاً فكرياً يضم بين دفتيه قصة أو حياة تمر كطيف على هذه الحياة.

كل هذا طاف على لوحة ذهني، وترددت أصداؤه كأطروحة من الأطروحات الّتي يرغبُ في وضع حروفها كاتبٌ أو فنانٌ ينقش

على لوحة الزمن ما يمر به من طيوفِ ليل أو صباح ، قبل أن يلفها الجديدان في طيات بحر الحياة الخضم .

ولم تكن هذه الخاطرة الّتي راودت فكري حين ذاك في مفهومها الوقتي أن تتسع لتضم قصةً وحياةً تاريخية لتاريخ هذه الربوع ، فكانت ظلاً يمتد على شاطئ حياتي دون أن ينبسط على حوادث مرت في هذا التاريخ الزمني الحديث أو القديم .

وتعود هذه الخاطرة بالتحديد إلى شهر ربيع الآخر من العام المشار إليه ، حيث تبلورت نواة هذه الخاطرة الضيقة الأفق حين ولادتها ، وبعد استهلالها ونموها كتبتُ منها قرابة مائة صفحة ، وكانت الكاتبة لي التي أمليتُ عليها هذه الأحرف السبطة هند ، وهنا جف حرف الخاطرة ويبس ، وصمت صدى وحيها ، وغاب وراء أيامها وبقيت حروفاً مبعثرة في دفتري لم تنسق ، ولم ترتب ، ولم تجمعها سماءٌ تضيء بنجومها حتى كدتُ أنساها وأنسى هذا العمل الأدبي .

وفي عام الرابع عشر بعد الأربعمائة والألف هجرية ، الموافق الرابع والتسعين بعد التسعمائة والألف ميلادي ، أطلت تلك الخاطرة إطلالة منفسحة الآفاق تموج فيها الحياةُ من جديد ، وتتسع فكرتُها إلى أبعد ما ولدت عليه من صعيد .

لم تعد الفكرة منكمشة تدور في أفق خاص إنما تنطلق منه إلى فضاء أوسع وارحب ، وإلى حياةٍ بعيدة الشواطئ ، حالمة بأقمار تسبح في مياهها ، وغصونٍ ترف على ضفافها ، وذكريات من تحت أنقاضِ سنين كأنها تولد للحياة من جديد ، فكان لها الدور في بعث الكتابة من جديد .

فعدت إلى اللوحات القديمة لأزيل منها ما علق بها من طُحلب، وزوان، وأعمل فيها بالإزميل يصور الخاطرة ويجسدها، ماراً بكل ما يمر به الإزميل في ذلك الهيكل الممتد بأفق الخاطرة الأولى، إلا أنها لم تكن كخاطرة الأمس كما رُسِمت، إنما هي خاطرةٌ لها جناحان قويان تطير بهما في آفاق بعيدة واسعة، فتصور كل حدث ارتسم أو مر بهذه الآفاق المرتبطة بذلك الأفق.

وكانت هذه الرسمة من العام المذكور في أشهر إجازة الصيف، حيث تفرغ لي سبطي بسام سعيد سلمان العبدالهادي الحبيب في كل يوم بعد الظهر ساعة من وقته؛ لأملي عليه ما تجود به عليَّ ربة النثر، فعادت هذه الرسمة حروف أطروحة من رسمات حياةٍ تتوثب في دفاتري تقارب مائتي صفحة.

غير أن بسّاماً لم يستغرق وقت إجازته، ويتفرغ لتكملة هذه العملية الأدبية، واستماع ما أملي عليه لتكتمل صورة هذه الأطروحة حيث سافر مع والده ووالدته، فعندها لففتُ قلاعي وجَدفتُ سفيني على شاطئٍ يحلم بآمالٍ وذكرياتٍ، يريد أن يصورها ويحفظها في دفترٍ للأزمان القادمة، حتى تصبح كزادٍ يمتار منه الجديد من حياة أثارٍ غفت في أزمانٍ متقادمة، لا يعرف عنها الجيل الجديد شيء.

وبرغم ما لقيتُ من ظروفٍ شائكة، فقد بذل لي نفسه السبط حسام سعيد سلمان العبدالهادي الحبيب، وضحى بوقتهِ غير إني أشفقتُ عليه، وفضلتُ مصلحته على مصلحتي؛ لإمتلاء وقته بدراسة علم الطب البشري، وما تحتاجه هذه الدراسة إلى تفرغ

شامل، يستوعبُ الزمن، ولعل هذا الزمن لا يغطــي لـه مسـاعدتي ومطالعته لكثرة مواده، واتساعها العلمي.

فعدت إلى ظلال الصمت، تلفُني أشباحُها قابعاً تحـت شـجرة الحياة، الّتي يشرق عليها الفجر، متدفقاً بلُجَينه ذرات ضـوء علـى تلك الشجرة، وتغرد على أغصانها البلابلُ، وتشدو علـى ذروتهـا الحمائم، ويبطنها الليل بصمته وكآبته، وفي صمته ألف ألف معنى من أعماق الحياة، الّتي لا نصل إلى جوهرها.

فكـم لاقيـت مـن صعوبـات في هـذه الحيـاة ؟!... والأعجـب، والأغرب !!!! ما أنتجته من أعمال أدبيــة - هـو فضـلٌ مـن ربـي - للظروف المعاكسة لحياتي الشخصية، حيث ذلل لي هــذه الصعـاب وسرت على ثبج موجها، وتحت جُنح عواصفها حتى رسوت بزورقي الصغير على شاطئ السلامة.

وبرغم هذه الصعاب، تجرد لي بعض الأبنـاء، وفرغـوا وقتهـم لمساعدتي في هذه الأعمال الأدبية: ذكرانـاً وأناثـاً، أخـص منهـم علياً وأخته فردوس قبل أن تطغى عليهم موجة أعمــال التدريـس، فقد أشرت لبعضهم في هذا الكتاب، ولا أنسى دور الابن أديــب في مراجعتـه لهـذا الكتـاب لتصحيـح الأخطــاء الإملائيــة، إلا أن أعمالهم تكاثرت، وطفت وما عاد يتسع وقتهم للجمع، فضعـتُ في هذه الفترة الزمنية.

هذه جملة اعتراضيه، اعترضت جلستي الّتــي أخـذت مكـاني منها على مقعدٍ حجريٍ تحت شـجرة الحيـاة، بـل هـذه الجملـة مـن

صميم حياتي ، وفي تأملِ تعاقب الجديدين ، وما فيهما من مشاهد تتطور مع ضوء الشمسِ ، وأشباح الظلام .

إستمريت على هذا الأفق بعد أن نفضتُ يراعي وطويت سجل دفتري ، وبقيت أداعب ربة الشعر ، وفي هذه الغمرة الساهية تولدت فكرةٌ من الابن نبيه أن أوجد لي كاتباً خاصاً بي لأعمالي الأدبية كقراءة الكتب ، وإملاء ما تجود به ربة الشعر والنثر .

فكانت مثل الحلم ، ولكنها حلم اليقظة ، وربيع الفكر ، وعودة الفكر الثقافي إلى أيام اخضرارها ، فتم ذلك في يوم السابع والعشرين من شهر مارس عام خمسة وتسعين بعد التسعمائة والألف ميلادية ، حيث وصل الكاتب السيد أبو زيد ، فقام بجهدٍ معي ، وأعدت النظر في إملاء الكتاب وصغته صيغةً جديدةً للتفرغ والوقت اللذين مكناني من وضع هذه اللوحات ، حيث تركتُ كل عمل من أعمال المحاماة ، وعطلت هذه الأداة العملية ، وكل فائدةٍ لابد لها من تضحيةٍ بأخرى .

فحولتُ خطوطه ، وأطروحته إلى غير الخطوط السابقة ، وأطروحته غير الأطروحة الماضية ، فكان كله جديداً في جديد حيث أمتد أفق الخاطرة إلى آفاق متسعة كما أسلفت في هذا المدخل لتشمل مساحة فكريةً ، وتغطي أنباء حياةٍ يتعطش لها الجيل الحاضر.

فهي تحمل سطوراً من الأيام الغابرة ، وأحرف أجيال حاضرة ، فتم الجزء الأول من هذا الكتاب وهو يحمل بين دفتيه وثائق

سنديّةً ، وتاريخية نصية ، وبعض الصور الّتي تصور معالم القطيف الّتي بعضها اندثرت وطواها الزمن في تلافيفه .

هذه مناظرُ مجسدة في رسمات حرفية وشمسية كقضيةٍ شاهدها معها ، والمناظر الشمسية تعيدك إلى أطياف ما تمثله تلك المناظر، والحرف أصدق تعبير ، وتصوير من كل تصوير .

يلي هذا المجلد بمشيئة الله المجلد الثاني الذي يبحث في الحياة الاجتماعية والسياسية عن حياة هذه الربوع ، وما سبق حياتي من أحداث سمعتها أو نقلت إليَّ ، وما مررت بخضمها وبين ضفة شواطئها ، كل هذا سأسجله إن شاء الله إذا أراد المولى الكريم ، ومدني بقوته وفضله .

وقبل أن أختتم هذه الأحرف أسدي شكري إلى - ابن الخال - باسم حسن عبدالله الراشد الغانم ، حيث قام مشكوراً بطبع هذا الكتاب ، وتنسيقه عن طريق حاسوبه الشخصي - الكمبيوتر - ، وأبدى جهداً في تعليم الكاتب السيد على استخدام الحاسوب ، وإصلاح الحاسوب الخاص بنا كلما طرأ عليه خللٌ.

كما أشكر شريحة من الذين تبرعوا لي برسوم فوتوغرافية تصور معالم القطيف التاريخية وفي طليعتهم المصور الهاوي زكي أحمد الزاير ، وأحمد شعبان ، وهذه الشرائح من الصور سيجدها القارئ في هذا الكتاب .

وأشكر الولد أديب على تدقيقه في اللمسات الأخيرة لمجلدي هذا الكتاب ، ومناقشته في بعض الآراء ، كما أشكر الشاب حسين

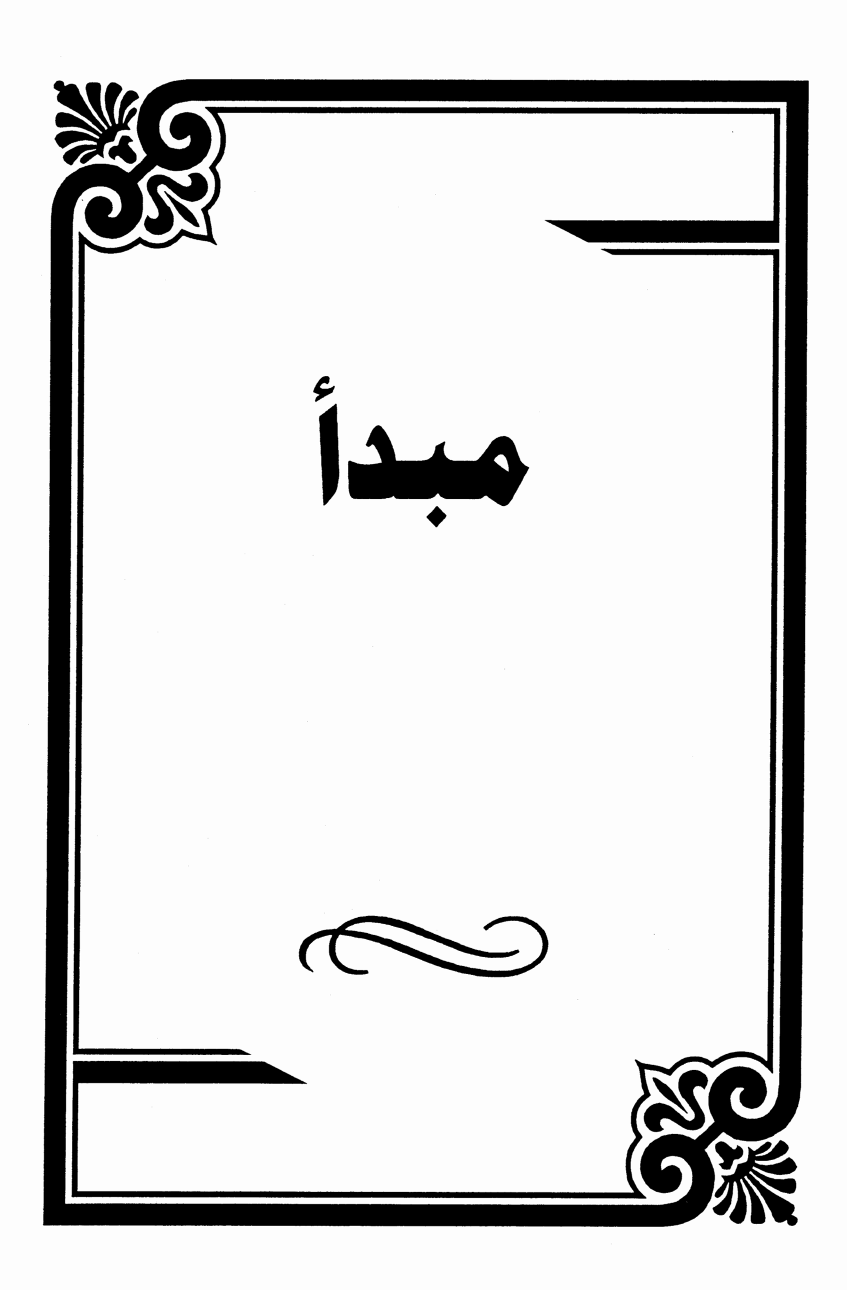
عبد الكريم الحجري لإصلاحه الحاسوب وطابعته كلما طرأ عليهما خلل .

كما أشكر الإبن الروحي الفاضل السيد سعيد السيد أحمد الخباز ، حيث قام بجهد في مراجعة هذا الكتاب ، لتصحيح الأخطاء الإملائية ، وأشكر الإبن الأستاذ محمد رسول الزاير على ما قام به من جهدٍ في مراجعة هذا الكتاب.

هذا ما أردته من فاتحة المدخل والله ولي التوفيق ، آمل من خالقي أن وفقني ، وألهمني الصواب ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

١٦ محرم ١٤١٧ هـ
٢ يونيه ١٩٩٦ م





مبدأ

هل مِنَ الصحيحْ ، أو مِنَ الخيرِ أن يكتب المرءُ قِصّة حياتهِ ، ويرسمها ، كما يَرسمُها الفنّانُ ، ويُبرزها كما يبرز الكاتب المبدع حياة شخصٍ آخرٍ ؟! .

نعم ، في رأيٍّ الشخصيٍّ أن يرسم حياته : حياةً بسيطةً كما هي على الطَّبيعة ، بدون أن يُضَيف عليها رتوشاً ، أو أصباغاً ؛ بل يرويها بدون تعقيد ، ويرسِمُها كمعلَم تاريخيٍّ مِنْ واقع حياته .... وما فيها مِنْ خير ، أو شرٍّ ، أو فرحٍ ، أو ترحٍ ، أو نقصٍ ، أو جهلٍ ، حتى يكونَ أميناً للتاريخ ، والحياة ، وتكون سجلاً حافلاً بالعبرِ ، يُشير إلى ما في زوايا حُجر التاريخ مِنْ أحداثٍ ومغايرات .

وبعد هذه المقدمة كمبدأ تعريفي لبعض الآراء الفكرية الأدبية الّتي سبقت هذه الخاطرة ، وكتبت حياتَها بأقلامها ، وكمثال لا على سبيل الحصر : الدكتور طه حسين في كتابه الأيام ، وأحمد شوقي تحت عنوان من هو شوقي ، وجبران خليل جبران في كتابهِ الذي أسماه : «النبي» ، وقد أسرف وغلط في هذه التسمية ، وأصدقُ كلمة قالها زميله الأستاذ ميخائيل نُعيمه في الكتاب الذي كتبه ، وأسماه جبران خليل جبران ، حيث قال الأستاذ نُعيمه ما

مضمونه: «لقد تبخر النبي، وذاب أمام عشيقتهِ الأمريكية»، وكثير من رجال الفكر والأدب الذين كتبوا حياتهم بأقلامهم.

فعلى هذا الضوء سأبدأ قصة حياتي.... الحياة البسيطة المتناقضة الّتي هي في بساطتها كشيء سواء إن وجد في أعماقه ذلك الفكر المنشود، أو لم يوجد.

ويرغم هذا، وذاك، سأحاولَ بمشيئة الله، وعونهِ أن أقصَّ عليكم قصة هذه الحياة بما فيها من حلوٍ، ومرٍ منذ وضعتني والدتي على هذا الكوكبَ الذي يدور حول الشمس، ومنذ بدأت حياتي بما فيها مِنْ صورٍ وعَيِتُها، أو لقنتُهاِ، أو رواها لي بعضٌ من أهلي، أو غيرُهم.

كلَّ هذا سأُسجله بين يديكَ أيها القارئ الكريم.

ولأن الكاتب الَّذي يكتبُ حياتَه، لعلَّه أعرف بما ظَهَرَ، وما خَفِيَ مِنْ أسرار حياتِه، ويكونُ أقدر على تَصويرِ هذِهِ الحَياة فِيْ أَرْوعِ أداءٍ، وإخلاصٍ، إذا كان أمينا.

إنَّها الفرصةُ الثَّمينة للبَاحث القَاصّ المُتتبعِ لَمَا في أعماق الحياة الخاصَّة، الّتي يدور في آفاق خيوطِها، ويُلملم ما يَطلعُ عليْه مِنْ خُيوطِ شَمْسِ كُلِّ يومٍ، ففَي كلِّ إشراقةٍ جديدةٍ تَمرُّ مِنْ كتاب الإنْسان، الَّذي منحه اللَّه أثمن شيءٍ.... وهو العقلُ، إذ لولا هذا العقل، لكان الإنْسان في منزلة لا يمتازُ عن الحيوان، أو البهيمة، الّتي لا يهمها إلا أن تعيشَ لِتأكل.

وإنَّ إلمامةً منْ خيط شمْس كلّ يوم، يرسمها الفكر، كشريطٍ سينمائيٍ يعرض صفحاتٍ منْ كتابِ عُمْره ليبقى بعد عمرهِ كتاباً مفتوحاً، يقرأه الأجيال، ويُعلِّقون عليه بالنقد، والذم، أو

المدحِ ، والاستحسان ، عنْدما يلفُّه الموت وراء هذه الحيَاة الّتي لابد أن تَنْطويَ ، وتزول .

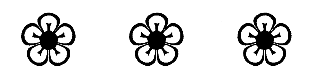
هو إنْسانٌ حاول أن يُسجّل خلجاتِ مرئياتـِه ، ومطالعاتـِه في كتاب حياته ، لجديرٌ بأن نقرأه لنرى : هل فيْ صـور حياتنا لوحات تُشبه تَلك الحياة المريرة ، الحلوة ، الباكية ، الضاحكة ؟ .

فتناقض صـور الحيـاة هـي الّتي تُشعرنا باللَّذة ؛ إذْ لا نقـدر الصّحة إلا بالمرضِ ؛ ولا نعرف الابتسامةَ إلَا بالدمْعةِ .

فلهـذه المفارقـاتِ فيْ حيـاة الإنْسـانَ ، وقـدْ تتضـاعفُ فيْ حيـاة المفكرين ، والأدباءِ ، كتبتُ هذه المقدَّمة لأضع الخطـوط ، والصُـور في هذه الحروف منَ اسم الكتاب الَّذي أسميتهُ : « خيوط مِن الشمْس » .

ويعرفُ القارئ ما تدور عليه هذه الحروف مِنْ نقاط تُصَور ما مرَّ فيْ هذه الحياةِ الّتي أُريد أن أعرضهاِ في صُورتها الطبيعية .

ولكنَّني لمْ ألتزِم فيها بالعوامل الزَّمنيَّة ؛ وترتيب الحياة ؛ فصـلاً بعد فصل ، فقد أذْكُر فصـلاً ، أو حادثـةً زمنيَّـة ، قـدَ وقعـت بعـد القصَّة الّتي ذكرتُها قَبْلها لاعتمادي على شريط الذاكرة ، فهي تجولُ فيْ حُجر التَّاريخ السَّحيق البعيد ، فتجرُّ بعضَها بعضـاً ، فتَتسلسـل : ذكرى ، بعد ذكرى كما يتسلسلُ ضوء الفجر في جفون الليل ، فـلا يستغرب القارئُ من ذلـك عندمـا يشـاهدُ هـذه الصُّـور ، والمنـاظر المتقدمةَ وهي تحكي الزمنَ متأخرة .





میلاد

بعد كتابة هذه السطور : نتحدَّث عنْ حياة ميلاد شخصٍ ، ككل شخص ٍمِنْ أهل القطيف ، جاء لهذه الحياة الصاخبة ، كما يجيء لها الفرد البسِيط ، عندما يشاء اللّهُ خَلقهُ ، وإنشاءه ليأتي بهِ إلىَ هذه الدنيا ، لعبادتهِ ، وتوحيدهِ سبحانه وتعالى ، قال تعالى :

﴿ وما خَلقتُ الجنَّ والإنْس إلاَّ ليعبدون ﴾.

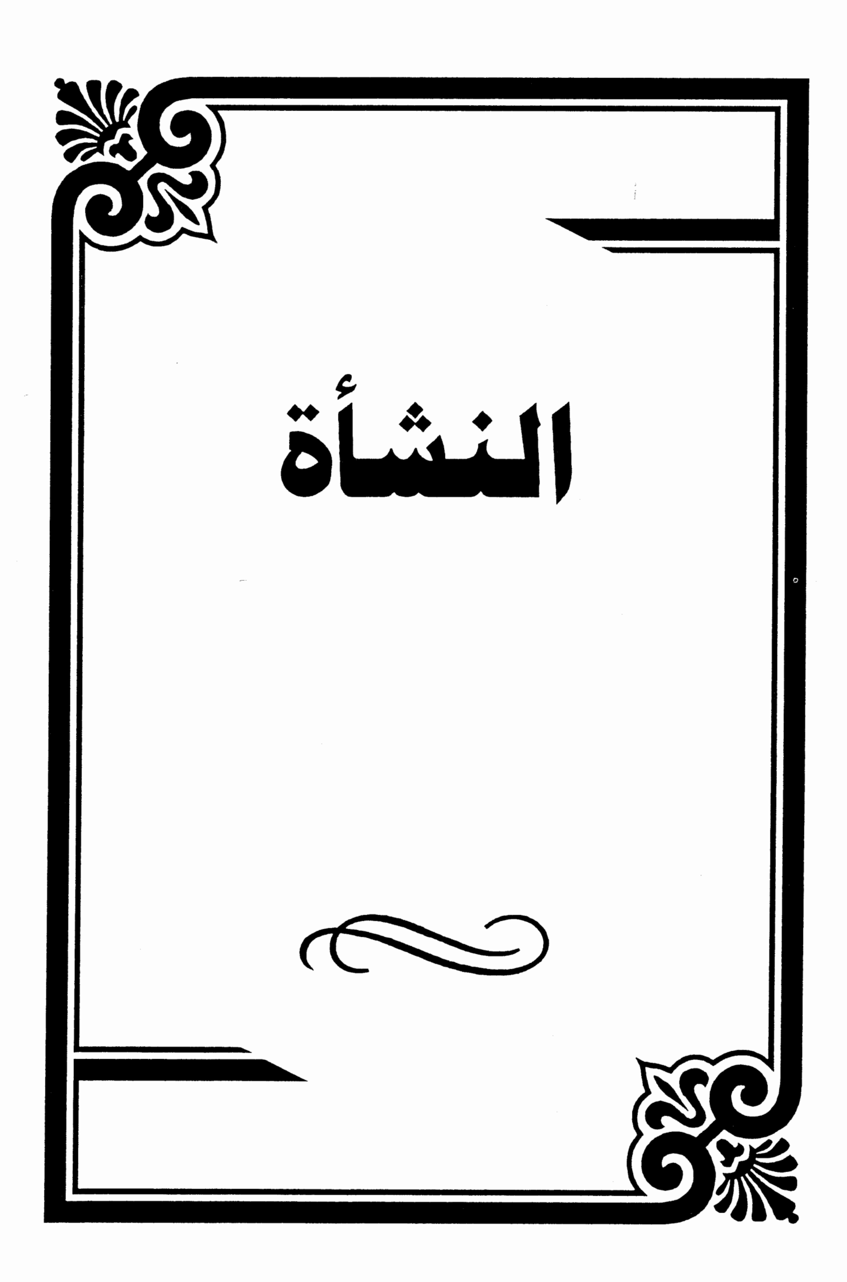
كما سخرَّ له الكونَ بِمَا فيه مِن : نجومه ، وشمسه ، وقمره ، وبحاره ، كلِّها شاءت مشيئته أن يجعلها تفضلاً مِنْه نعمةً في ميْدان خدمة العقْل ، والبَشَر ؛ ليَعيشَ هذا البشر أفضلَ عيشة ، لكنَّ الإنسان لا يَرقى إلى مرتبة الشُّكر، فيشكر هذا الخالق ، الَّذي لا تُحْصى نعمهُ ، ولا تُعدُ ، فتفضلُ مِنْهُ ، أعطى كُل شئ .

جئتُ للحياةِ طَاهرَ القلبِ - كملاكٍ قدسيٍ لا يعرف الشرور ، والآثام - في عامٍ من الأعوام ، وبالتحديد في اليوم السابع منْ شهرِ رجب الأصب عام ثلاثة وأربعين ، وثلاثمائة وألف للهجرةِ - على مهاجرها أفْضَل الصلاة والسلام - الموافق لليوم الثَّاني منْ شهرِ فبراير عام خمسةٍ وعشرين وتسعمائة وألف ميلادي .

ولَدت بي أمي في هذا اليوم، الَّذي حددْناه مِنَ العام التاريخي، الَّذي جئتُ فيه إلى هذه الحياة، بعد أن قاست جهد الحمل، والطَّلْق، حيثُ لا يوجد في القطيف آنذاك مستشفى للولادة، أو مولَدةٌ فنية، وأجهزة حديثة، إنما الولادة تكون على أساليبِ الطُّرق القديمة، فتحضرُ مُولّدةٌ، هي جاهِلةٌ لا تفْقَه مِنَ الحياةِ شيئاً، تُسمّى: قابلة، فهي تدَّعي علم التَوليد، والطفُولة، وهي جاهلةُ الجهل المُركب تغُطُّ في عالمها البدائي الجاهلي.

وتوضيحاً لأساليب الولادة المتبعة - آنذاك في القطيف - أو قُلْ في الخليج العربي: كانت أساليب التوليد لا تركن لوعيٍ صحي، يقي الطفل المولود، أو أمَّهُ، فتَجلس الأمُّ عنْدما يأتيها آلام الطلق على حصيرٍ، يُحاكُ مِنْ خُوص النَّخيل، ويُفْرشُ عليه مجموعةٌ مكونة من الخِرَقِ البيض، وتحيط بها نِساءُ جاهلاتُ يَتَطَبّبْنْ، وهنَّ لا يَعرفْنَ الطَّب فيسندنها إلى جدار جالسة بحيث لا يعطينها فرصة لأن تنام، وتستلقي، وتتمدد، كما هي طريقة التوليد اليوم، ويشعِلن النوارجيل مِنْ حولها، فيمْلأنَ مكان التوليد دخاناً، قد يؤَثر على رئةِ المولود وأمّه، إلى ما يُماثلها مِنَ الأساليب الباليةِ، الّتي قَبرَها الوعيُ الصحي الجديد، والتقدم العلمي المتجدّد في المستشفيات، وفي هذا الجو الخانق، فتّحتُ عيني في أُفقٍ مليءٍ بالصور المتموجة بألوان الحياة، فكنتُ كبرعمٍ لمْ تُفتحه أضواءُ الشّمس، ولا داعبتْه النسائمُ الرقراقة العليلة البليلة، برعم في طيِّه أسرارٌ وأحْلام.





النشأة

قضيتُ أياماً في فجرِ حياتي وهي عامَيْ الرضاعة في دنيا لا أشْعُر بِما في طيّها مِنْ أضرار، أو أخطار، وبما فيها مِنْ لذَّاتٍ، أو مِنْ مَنَاظِرَ باسمةٍ، أو كئيبةٍ، وحتى مررتُ بدور الطفولةِ، التّي هي كأحلامٍ عذْبةٍ لا يشْعر الطفلُ في هذه الحياة الطفولية بما فيها من الألم، وأقصى مُناه أن يتحصَّل على لُعبةٍ يعبثُ بها ويسهو.

وقد حويتُ في طفولتي دمىً ولعباً كثيرةً، أوجدها لي خالي علي بن عبد الوهاب الغَانِم رحمه اللّهُ حيثُ رعاني رعايةً قلَّ مَنْ يرعاها والدٌ لولده.

وكنتُ أعيش فيْ ذلكَ العالمِ الوادع الهادئ، أتمتعُ بكامل صحتي، حتى فُوجئْتُ برمدٍ فيْ عيني، وأنا لا أستطيعُ أن أُحدد الإصابة، وتاريخها بالضبط، إلا أنني حسب ما رُوي لي من بعض العائلة، كنتُ بينَ الخامسة، أو السادسة مِنَ العمر.

وكان أبي في ذلك الوقت في رحلةٍ تعليميةٍ، بصفته قياديًّا دينيًّا مُفتياً، وحائزاً على المرتبة الأولى في الفضل، والاجتهاد، باذلاً نفسه لتعليم الناس وتفقيههم، ومن أجل ذلك يذهب إلى قرى القطيف.

فأصبتُ بهذا الرمد ، وأنا في ذلكَ السنِّ البرعمي ، فتقدمت إحدى المُتَطببَات ، وهي لا تفقهُ شيئًا من الطب حتى اسمه ، واقترحت عدم فَتْح العين ، وأن لا تُغْسل بالماء إلا بعد ثلاثةِ أيام.

ونُفِّذ هذا الاقتراح الجاهلي ، ولمْ تُفْتح إلا بعد اكتمال اليوم الثالث ، ولكنَّ فتحها كان إغماضَها ، إذْ لمْ تُفتح إلا وكانَ في العينين سحابتان عليهما قرحتان جاثمتان ، ناتئتان ، تغطيان العدستين ، ولا أبصر شيئاً .

فجاء والدي - ذو العقل النَّير - مِنْ رحلتِه التعليمية ، فشاهدني ، فياله مِنْ مَنْظرٍ مُؤلمٍ عليه !...... فاستقبلها كحادثةٍ شديدةِ الوقع ، ولام والدتي على استسلامها ، وعدم فتْح العين ، وتغسيلها بالمَاء السَاخن ، وتنظيفها مِنْ الأوساخ ، لئلاَّ تترسبَ فيها ، ويحدثَ ما حدث ولكن بَعدَ فواتِ الأوان ، ليس له الآن أمرٌ ، ولا خيارٌ في ذلك ، والأمر كُله لله .

ولكنه قام بجهد ، حيثُ يوجدُ في ذلك الوقْتِ طبيبٌ مختصٌ بالعين ، يزور البلاد ، وكان مقرُّ عيادتِه وسُكْناهُ حسينية البيات بالقلعة بجوار مسجد الراجحيه الذي يصلي فيه أبي ، فعُرِضْتُ عليه ، وبعد فحصه لي على أسلوبه الطبي القديم ، إذ ليس لديه أجهزةٌ تصور قعر العين ، وتشخّصُ الداءَ ، فكتبَ لي وصفةً مِنْ الكُحْل .

وقد أُحضِرَ ما في هذه الوصفةِ مِن مدينةِ البَحرين ، وعُولِجْتُ بها حتّى عاد لي بصيصٌ مِنَ الضوء ، حيث أن ذلك الدواء أزالَ القرحة الناتِئة في العين اليسرى ، وبعضَ الظلال مِنَ السَحابة

المُغطية على العدسة ، ولكنَّ مفعـول الـدواء لم يستأصل إلا جزءً بسيطاً مِنَ السحابةِ المُغطيةِ على العدسة.

وكانت هناك قارورةٌ ثانيةُ مِنَ الكحل تَنْتظرُني لأ تـداوى بهـا - لكنَّ الأقدار وهي نافذةُ الإرادة في التكوين - حـالت بينـي ، وبين التداوي من هذه القـارورة ، حيـث أن هنُـاك شـخْصاً عزيـزاً علـى والدي : هو العلامةُ الشَيْخ علي بنُ حَسَنٍ الجشّي رحمه الله له مقـامٌ عند والدي ، علم بأَثرِ الدواء ، ولديه زوجة مصابة مِنْذُ صِغَرهـا أو شبابها ، بما أُصبْت به.

فطلـب مِـنْ والـدي تلْـك القـارورة ، فهبَّـت أريحيَّتـه ، وكرمـه الفياض ، الَّذي اشتهر بهِ في كل حياتهِ ، فقدَّمهـا للعلاَّمـةِ الجشَّـي ، بالرغم من معارضةِ والدتي لتقديمها لِما رأته - في ذلـك - حرمانـاً مِنْ علاج ابنها ، ولرؤيتها عدم فائدة هذا الدواء لِتلْك المرأة ؛ لأنه لنْ يُعطيها أيَّ نوعٍ مِنَ التَغْير ، وذلك بسَـببِ قِـدَمِ الـداءِ بعينيهـا ؛ وطلبَ أبي وصفةً أخرى ، لإحضار ذلك الدواء الكُحـل غـيرَ أنـه لم يُتَحصَّلْ علَيه ، فكانتْ مشيئةُ اللَّهِ أن أبقى هكذا .

ولَعلَّ هذا مِن الخيرِ ، لا بلْ هو مِـنْ صـالحي ، فكـانَتْ لـي فِـي الحياة أول مصيبةٍ أكْتوي بألمها ، وأعيشها قصـائدَ ، تسـيل شـكوىً وألماً ، وتزداد هــذه الشـكْوى عِنْدمـا أحتـاج ، أو - بـالأَحرى - عنْدما يظمأُ فكري للتزود مِـنْ معـاني الحـرف مـن قـراءة الكتـب ، ويُحال بيني وبينه ، وهو في يدي.

هكذا شعرتُ بآلامٍ مُمِضَّة ، وسوف أتحـدثُ عـنْ هـذه النَاحيـة عنْد السلسلة الّتي تمرُّ بحلقاتِ حياتي.

ولابُدَّ مِنْ إشارةٍ هنا إلى صفحةٍ مِنْ صفحاتِ مأْساةِ عَيْنـي ، ومـا اكتنفتها من رعايةٍ فائقةٍ بَذل فيها الخال علي عبد الوهاب الغانم أثمـن ما يملك ، وتضحيتهِ بحياتهِ في سبيلِ تَمْريضي ، وتخفيفِ آلام ليلي .

فجرَّد حياتَه فراغاً يعيش معي أربعاً وعشرين ساعة حبيساً بـين أربعة جدر ، لا يُفَارق الغرفة الّتـي هـي محطـة تمريضـي ، فينـام إذا نمت ، ويستيقظُ إذا استيقظْت ، ويتألم كلما تألمت ، وبلغ منـه شـوطُ الوفاءِ حتى كانَ يقولُ : تمنيُت - وهي كلمةٌ نابعةٌ مِنْ فؤادِ صدق - لو عِميَتْ عَيْناي وسَلِمَتْ عيناكَ ، لكُنْتُ سعيداً بهذه الحيَاة .

هكذا وفاء الرحم ، الَّذي في صِلَتـه ، وعطائـه، وتضحيتـه ، لا يقفُ عنْدَ حدود ، أو يَرْتبط بمكانٍ، أو زمان .

هذِه القصة حدثتني بها والدتي بما فيها من واقع صـدق ، وأنـا أرْسُم مناظرها ، وصورهَا ، الّتي وعيتُها وأتذكَّرُ ما مـر مـن ظـلال آلامها ، وصُورِها الباهتة البعيدة ، لكوني أعيـشُ في عـالم الطفولـةِ الوادعة وأسأل الله أن يوفقني إلى بُرّ هذا الخال الَّذي أولاني كـلَّ حدْبٍ ، وعطف .

فنعود هنا لَنكمل حياةَ الطفولة ، وما أحلى الطفولةَ وأيامهـا ، حيث إنني وصفتها بما ينطبق عليها من مصداقية هذا البيت ، الذي هو من قصيدة كتبتُها في وصف الطفولة :

الطُفـولاتُ ومـا أعذبَهـاَ   هـي جنـاتُ نَعيـمٍ وحنـانِ

أو كما قلت :

عهـدُ الطُفولـةِ عَهْـدٌ يُسْـتَراحُ بِـهِ   ما فيه مِـنْ حَـزَنٍ يُشْجِي ولا كَـدرِ

مررتُ بهذهِ الحياةِ الملائكية ، لا أشْعر بِمَا حولها مِنْ أمواجٍ تلفُّ شُطآن الحياة ، أو مِنْ مَتَاعِبِ تُثْقِلُ أعباؤها مناكبَ الرجال .

عشتُ خالي البال مطمئناً قانعاً ، لا أحسُّ حتّى بمصيبةِ العين ، وهي أثمن كنز للإنسان ، الّتي تنْعكس على مرآتها صُور الحياة ، وألوانُها ، وجمالُها ، ولذاّتُها في كل أدوار العمر.

وعنْدما أكملتُ العام السَّابع ، وضعني والدي في كتَّاب فضيلتي الأستاذين ، الأخوين : المرحوم الشيخ محمد صالح ، والمرحوم الشيخ ميرزا حسين ابني حسن البريكي.

وكان هذا الكتَّاب في ذلك العصر قمَّة الكتاتيب ، أو يشبه المدارس الّتي لَمْ تدخلها الأساليب الحديثة ، وهو يسيرُ على مْنهجيةٍ غير تنظيمية ، كمدارس الفلاح في الحجاز ، وللمكانة التعليمية لهذا الكتَّاب ، لم يتأثر بالمدرسة الرسمية الّتي فتحتها الدولة بالقطيف ، عام خمسة وخمسين ، أو ستة وخمسين ، بعد الثلاثمائة والألف هجرية ، بالرغم من تَسلُلِ بعْض الطُلابِ منه إليها .

وكان مديرها السّيد رضوان مِنَ المنْطقة الغربية ، ويشْترك معَهُ في التعليم الأستاذ / راشد عبدالله الغانم ، وعلي بنُ أحمد عبد الوهاب الغانم كلاهما مِنْ أهالي القطيف .

وكان مقرُّ المدرسة بيتاً تحت يد الدولةَ يسمَّى : « بيت عبد الرزَّاق الكُردي » ، يقع بالقلعة حاضرة القطيف إلى جوار محلّ استعمل فترة من الزمنَ مقراً لشرطة القطيف ، وكان هذا المقر إلى جانب المحكمة الّتي مقرُها فوق سقف دروازة البحر الشَّرقية ، ويتمه قسمٌ من البيت الذي خُصص سابقاً للمدرسة .

وكانت المدرسةُ الّتي أشرنا لتاريخ تأسيسها تصرف لطلابها ، الدفاتر ، والأقلام ، وبعض المكافأة ، وبدل (خاكية) في زيٍّ موحّد للطلاب[1] ، وسنشير إلى التسلّل لبعض الطلاب من هذا الكتَّاب ، أذكر منْهم على سبيل المِثَال لا الحصْر: عبدالله منْصور أبو السعود ، الَّذي وافته المنية في اليوم السابع والعشرين مِنْ شهر ذي الحجة ، عام الخامس عشر بعد الأربعمائة والألف هجرية ، وطالب محمد خميس ، ومكّي محمد دهنيم .

وبالرغم من هذه المغريات الذي بذلتها المدرسة لم تصادف إقبالاً للالتحاق بها ، والسُّر في ذلك : ما أُلقِيَ في روع القطيفيين : أنَّ هذه المدرسة فاتحةُ إعدادٍ للجندية ، والدليل توحيد الزي الخاكي ، لأن هذا الزي هو شعار الجندية .

أما أنا فأعلل هذه الظاهرة لعدم الوعي التعليمي ، والجهل الذي يعيشه المجتمع في ذلك العصر .

واستمرت هذه المدرسة قرابة ثلاثة أعوام أو أربعة حتى انفصل عن إدارتها السَّيد رضوان ، وراشد الغانم ، وتولّى إدارتها علي أحمد عبد الوهاب الغانم المتوفي عام أربعة وستين ، بعد الثلاثمائة والألف هجرية ونُقل مقرها إلى بيتٍ استأجرته الدولة بالقلْعة مِنْ مالكهِ : عبدالحميد سعود أبو السعود .

وبعد تقليص ظلها التعليمي اقتصر تعليمها على كتاب الله المجيد ، وبعْد مدةٍ مِنْ الزمن أُغلقت ، فعادت القطيف تعيش على

---

(١) لم يكن على المدرسة إقبال ، بالرغم من عدم معارضة العلماء لها ؛بل أكثر من ذلك ، فقد قام والدي بزيارة مديرها السيد رضوان ، وكنت أحمل له الفانوس ، وكان السيد رضوان يسكن بيت الأستاذ عبد الله علي اخوان مجاناً ، فقد أخلاه له لسفره بعائلته ، مهاجراً إلى العراق.

مائدة الكتاتيب، حتى فتحت الدولة المدارس الرسْمية، عام سبعة وستين، بعد الثلاثمائة، والألف هجرية، حيث استأجرت الدولة مقراً للمدرسة الجديدة، مبنى يقع في سوق القطيف بالجبلة مِنْ مالكها: محمَّد صالح بن ياسين النهاش.

ومنْذ فجْر عالم التعليم التاريخي، الَّذي حدْثنا به تأريخ الفَتْح الثَّاني للمدرسة، انْطلقت الحركة التعليمية، ففتحت بالقطيف، ومدنها، وقراها عدّة مدارس مِنْ: ابتدائي، ومتوسط، وثانوية عامة، وثانوية تجارية، ومعهد النور- لتعليم البصيرين - وما يماثلها مِنَ المدارس، والمعاهد.

وما دمنا مررْنا باسم الجبلة، وهي: معلمٌ مِنْ المعالم التاريخية الأثرية الهامة الإستراتيجية، منْذ العصور الموغلة في تاريخ هذا البلد السحيقة البعيدة، فإكمالاً لهذا التاريخ لابد منْ رسم صورة لهذا الموقع التاريخي، وروافده، وشرح اسمه، ولما سُمّي بهذا الاسم؟.

فمعنى الجَبَلةِ لُغةً: هي الأرض الصلبة، الّتي ظاهرُ وجهها حجرٌ صخْريٌ؛ وهكذا كانت الجَبلةُ، الّتي هي ساحة بسوقِ القطيف، مْركزاً لتجارة التمور، وما يُعصر مِنْهُ، الَّذي يُسمَّى باللَّهجة الشعبية القطيفية: «الدِبْس».

وبالرغم من مصارف فضلات النخيل، الّتي تمرُّ مِنْ تحْت باطنها كمصرفٍ يسمى باللَّهجة الشعبية: ساب أبو كحيل، وساب أبو خمسة، وساب الدانق، ولصلابة أَرْضها سُميت: جبلة؛ لأنه لا يتسرب إلى وجْه ظاهرها الماءُ منْ خلال جذورها الباطنية برطوبة، أو طبَعٌ، فلا تُؤثر أرضها على ما يوضع فيها مِنْ تمورٍ، وأطعمةٍ،

أو أشياءَ أُخْرى، فتظل التمور ملقاة على أرضها أسبوعاً أو يزيد ولا ترى به أثراً أو تغيراً.

ولِموقعها الإستراتيجي، صلحت مرْكزاً تجارياً لبيع التُمور، وبَعْضِ البضائع، والسلع، وكانت ملتقىً لجميع شخصيات القطيف، وقراها، فهي الحركة الّتي تدور عليها التجارة الداخلية، والخارجية.

وتُحيط هذه الساحة حوانيت بائعي التمور، كمَا توجد على جوانبِها ثلاثة مقاهي تقع: اثنتان منها على جانبها في الشمال، وأُخرى على جانبها في جهة الجنوب بحذاء المنصورية من الغرب.

وهذه المقاهي تلتقي بها جميع الشخصيات على اختلاف طبقاتها من القلعة - الحاضرة - وقرى القطيف، ولا سيما مقهى الغراب الّتي يديرها الأخوان صالح، ورضي، فتزدحم مقاعدها بكثافة بشرية ولا سيما صبيحة يوم الخميس.

ونكمل الصورة المؤطرة عن الجبلة، فهي تموج بعدة محطات، وألوان، فهي البوابة للحركة التجارية الداخلية، والخارجية، فتجتمع الشخصياتُ على اختلاف طبقاتها ضحى كل يوم على مقاعدها الخشبية، كالأغنياء مِنَ: التجّار، والملاّك، وذوي الثْروة، والفلاحين، والفقراء، والبحارة، والحمالين، وسائقي الأتن الذين يعرفون باللهجة القطيفية «بالحمّارة» نسبة للحمير لما يحملون عليها من أثقال يتعيشون منها، وينفقون على عوائلهم وجميع تجار التمور، واللؤْلُؤ، كما تجتمع بها شريحة من الحضر والبدو، فهي أُفقٌ يضُمُّ ألْواناً مِنْ شرائح البشر.

وتوجد بساحتها محطةً لبيع الماشية : كالإبل ، والمعز ، والأُتن ، والسمن الذي يسمى باللهجة الشعبية الدهن ، ويُأخذ من لبنِ فصيل البقر ، والمعز ، فالذي هو من فصيل البقر تبيعه الحاضرة ، أما ما كان من فصيل الغنم فتجْلبه البادية الرحَّل مِنْ قلْب الصحراء ، فهي محور للحركة الاقتصادية الداخلية ، والخارجية .

كما يوجد بها مكتبٌ رسميٌ من الدولة مقره مبنى المنصورية الّتي تقعُ على أطراف الجبلة في الجهة الجنوبية ، يعرف بمكتب «الباج » ومهمته ترسيم كل ما يباع من الماشية من الحيوان من أي نوعٍ من أنواعِها ، فكل ماشية تباعُ ولا تُرسّم ويوثقُها هذا المكتب بوثيقةٍ تعتبرُ مسروقة ، وريعه يعود إلى صندوق الدولة .

وبعد إنشاء بلدية القطيف صدر مرسومٌ ملكي بإعادة هذا الربع إلى البلدية لصرفهِ فيما تتطلبه من نظافةٍ وغيرها ، وبعد فترةٍ أُلغي هذا المكتب وعُفيت الناس من هذا الرسم ، ولم أتحصل على تاريخ التحول للبلدية ولا تاريخَ الإلغاء ، والإعفاء .

وفيما أظنُ أن هذا المكتب من عهد حكم الأتراك ، ولعل كلمة «باج » هي كلمةٌ تُركية ، ولعل إلِغاءَهُ عند السبعينات بعد الثلاثمائة والألف هجرية .

وللجبلة تاريخ عظيم امتدَّت جذوره مئات السنين مع سوق القطيف الرئيسي ، ولم أقف على تاريخ يحدد متى أُسِسَتا على قيد هذه الحياة .

غير أن بعض الطاعنين في السن يقولون منذُ مصِّرت قلعة القطيف ، الّتي مضى على تمصيرها ألفٌ ومائتا عام هجري ، كونت

هذه الساحة مع السوق لحاجة المرافد الضرورية ، إلا أنهما تطورتا مع تطور الزمن .

والذي يؤسفني انطواء هذا الأثر التاريخي بقالبه البنائي ، وشكله المعنوي ، ونخيله الوارفة الظلال ، وحركته التجارية ، كلُّ شيء انتهى وهدأت حركته إلى فتورٍ ، وسكون ، ولمْ يبْقَ مِنْ هذه الحياة وشكْلها إلاَّ خيالاً ، يطوف في الأذْهان لِمَنْ شهد ورأى هذه الحياة ، حيْث كانت ثابتة الأركان ، مطنبة البنيان.

وهذه لمحة تاريخية نُسَّجلها عن هذا الأثر ، لئلا تضيع كما ضاع تاريخُنا .

* * *



صورتان تمثلان معالم سوق القطيف القديم ، ومعالم الجبلة



وبعد الحديث عنْ هذه اللّمحة التاريخية نعود إلى وصف كتابنا الّذي بدأناه: فكان يتعاقب على التعليم في الكتّاب، الأستاذ الشيخ محمد صالح صباحاً، والأستاذ الشيخ ميرزا مساءً، وأما إجازة الطلاب، وتعطيل الكتّاب فهي الخميس، والجمعة.

كما أنني انفردتُ بناحية تعليمية دون الطلاب، حيث أوصى والدي المعلم بطريقة تعليمي أن تكون غيبياً، فحفظْت كتاب الله - القرآن المجيد - وشدّد والدي على المعلّم أن لا اقرأ بعيني، أو أكتب حساباً، أو إملاءً، أو خطاً .... عطفاً مِنْه، ومحافظةً عليَّ أن احتفظ بهذا الظلِّ مِنَ الضوء الباهت، لأبصُر بها الطريق المادِّي فِي هذه الحياة، لا الطريق المعنوي، فإنَّه يُرى بالقلْب.

ولكن لشوقي المُلح لحبّ العلم، وما يدفعني مِنْ فضول، يحثُّني على مشاركة زملائي التلاميذ فيما يكتبون، ويقرؤون بأعينهم، دفعني أيضاً لأن أقرأ، وأكتب، وأتعلّم الحساب، غير أني لم أتحصل على قسطٍ مفيدٍ منه، حيث سمع والدي بذلك، فأرْسل إلى المعلّمِ يُشدد عليه، ويطْلبُ مِنْه أن يستمرَّ في تعليمي عنْ طريق الحفظ الغيبْي، لا التعليم النظري، بلْ قال له: إذا يستمرُّ الابن على التعليم النظري، فسوف أُخرجه مِنَ الكتّاب خشْيةً عليه مِنْ ذهاب البقية الباقية مِنْ رؤيته البصرية.

وهنا سرُّ الحكْمة، الّتي ألْهمها الله - سبْحانه وتعالى - والدي، حيْث لو استمرّيت على التعليم النظري، لذهب البصر كلُّه، ولَمْ تتبقَّ هذه الجذْوة، الّتي كادت أن تَخمد - لولا رحمة اللّه - وكان مصداق هذا التنبُّؤ لوالدي واقعياً، وكأنه نظر بعين

الغيب ، أو أُزيلَ له سِتار المستقبل فرأى الواقع الّـذي لا يكـذب ، حيث دارت عجلـة الحيـاةِ ، ومـرَّت تنطـوي تحـت دورتهـا أيْ دورة الأرض حول الشمس.

فبعد مـوت والـدي بـأعوام ، وتقـدم التكنولوجيـا العلميـة ، والطبية ، هنا يظْهر السرُّ الخفي الَّذي كان أبي ينظر إليه مِـنْ كـوى الَغيْب ، حيثُ زرتُ مستشفى الظهران ، لمراجعة طبية مـع العائلـة ، ولما دخلت معها إلى عيادة الطبيبة ، وكانت الطبيبـة طبيبـةً حاذقـةً أمريكية ، تجيد اللّغة العربية في ذلك المستشْفى ، فدار الحديث حوْل الثقافة الأمريكية ، وما فيها مِـنْ صـور أَخـَّاذة ، فـأُعجبت الطبيبـة بهـذا الحديـث ، لأنـه تنـاول ثقافـة مدينتهـا خاصـــة ، والثقافـــة الأمريكية عامة .

وبعد إعجابها ، ودهشتها بهذا الحديـث ، وجهـت لـي علامـة استفهام : هل زرْت أمريكا حتى تتحدَّث عنهـا برؤيـةٍ واضحـة ؟! ، فكان جوابي: إنني رأيتها عن طريــق الكتـب الّتـي قرأْتُهـا ، ومـن ضمن الكتبِ كتابٌ اسمه : الدنيا فِي أمريكا .

فأبدت تقديرها لي ، مما دعاها أن تصحبَنــي ، وهـي تشْـرح لي : سأقدمك إلى طبيبٍ لبناني عربي ، أخصــائي في العيـون ، مِـن الأطبـاء الحـاذقين والمختصـين ، متخـرج مِـنْ إحـدى الجامعـــات الأمريكية .

فمشت معي يداً بيد إلى ذلك الطبيب ، وأعطته عني توصية في صورة إكبار وإعجاب ، وعندما فحص عيني ، وقصصْت عليه طريقة تعليمي بتنفيذٍ مِنْ رؤية والدي ، وتشديده على المعلِّم في تنفيذ هـذه

الطريقة ، وهو التعليم الغيبي الّذي لا دخل للنظر فيه ، قدر هذه الفكرة ، وأُعجب بها ، وقال : كأنَّ والدك نظر بعين الغيب ، إذْ لو تعلّمت عَنْ طريق البصر ، لذهبت هذه البقية ، ولكنَّ الله أراد بك خيراً .

وشاءت الصدفُ أن تكشف الحقيقة ، الّتي تنبأ بها والدي ، وهذه القصة تعود بي القهقرى إلى عام سبعين بعد الثلاثمائة والألف هجرية ، إنْ لَمْ تخنّي الذاكرة .

وبعد الحديث عَنْ هذه القصة ، الّتي دارتْ معَ الطبيب الأخصّائي ، نعود إلى ذكريات الكتّاب لقصِّ ما حدث بين المعلِّم ، وأبي وأنا في غفلةٍ من ذلك ، حيثُ فوُجئتُ بسحْب الأقلام ، والأوراق منّي ، والمعلِّم يشدد على الطلاب بلهجةٍ عنيفةٍ : أن لاَّ يتْركوا لي مجالاً أنفذُ مِنْه للتعليم النظري ، بل يكون تعليمي غيبياً .

فكانت بالنْسبة لي حادثة مؤلمة ، ومصيبة فظيعة لجهلي المصلحة ، والسرّ في ذلك ، فتألّمت ، ونفذّت الأمر على مضض .

كان والدي ذو القلب الرقيق ، والحنان الأبوي ساهراً متألماً ، لا يهدأ له بال ، ولا يقرُّ له قرار ، لما انتابني من مأساة العين ، ولشدة إعصار الألم في قلبه لما يراه لي من مستقبلٍ مرٍ ، يدير مع أخي حسن قصة تاريخية جرت مع أحد حكام الأمويين .

كان هذا الحاكم يخشى من قريب له أن يثور عليه ، وينتزع السلطان من كفه ، فجاء له الرقيب الموكل برصد حركات ، وسكنات هذا الشخص بأحرف مختصرة مفيدة : إنه محتاج لبقائك يا أمير المؤمنين .

فهذه القصة تعطي لونا من العطف، والحنان الذي بلغ ذروة الحب، والعطف في قلب أبي، كما اشترك الألم الخفي المبطن بعدم الظهور، ولكن مشيئة الله أعطتني تعويضاً عن إصابة عيني بنعم جسيمة، وحوّلت المستقبل المخوف إلى صباحٍ مشرق برغم المعاناةِ، وإصطخابِ أمواج أهوال هذه الدنيا الّتي شَقَقتُ عُبَابَها، وحفرتُ بإزميلي في صخرها، فشكراً للمنعم.

وهذه القصة رواها لي أخي الشيخ حسن.

ولحنان والدي قرَّر حينما كنت في الكتَّاب في التاسعة مِنْ عمْري، أن يرسلني إلى علاج عيني خارج المملكة.

ومِن الصّدف قررت والدتي السّفر معي، ومع أخي الأستاذ: الشّيخ عبدالله، وكان يبْلغ منَ العمر سنتين وتسعة شهور، وأخت لي هي السيدة: زينب - وكانت تبلغ مِنَ العمْر قرابة العام - وقد أرسلنا والدنا إلى بغداد بعهدة خال الوالدة - شقيق والدتها - ويسمّى: عبدالله بنَ عبد الوهاب الغانم، فسافرنا معه إلى بغداد عن طريق البحر على جناح سفينة تجارية، ولكنها كانت سفرةً مؤلمة، حيث إن هذا الشخص أساء معاملة الوالدة، ومعاملتنا، فكانت النقطة الثانية المؤلمة في صفحة حياتي.

والنقطة الثالثة، وهي ثالثة الأثافي، أن أوكل والدي علاج عيني إلى شخصٍ مِنَ القطيف يُدعى: السيِّد أمان الشرفاء - وكان آنذاك ساكناً ببغداد - فلما أتيته بالتوصية مِن والدي هلَّل، ورحَّب بهذه الرسالة، فقال: سأدخلك أحسن مستشفى في العراق.

فذهب بي إلى مستشفى المجيدية ببغداد ، وهو الذي يسمى اليوم بمدينة الطب - على ما أعرفه - وبعد الفحوص أجريت العملية الجراحية في عيني اليمنى ، وكنت أحس تلك العملية ، وأتصورها كما أتحدَّث عنْها ، وأرسمها .

وكان ذلك المستشفى لا يحْمل النظافة الواقية ، ولا يتمثل فيه الوعي الصحي بصفتهِ مستشفى ؛ وعنْدما نُقلْت لغرفة العمليات ، كان هناك سرير خشبي - منَ الخشب الهربل - فنُوِّمت عليه بغير فراش ، وبعدها جاءت إحدى الممرضات لتعصب عيني اليسرى لئلاَّ أبصر المشرط ، والمقص ، وبعدها أجرت التْخدير الموضعي في العين اليمني حتى لا أحسَّ بالأدوات الجراحية الّتي تُجرى بها العملية .

وبالرغم مِنْ هذه المحاولة الفاشلة ، فقد كنْت أحسُّ بما يجري ، ويدور مِنْ حركاتٍ للممرضات ، والأطباء ، كما أحسسْت بالأدوات : كالمشرط ، والمقص حينما يُجْريهم الطبيب بعيني .

وأُجريت تْلك العملية ، الّتي لَمْ تُكلَّل بالنجاح ، إذْ لا يزال اللَّيل جاثماً ، ونائماً بظلِّهِ فيها .

وقدْ زاد ذلك الفشل مَنْ أُوكلْتُ له بتصرّفه السيئ ، حيثُ لَمْ يدفع كامل أجْرة العملية ، ورفض الذهاب بي إلى المسْتشفى ، الّتي أُجريت به العملية ، بل فرَّ بي إلى عيادةٍ بسيطةٍ ليست على مستوىً عالٍ من العيادات الطبية خشية تسديد ثمن تكلفة العملية .

وزاد الطين بلة ، حيث جشمني السير على الأقدام من مدينة الكاظمية إلى مدينة بغداد ، مَارين بجسر الأعظمية ، في أكثر

المراجعات، غير مراعٍ لجراحة العين، فيُجللني الخجل، والحياء، فلا أطْلب منْه الركوب في سيارة أو عربة، فأسير معه صامتاً، كئيباً، منكمشاً على نفسي.

وقدْ قاسْيت مِنْ هذه الرحلة ألْوان الألم مِنْ كلِّ نوعٍ، ومِنْ جرَّاء فشل هذه العملية أصبحت عيني اليمني خاوية؛ وبلغَ السيْل الزُبى فتعاون مَنْ وُلِّي علينا: الخال عبدالله الغانم، فأذاقنا مرارة الجوع، مع السَّيد أمان الشرفاء، فكانا رحمهما اللَّهُ فرسَيْ رهان.

ويضاعف الخال المأساة حيث قبض مصروف السفر مقدماً لزيارة العراق مع ربوع إيران، غير أنه لم ينفذ ما أتفق عليه مع أبي من شروط، ولم يذهب بنا إلى ربوع إيران، وابتلع جيبه جميع المخصصات لهذه الربوع.

وعنْدما أقْفل بنا الخال عبدالله الغانم راجعاً من بغداد إلى البصرة، ترك القطار، وأرْكبنا في باخرةٍ لشحن الأثقال، والطرود التجارية، حيث أجور المحل الذي أجلسنا فيه الذي يسمى بسطح الباخرة لا تزيد عن أجرة نقل الطرود التجارية، فساوانا وقيمَّنا بهذه الطرود عفا الله عنه.

وبعد وصولِنا إلى مدينة البصْرة، كان عليه كمسؤول استَلم مصاريف السفر مقدماً، مضافاً إلى ما باعه - في مدينة البحرين - مِنَ الحُلي الذهبيَّة الخاصَّة بوالدتي، حيث سَّلمتْها له، ولا تعلم كم كان ثمنها؟ وما مقدارُ وزنها؟.

ولم يخبرها حتى اختاره اللّه - واللّه هو العليم بذلك - بالرغم من مقالة سبقت من الخال حسن عبدالله الراشد الغانم لأبي: إن

من رأيي أن يكون البائعُ للحُلي الذهبية الّتي للأخت هو السيد سعيد السيد علي العوامي المتوفي في شهر شعبان عام الستين بعد الثلاثمائة والألف هجرية على مهاجرها أفضل الصلاة والسلام - ما دام موجوداً في مدينة البحرين.

فكان جواب أبي ينبع من صفاء نفس طاهرة: أخشى أن يتأثر عبدالله نفسياً لما يفسره من علامة اتهام بعيدة توجه إليه.

وهكذا كان التقدير له من أبي فقابله غير راعٍ الحق ولا التقدير فبدل أن يُسكننا في فنْدقٍ أو شقةٍ، أو بيتاً يليق بحياتنا، ويُبْرأ ذِمَته، أنزلنا بسفينة شراعية، وأقمْنا بها أياماً، وأياماً ننتظر الرحيل بفارغ الصبر، والسفينة تنتظرُ الحمولةَ، وبعدَ حصولها عليها، أقْلعت بنا السفينةُ الشراعية، تمْخر عباب البحر، حيْث قاسينا فيها أهوال البحر، وما فيه من غرائبَ، وعجائب، بقينا فيها نسير قرابة شَهْرٍ حتى مرَّ بنا عاصفٌ فكسر حامل الشراع - المعروف باللَّهجة العامية البحرية القطيفية ب (الدقل) - ولكنَّ عناية اللّه ورأفْته شملْتنا برحمته، فأنعم علينا، وكمْ له مِنْ نِعَمٍ ظاهرةٍ، وباطنةٍ لا تُعدُّ ولا تُحصى، فنجانا منْ هذه الكارثة، إلى أن وصلْنا إلى (رأس تنورة) الّتي هي اليوم مركز تصفية ينابيع البترول، وميناء التعبئة للبواخر العملاقة.

وعند وصولنا استقبلنا ابن خالنا الحاج محمد الشيخ حسين عبد الجبار - المتوفى في شهر ذي الحجة، عام سبعة وثمانين بعد الثلاثمائة والألْف هجرية، على مهاجرها أفضل الصلاة والسلام - وكان هذا الشخص من المؤمنين الأخيار، والمحبين إلى أبي فأنزلنا

بواسطة زورقٍ لضيافتنا في محله التجاري، وبذل لنا العناية التامة، وكان - حين ذاك - تاجراً يستقبل السفن، الّتي تغوص في البحر، والطواشين الَّذين يتاجرون في اللّؤلؤ فيزودهم بألوان الأطْعمة.

وبعدَ أن قضينا عنْده يوماً وليلة، كانت لماضينا المرهق وارفَ ظلٍ من نعيم، أقلعت بنا السفينة إلى المْيناء الرئيسية لبلادنا - القطيف - حين ذاك، ونحن نحفاء الجسم مصفري الوجوه، متعبين، مرهقين مِنَ العناء، فما كادت أن تقع عين والدي علينا - وهو الصبور القوي - حتى ترقْرقَت الدموع في عينيه، فأجهش بالبكاء، فتألم ألماً شديداً لما ألَّم بنا من سفرٍ، كلّه متاعب سْلسلةُ مِنَ الآلام، والأحزان.

ولا أُريد أن أنشر كتاب هذه السفرة، وما صاحبها مِنْ مصائبَ مُمِضَّة، وأحداثٍ مْقلقة بل أطويها، وأكتفي بهذه الإلمامة لأنها حرفٌ مِنْ حروف حياتي الّتي مررت بها، وأنا في دور الطفولة، ولكنه لزاماً عليَّ أن أشير إليها، ولو إيماءة الشاطئ لأمانة التأريخ، وقدْ لفَّ الموتُ صاحبينا: خال الوالدة، ومَنْ كلف بعلاجي، وذهبا إلى رحمة اللّه - سامحهما اللَه، وعفا عنهما.

وقبْل أن نُغْلق ملفَّ السفرةِ المأساوية مَع الخال، نُحبُّ أن نَنْشر صفحةً هي ذيلٌ من ذيول هذه الرحلة، ولابدّ مِنْ نشْرها، والإشارة إلى حروفها.

فبعد عودتنا بأشْهر، قام الخال عبدالله بن عبد الوهاب بعملٍ لا يليق بالمؤمنين في شهر رمضان المبارك، الذي يتقرب المؤمنون فيه إلى مولاهم، وخالِقهم، والوالد - في ذلك الشهر العظيم - لا

يكاد أن يفارق المسجد ، وما شعر وهو - في مسجده إلا بدخول عبدالله عبد الوهاب مع «خوي» منَ الإمارة - أي موظف يعمل لديها .

ولمكانة والدي العلْمية ، والاجتماعية ، تقدَّم «الخوي» بكلِّ أدبٍ واحترام قائلاً : إن هذا الشخص عبدالله تقدَّم عليك بدعوى يدَّعى فيها : أن له عشرين ربية - العملة المتداولة في ذلك الوقت وهي السكة الهندية - بقية تكاليف سفر أبنائكَ معه .

فثارت ثائرة المصلين ، والجالسين للبحث ، فهدَّأ والدي ثورتهم ، ثم انبرى قائلاً بلطفٍ وحنانٍ ، يخاطب عبدالله عبد الوهاب : ليتك طلبت منّي على غير هذه الصورة البشعة ، والأسلوب اللا إنساني ، إذْ لا حقَّ لك عنْدي ، ولكنني أترفع عن منازعتكَ فيما ادعيت ، وأمر السيَّد شبَّر السيّد محفوظ الخباز - المتوفى عام السابعة والستين بعد الثلاثمائة والألف هجرية - أن يذْهب معه ، ويسدّد له هذا المبْلغ .

وتدور عجلة الزمن أياماً ، وليس أشهر ، فيكافئه أبي على إساءتهِ بإحسانٍ فيُرسل له صلةً سرّيةً في سبيل الله ، فيعترض على هذا الفعل أخي الأكبر: الشيخ حسن قائلاً :

أنسيتَ يا أبي كيف أساء لك ، وأهانك في شهر رمضان ، وفي بيتٍ مِنْ بيوت اللّه ؟ .

فأجابه أبي : يا بني لا تعترض عليَّ أنسيت ما عمله عبدالرحمن بن ملجم في إمامك علي عليه السلام الذي فجع فيه الإسلامَ والأمة ، وإمامُك وهو في حياض الموت يوصي به ، وما

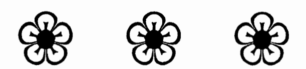
شرب إلا قال ارفعوه إلى أسِيركم، ويضيف الإمام باللّه عليكم إلا طيَّبتم مطعمهُ، ومشربه.

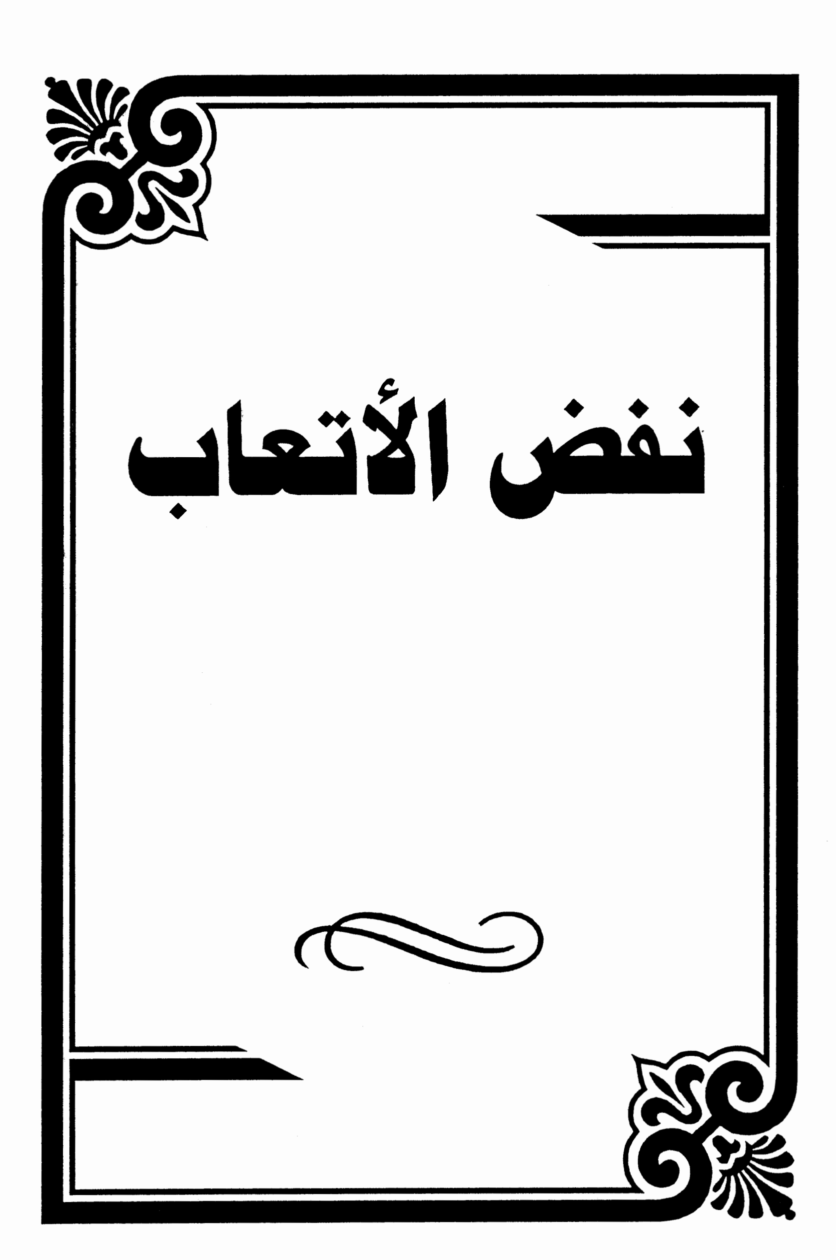
فيعلق أبي على هذا الخُلُق الرفيع موجهاً هذا الدرس لابنهِ: أيْن نحْن مِنْ عمل هذا الإمام العظيم، الَّذي لا نستطيع ولا نقْدر أن نسير كهذه السيرة العظيمة، ولكنْ علينا أنْ نبذل ما نسْتطيع من طاقة، ولو ظِلاً مِنْ هذا الخُلق، وهذا المنْهج الإسلامي.

إنما روينا هذه القصة لما فيها مِنْ درس أخلاقي، يُضيء لنا هذه الحياة الفانية.

وبعد ما قام به الخال عبدالله من عمل لا أخلاقي، غضب عليه الجمهور، وكان خطيباً واعظاً فانْفضُّوا عنْه، وصاروا لا يحضرون مجالسه، مِمَّا اضطرّ مَنْ يسْتأجره للقراءة، والوعظ إلى ترْكه، ومن الرجال الذين تركوه الحاج محمد صالح النهاش، وكما ترك هو تلك المهنة رغماً لا اختياراً، وغادر القلعة حاضِرة القطيف - إلى إحدى قراها - العوامية - ليْنكمش وينْزوي بها.

وهذه القصة الذيليه رواها لي أخي الشيخ حسن بما فيها من اعتراض له وجواب أبيه، وتاريخ وقوعها في شهر رمضان عام الرابع والخمسين بعد الثلاثمائة والألف هجري.





نفض الأتعاب

بعْد أن نفضْنا طيوف أتعاب السفر ، وما فيه مِنْ ليْل الآلام والعناء ، وبدَّدْنا ضباب المآسي ، الّتي تلبدت في آفاق نفوسنا ، وأجسامنا من هذا السفر المأساوي ، الَّذي لمْ يكنْ سفراً مريحاً .

وبعْد الاستجمام ودور النقاهة ، عدْتُ للكتَّاب لمواصلة تعليمي ، وأخذْتُ أحفظ القصائد العربية ، والحكمية .

وكمْ لي في الكتّاب مِنْ قصصٍ مضْحكة أؤلّفها مع الطلاَّب ؟!.... فيرفع بعْضُ التلاميذ وشايةً إلى أستاذنا الكريم فضيلة الشيخ ميرزا حسين البريكي على ما نُألّفه مع التلاميذ الآخرين ، فينزل الأستاذ عقوبتهُ على التلاميذ الذّين اشتركوا معي في نسج القصص المضحكة دون معاقبتي .

وكان يتعاقب على تعليمنا صباحاً : فضيلة الشيخ محمَّد صالح بن الحاج حسن البريكي ، وعصراً أخوه فضيلة الشيخ ميرزا بن الحاج حسن البريكي .

وكان الثاني أنشط على الكتَّاب مِنْ أخيه ، والطلاب يرهبون « مخصرته » ويخافونها ، لأنه كثير الإحساس ، وسريع الحركة ، وهو

دائماً للطلاّب بالمْرصاد ، لا تكاد عصاته أن يَفلت منْها طالبٌ ، إلاّ أنا قْد نجوت منْها بأعجوبةٍ مِنْ العجائب .

وببساطة ، أرْوي قصةً لي، حدثتْ مع أحد الطلاّب كان يسمى : طالب محمّد خميس توفّاه اللّه في شهْر شوال ، عام واحد وتسعين ، بعد الثلاثمائة والألف هجرية ، وهو أحدُ الطلاّب الَّذين التحقوا بأول مدرسة رسمية فتحتها الدولة ، وقد أشرنا لالتحاقهِ بالمدرسة عند الحديث عنها سابقاً .

حيث قمْنا - أنا وهو - برسْم صورةٍ تمّثل رجلاً بصورةٍ كاريكاتورية ، فأضْحكه هذا الرَّسم ، فأجْهش بالضحك ، حتى بدت نواجذه ؛ وقهقه قهقهةً عاليةً حتى وصلت أصْداؤها لأستاذنا : الشيْخ ميرزا ، فلمْ نشْعر إلا بانقضاضه كانقضاض العقاب على العصفور وفي يدهِ مخصرتُه ، وفتح باعه وسلَّطها على طالب محمد خميس ، فبادر الطالب قائلاً : يا أستاذ ، إنني لمْ أذْنب ، إنَّما قام بتمثيل الصورة المضحكة محمد سعيد وأشار بإصبعه إليَّ وهو الباعث لضَحكي .

غير أن الأستاذ ، أعْرض عنه ، ولمْ يأْخذ كلامه بالجد ، ولمْ يُوجِّه لي أيّ علامة استفهام منْ قريبٍ ، أو بعيد .

وذهب الأستاذُ إلى مكانهِ ، وعْدنا لنشاطنا الثقافي ، حيث كنَّا نقْرأ قصيدة الشاعر الطغرائي الّتي تعرف بلاميّة العرب الّتي مطلعها :

أصالة الرأي ، صانتني عن الخطل   وحِلية الفضل زانتني لدى العَطل

وغيرها مِنْ القصائد العربيَّة كشعر ابن أبي ربيعة :

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد   وشفت أنفسنا مما نجد

واستبدَّت مرة واحدةً   إنَّما العاجز مَنْ لا يسْتبد

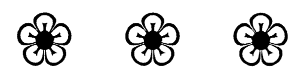
ولا يفوتنا أن نشير إلى ظاهرة نفسية بقيت في آفاق ضمير طالب ابن محمد خميس حتى وصل إلى دور الرجولة، وامتهن التجارة، ولا نزال تلح عليه أصداء الظاهرة النفسية، وظهرت وقفزت منه في سؤالٍ حين كنا في ذات يوم في حانوته - المتجر القماشي - مع أستاذنا، وبدأنا ندير أطراف الحديث، وفوجئت بالتفاتةٍ تموج في آفاق بعيدة في نفس طالب محمد خميس، فتنبعثُ في علامة استفهام قائلاً:

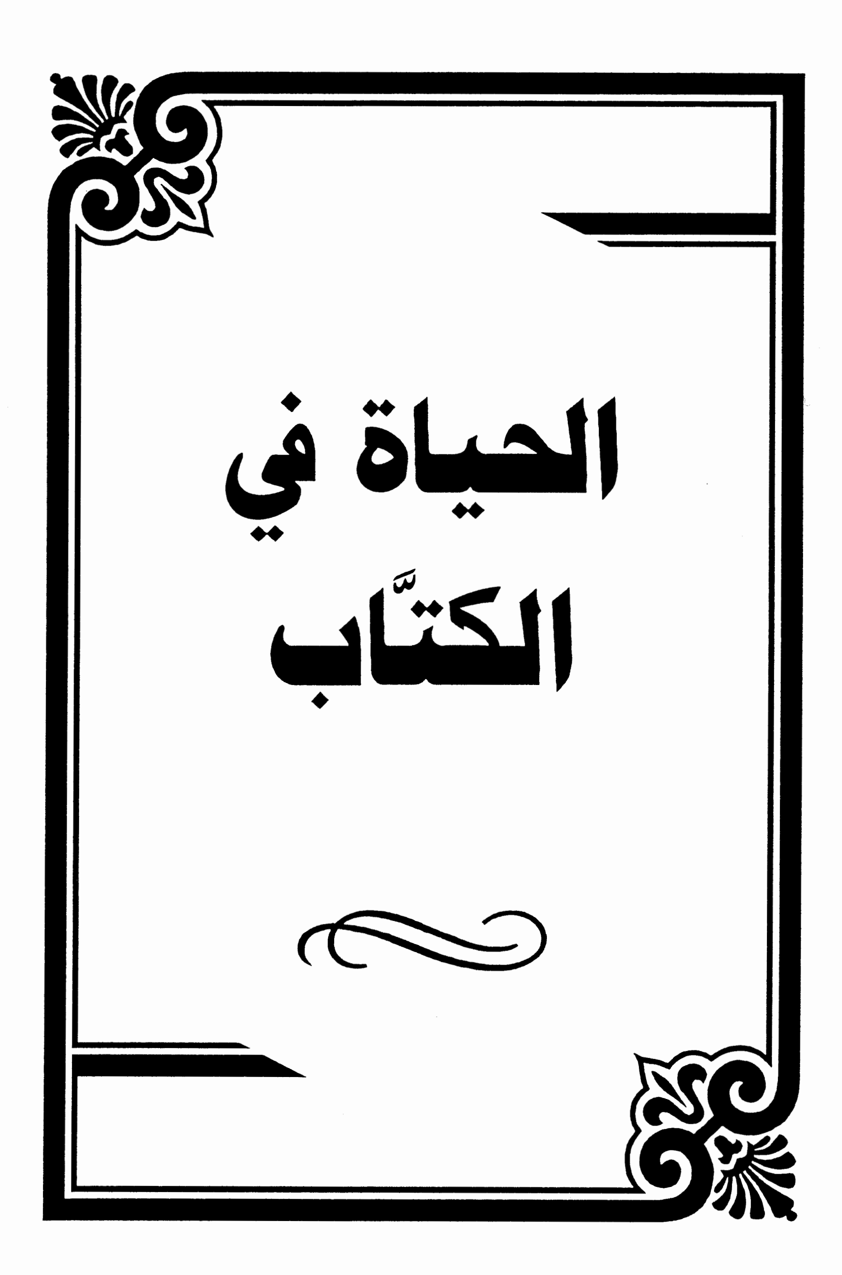
هل تتذكر يا أستاذ عندما كنا في الكتَّاب، وقام محمد سعيد يعمل صورة كاريكاتورية مضحكة، وحملتني الذنب، وعاقبتني عليها برغم شرحي لك عن الحقيقة؟.

فأعرض عنه، وطوى صفحة الحديث إلى صفحة حديث آخر.

وهكذا كانت أيَّام الكتّاب مرحاً، ونشاطاً، وجداً، وهزلاً، ونعيش في حياةٍ لا نشْعر، بما يتلبَّد في أجوائها مِنْ: تعبٍ أو عناء، لأن آباءنا كفلوا لنا أعباء هذه الحياة وتحملوا مسئوليتها.

وكان هذا الكتَّاب في عصره أفضل كتَّاب، بلْ هو قمَّة الكتاتيب؛ حيْث لا يُقْتصر التعليم فيه على كتَاب اللَّه، ونقش الحرف أي (الخطّ)، والحساب فقط، بل يتعلَّم الطالب لوناً مِنْ ألْوان الثقافة: كتَحفيظه الشِّعر العربي، وشرْح بعض كلماته اللّغوية، ومبادئ التاريخ، وصور مِنْ ألوان الحياة الفكرية، وضروب مِنْ أنواع علْم الرياضيات - الّتي تُعْرف في ذلك العصْر: بالجمع، والطرح، والضرب، والقسْمة - ونمط مِنْ قصص التاريخ العربي، والإسلامي.





الحياة في الكتّاب

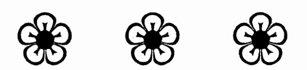
إنَّ حياة الطالب في الكتَّاب ، كانت حياةً رتيبةً بسيطة ، وفيما أظنْ أن الحياة التعليمية مهما تطـوَّرت بألوانهـا ، وصورهـا ؛ فهـي حياةٌ رتيبةٌ للطالب ، والأستاذ ؛ يُصْبح الطالب ، ويهبُّ مِـنْ نوْمـه ؛ ليغتسـل ، ويتنـاول وجبـةَ الإفطـار ، ويرْتـدي ملابسـهُ ، ويـأخذ حقيبتـهُ ، ليذْهـب للكتّـاب أو للمدرسـة الّتـي نسـمّيها اليـوم في عصْرنا .

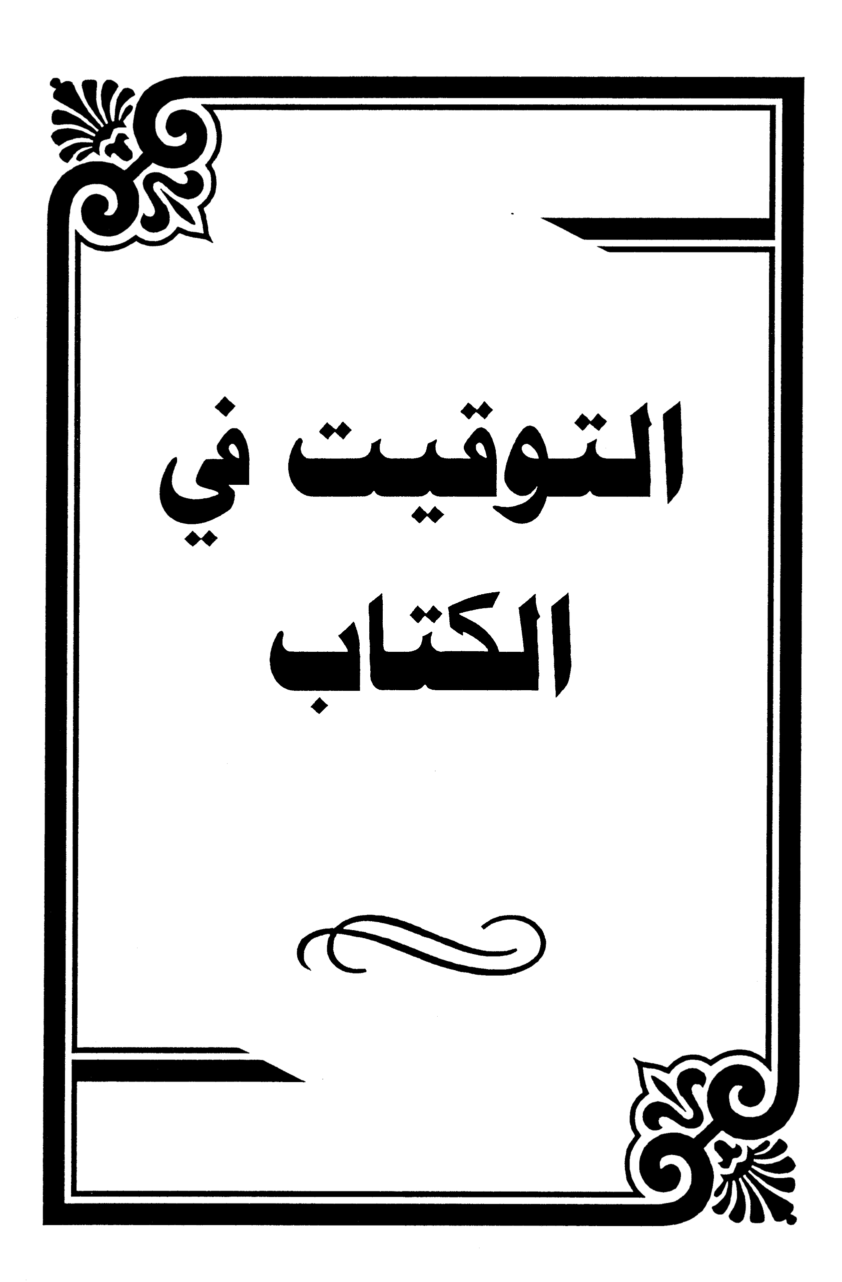
وهنا أُريـد أن أصـوِّر في حديثـي ، وأُجسِّـد وضـع الكتَّـاب ، وحياة الطالب فيه ، فالكتَّاب هو : بيت المعلِّم . يخصِّصلطلابـه غرفـةً مِـنْ بْيتـه ، تكـون مقـراً للكتّـاب ؛ والكتّـاب يختلـف بـاختلاف اقتصاديات هذا المعلِّم ، فالغرفة تُفْرش بالحُصُر التّي ينتجها صنّـاع البلْدة وهي تُعْمل منْ خوص النَّخل وبعض الطلاَّب الَّذيـن آبـاؤهم على سعةٍ اقتصادية ، يتميَّزون فيأْتون لهم بسجاجيدَ خاصَّة - وهي مِنْ صنع البلد ، وتُصْنع مِنَ الأسل الّتي تُنْبته الأرض ، ومـن حبـالٍ يفتلُ من ليف النخل ، فتكـون هـذه السجّادة أمْيز مِـنَ الحصير ، وأنظف منه لكونها أجود جنسـاً مـن الحصير ، وخاصـةً بمالكهـا ، وهذه السجّادة تُعْرف : ب (المدَّة) باللَّهجة الشعبية القطيفية .

أمَّا الحُصُرُ فهي مشْتركة لجميع الطلاَّب ، يدوسونها بـأقدامهم ، وهي تتصبب عرقاً فتنْطبع تلْك الأقـدام علـى هـذه الحصـر ؛ فـإذا جلس الطالب عليها فترة وقام ، شاهد صوراً لتلك الأقدام مطبوعـةً على ملابسه ، فالمديدُ تُعمل عـن طريـق معمـل بدائـي وهـو يشـبه مصنعاً يُكوَّن من جذوع النخل ويمدد فيه أحبلةٌ من النخلِ ومقبـضٌ يمر بالمصنع من أوله إلى آخره تكسوه الأسل التي تنبته الأرض مـع الحبال الذي يكون سدى للمدَّة ، تحركه يدُ أشخاص تتنـاوب عليـه حتى تَكتملَ صنعة هذه المدَّة .

وسميت مدَّة لأنها تُمد للجلوس عليها ، أما الحصر فتعمل عن طريق السف بعد أن يوضع خوص النخل في ماءٍ لئلا يجـف وييبـس فيتقصف، وبعدها يسفّ بأيد رجالٍ كما تقوم بهذه العملية نساء .

وقد انقرضت هاتـان الصناعتـان وحلّـت محلهمـا «الباغـة» البلاستيكية ، أو الصوف من السجاد الذي يعمل بـأيدٍ بلجيكيـة ، أو غربية بالمعنى العام .





التوقيت في الكتاب

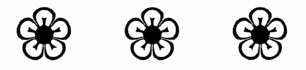
يبْدأ التعليم في الكتّاب صباحاً - بالتوقيت الغروبي - السَّاعة الثانية عشرة حتّى وقت الزوال - أيْ عنْد أذان الظهر - ومساءً مِنَ السَّاعة الثامنة - بالتوقيت الغروبي - حتّى الحادية عشرة وثلاثين دقيقة.

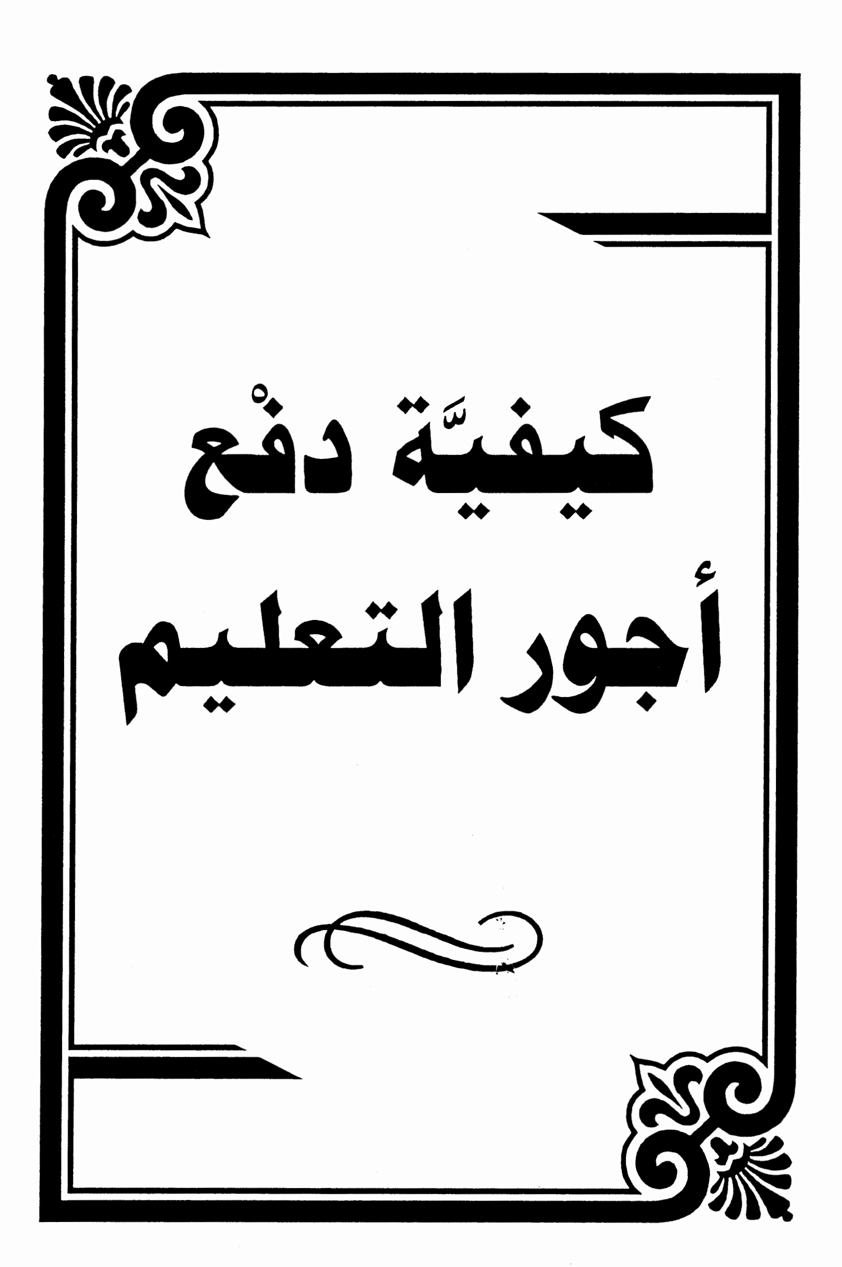
والتعليم فيه طيلة الأسبوع ماعدا الخميس والجمعة، فهما إجازةُ الطلاَّب؛ فكنا نعيش على أملٍ شوق، نعدُّ السّاعات، والأيام، حتى نصير على قمَّة أصيل يوم الأربعاء، فيشْتدُّ معَ الزملاء الشَّوق، واللَّهفة إلى صباح الخميس والجمعة، ونستاء عنْدما نستقبل السبْت لحرماننا من ممارسة اللّعب كما نمارسه في عطْلة الأسبوع.

ومِنْ هذه اللّعب، لعبة «التيلة»، حيْث كنْت ماهراً فيها، حتّى أُبَرِّز على اللاَّعبين، وأسجِّل عليهم انتصاراً باهراً.

كما نمارس لعبة الخطة وهي: رسماتٌ تُرْسَمُ على وجْه الأرض، وتتألَّف مِنْ عدَّة رسمات، وتسمّى بعض رسماتها: «بَسْمي» - وهي الرسْمة الأولى، و«اللاهي» الرسمة الثانية - والرسمة الثالثة «جهنم» - وأعوذ باللَّه مِنْ جهنَّم - وعلى اللاعب أن يقفزها، و«المستراح»، والخاتمة الرسْمة الأخيرة.

إلى ما يماثلها مِنَ الألْعاب الشعبية، الّتي تُعطي الطلاب نوعاً مِنَ الانطلاقة والنشاط الجسمي، بعد قيْد الكتّاب الطويل المُمِل، لأن الكتَّاب لا تتخلله فسح كالمدارس الحديثة، وليْس مَحلاً صحياً، ولا توجد به فتحات يشرق منها ضوء الشمس، ولا تنفذ إليه نُسيمات الهواء، ولم يكن ذلك العصر عصر كهرباءٍ وتكييف، إنما ضوؤه مِنَ الطبيعة، فالحياة فيه طبيعيةٌ بسيطةٌ أبْسط مِنَ البساطة، وهوَ بكلّ ما فيه يعيش طبيعياً على الطبيعة بدون تعقيد.





كيفيَّة دفْع أجور التعليم

إنَّ إسلوب التعليم في الكتَّـاب، يسير على منْهجيـةٍ مرتبـة، وكذلك تسير مراحل دفْع رسومه على فصـولٍ، سنروي فصولها مفصّلة نقطةً بعد نقطة.

فعنْدما يُوضع الطالب في الكتّاب، يَدْفَعُ والـده أو ولـيٌّ أمْـره قدراً مِنَ المال، والشراب، والطعام للطـلاب، كمـا يـوزِّع عليهـم بعْض الدراهم، وتُسـمَّى هـذه: رفعـة، وهـي أول افتتـاح جلـوس الطالب في الكتّاب.

كما على الطالب استمرارية دفْع قدر مِنَ المال للمعلِّم، خاتمـة التعليم الأسبوعية يوم الأربعاء، تُسمَّى: مربعانية.

وهناك رسوم أُخرى، فبعد أن يجتـاز الحـروف الهجائيـة إلـى أبواب سورة الفاتحـة، يدْفـع مثْـل مـا دفـع في أول يـوم دخولـه في الكتَّاب، ومن سورة الفاتحة إلـى سـورة «لم يكـن» – وهـي سـورة البيّنة – يدفع مثل ذلك، ويَدْفَعُ كمـا دفـع في سـورة البيّنـة عندمـا يصل إلـى سـورة «قُـل أوحـي» – وهـي سـورة الجـن – وسـورة «الرحمـن» وسـورة «ياسين» وسـورة «كهيعـص» – سـورة «مريم» – و«براءة» – «سورة التوبة» – و«المائدة» – يدفع

في هذه السور مثل ما دفع من رسوم كما فصلناها في سورة البينة، والفاتحة، وكلها تسمى رفعات باللهجة الشعبية القطيفية، ولعلها اشتقت من الرفعة لأن الطالب يتدرج، ويرتفع مرتبة مرتبة كأنها أخذت من الرفعة أي العلو فكلما تقدم في القرآن المجيد يرتفع مرتبة بعد مرتبة.

وأخيراً عند خَتْمه القرآن وهي - سورة «البقرة» - يُحْتفل بانتهائه مِنْ دراسة كتاب اللّه، فتُعْمل له مائدةً، تَحْمل أَلْوانَ الطعام والشراب، مغطّاةً بالخراف المشْوية، وتُقَدَّم لجميع الطلاّب بعض الجوائز مِنَ الدراهم المعدودة، كما يُخَصُّ المعلِّم بنقودٍ كثيرةٍ وهدايا له ولزوجه، كأثوابٍ مِن الحرير، كلٌ حسب سعته المادية، وطاقته الاقتصادية، وأما تسمية المربعانية لأنها تدفع في خاتمة الاسبوع وهو يوم الأربعاء فكأنها سميت باسمه.

هذه لمحةٌ مِنْ سير الحياة في الكتّاب بالقطيف في طريقة أجور التعليم؛ هكذا عشناها دنياً بسيطة على ملامح الطبيعة، لم تدخل في أفقها أنماط من حضارة المدنية الجديدة، إذ لا كهرباء، ولا إسالة مياه على الطرق الحديثة في بيوتنا، ومواصلاتنا هي: الخيول وأكثرها الحمير.

وعنْد ما تشْتدُّ حرارة الصّيْف، نلْجأ إلي التبْريد الذي نسْتعمله على طريقتين: طريقٍ للشّربِ، وطريقٍ للاستحمام.

أمَّا طريق الشُّرْب، فكان - في ذلك الوقت - يسْتعْمل في أواني مْصنوعة مِنْ فخَّار، أصله من طين البحْر يُسْتَخرج عَنْ طريق السُّفن، ويؤتى به ويُوضع في قوالبَ تقوِّمُه على عدَّة أشكال من

الأواني الّتي تُستعمل في ذلك العصر في صورٍ مختلفة، ومن تلك الصور، صورة «الشَرْبة».

و«الشربة» تُستعمل لتبريد الماء، ويُشْرب بها بدون واسطة إناء - فهي عربية - ويُصْنع للشرب إناءٌ كبيرٌ فيسمى: «جحلة»، أو صغيرٌ فيسمى: «حِبًّا» - كما تصنع منها الجرار و«الكوز» - باللَّهجة القطيفية.

وهذه الصناعات تصنعُها يدٌ قطيفية، يأْخذونها مِنْ هذه المادة الطينية اللَّزجة تستخرج من البحر، ويُكونوها بأيديهم كيف شاءوا.

ثمَّ يدخلونها إلى كور النَّار، بعْد وضعها في القوالب الّتي أشرْنا لها، وتُسمىَّ - باللَّهجة القطيفية - «دوغة»، حيْث تُرْسل سحباً دخانية تمْلأ الجو، وأكْثر ما يُدْخلها صُناعُها لإكمال صنعتها بحْرقها في مْوقد النَّار مساء الأحد، ومساء الأربعاء، حتَّى يجهزونها للبيع في سوق يوم الخميس - السوق الشَّعبية الجامعة لجميع مْنتجات القطيف - وقد انقرضت هذه الصناعة حيث قضت عليها أجْهزة التبْريد الحديثة المتطورة.

والإناء الكبير المسمى «الجحلة» لكبرِه، واستيعابه أمتاراً مُكعبةً من الماء، يضعه المعلِّم في كتّابه ليشرب الطلاب منه، وعليه كأسٌ نحاسي، إذا جاء الطالب ليشرب مِنْه، أدْخل تلك الكأْس إلى أعماقه بيده الملوَّثة وشرب، ثم شرب بعْده الطلاب من ذلك الإناء الذي لا يحمل نظافة، وماؤه حارٌ لا يثلج قلب الظامئ، فضلاً أن يرويه؛ فالمناعةُ الّتي اكتسبها الطلاَّب من هذه الجراثيم، والمكروبات، تكون حجاباً واقياً عَنْ إصابتهم بالأمراض.

كما يسْتعمل أربــاب البيــوت هــذه الأوانــي لعــدة أغــراض ، فالجحال للماء ، وأخرى منها لحفظ الرز ، والطحين ، والتمــر إلــى ما يماثلها من الأطعمة ، فتعتبر كخزانات يخزن فيها الأكل ليحفظ .

أمــا «الشَــرْبة » ، و«الجِــب » ، و«الجــرة » ، و«الكـــوز » ، و«القدح » فهي خاصــة بالمــاء ، وتــبريده ، ويضعونهــا علــى محــلٍ مْرتفعٍ تُســمَّى - باللَّهجــة القطيفيــة - «الســارية » ؛ والغايــة مِــنْ وْضعها ؛ لتبْتعد عَنْ حرارة الجدر ، وتأْخذ برودة الجو ونسيمه .

وبعْض طبقات الأغْنياء يشْتركون في هذه الأوانــي ، وينْفــردون بأسلوب تبريدٍ مُمَيَّز ، حيْث يستعملون إناءً مِنَ البلَّوْر يملؤونــه مــاءً ويُحكمونه على هيئة قارورة تشبه الشربة حتَّى لا يتخلَّل إلى داخلــه ماءٌ مــن البِــئْر ، ويضعونــه في دلاءٍ مشْــدودة بحْبــل ، ويُنْزلونــه إلــى أعْماق البئْر ، والبئِر هذه تُسمَّى : (الركية) ، وتُجْمع على (ركايا) فينزل بها الإناء فإذا برد الإناء اسْتُخرج ليُشربَ منه ، وهى تســمية عربية حيث قال الشاعر الكبير الشريف الرضي :

وأقلع اقــلاع الظــلام وقــد وزى   قــلال الروابــي والركــي المغــورا

والطريق الثاني هو : الاستحمام لتبْريد الجسْم في مياه العيون ، وهــذه العيون يرْجع تأريخُها ، لتأريخٍ سحيقٍ بعيد ، منْذ عهد (الفينيقيين) .

وقــدْ حُفِــرتْ علــى فــنٍّ دقيــق ، لا يصــل إليهــا اليــوم العِلْــمُ الحديث ، فهــي أشْــبه بالشَّــكل المــدوَّر ، تتســع في أُفُقْهــا العلــوي ، وتضيق كلَّما تنْزل إلى القعْر ، ولها عدَّة مجاري لسقْي الحقول .

وعنْدما يضْعُف ماؤها - لــتراكم بعــض طبقــات الرمــال علــى منابعها ، الّتي يخْرج منها الماء - تُغاص بطريقةٍ فنيَّة ، وعندما يــراد

صيانتها حَيْث لها مجْرى خاص، يُخْرجُ منْها الماء حتَّى ينْزل إلى أعماْق الأرْض، وهذا المَخْرج يُسمَّى - باللَّهجة الشعبية القطيفية - : (فِصادة) وعنْدما يْنتهي البنَّاءُ من تعميرها، وتنظيفها يعُاد الماء إلى طبيعته الأولى.

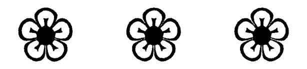
وكلمة الفصادة استعملت لسحب الماء من العين، كما يسحب الدمُ من الشخص، فكلمة فصادة تنطبق على هذا الإستعمال وهى عربية قديمة.

وكلمة الغوَّاص: كلمةُ عربيةُ دقيقةُ المْعنى؛ لأنه يغْطس تحْت طبقات الماء إلى أبْعد الحدود فلا يُرى، ولعلك تجد صوراً لهذه العيون المعطلة في شكلها الطبيعي.

هذه جملةُ تُشْبه الفاصلة بين: التعْريف بحياة الجّد واللَّعب.

وهذه حياتنا التعليميَّة في صورها، ومناظرها، الّتي رسمْناها في محيط الكتاتيب، مارينَ ببعض الصور الطبيعيَّة للقطيف، وشريحةٍ من صنائعها؛ فإنني ككلّ طالب، قضيت هذه الفتْرة مِنَ العمْر الوادع الهادئ، الَّذي لا يشْعر بمْسئوليَّةٍ مِنْ مْسئوليات الحياة، ولا شظف العيْش؛ لِما كَفلهُ لي والدي من تأمين العيش، فهو الظلُّ الَّذي يقيني وهج الشمْس، ولفْح حرارة الصحْراء.

هكذا قضيْتُ هذه الصفحات، وطويتُها لأمرَّ بصفحاتٍ أُخرى مِنْ صفحات العمْر، فأخرج مِنْ حياة الكتَّاب بعْد أن قضيتُ فيه قرابة ستة سنوات، وتخرَّجت وأنا في مرحلة الثالثة عشر؛ لأُلفَّها في حشاية الزمن الماضي، وأبدأ حياةً غير تلْك الحياة.





ما بعد الكتاب

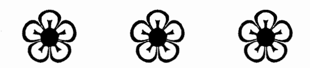
طويتُ ثلاث عشرة صفْحة مِنَ الزمن ، بعْد أن مررتُ بدور الطفولة ، وما انتابني فيها مِنْ أفراحٍ حلوة ، ومن أمواج مآسٍ مرّة ، لا تُمحى حتَّى الممات تركت طابَعَها على صفحات حياتي : وهي مأساة عيني ، حيْث أُصْبتُ بها ، والعيْن هي الّتي تُصوِّر لك مفاتن الحياة ، وجمال الطبيعة ، وهي أكْبر نعْمةٍ مِنْ نِعَمِ اللَّه منَّ بها على عباده .

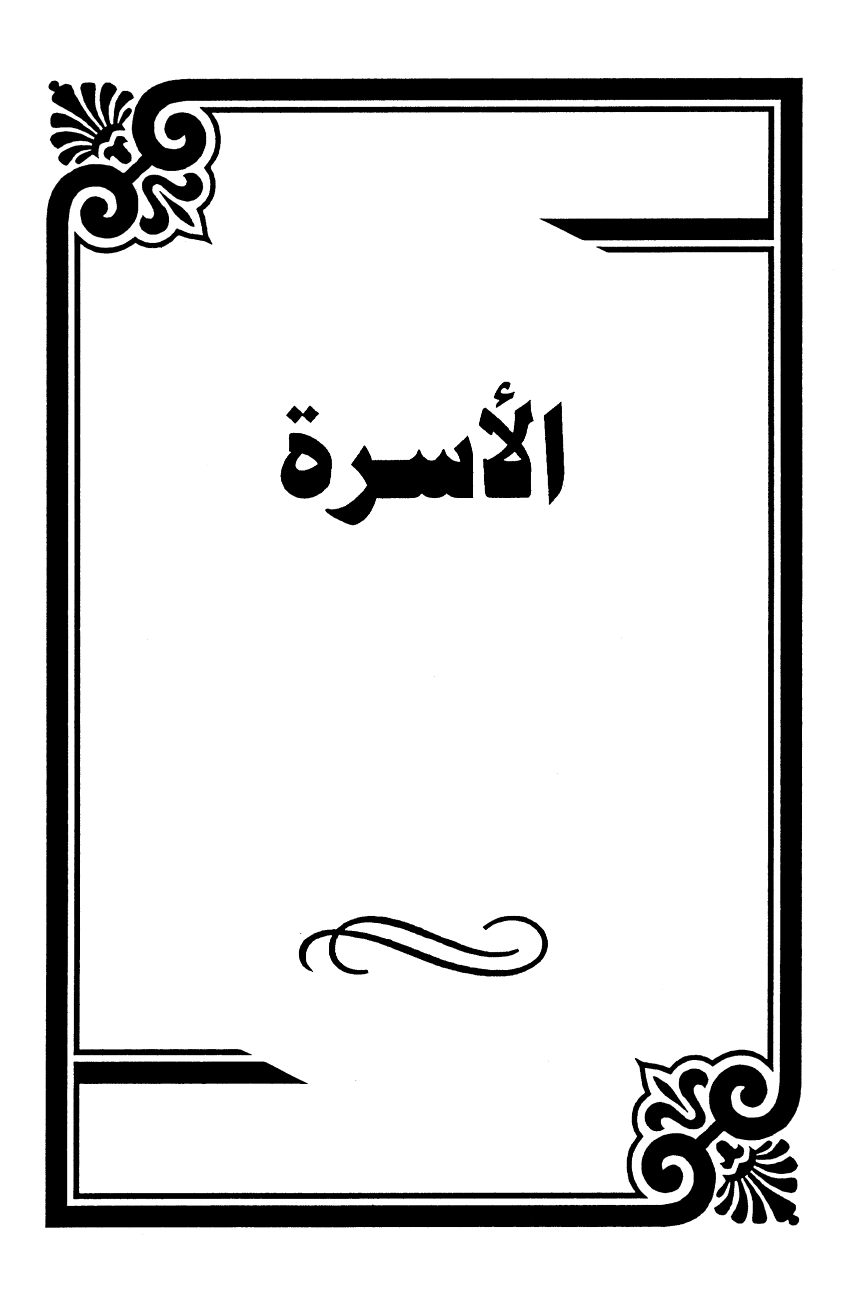
كما تخلَّلت هذه الصفحات البسيطة : السفر المأساوي الذي نشرنا لمحةً من صفحاته ، وأنا في دور الطفولة مَعَ : والدتي وأخي - الأسْتاذ الشيْخ عبدالله - وأُخْتي - السيِّدة زينب - وإنْ كانت كالعارض الَّذي مرَّ فزال ، أو كسحابةٍ سوْداء تلبَّدت فبطَّنت الأفق ، فأتتها ريحٌ عاتيةٌ فبددتها ، فعاد الأفق صافياً .

لذلك لَمْ ينعكس لها أصداءُ ، أو صورٌ في حياتي النفْسيَّة ، حتَّى يظْهرَ لها طابعٌ في قصائدي ، كما انعكست جرِاحة العيْن المأساوية ، حيْث انْعكست صوراً باكيةً حزينةً ، تحْمل قصائدها الشَّكوى ، والتجارب الواقعية ، تنْبع مِنْ المُعاناة ، وترْسم الواقع الأليم المبَّرح ؛ وسيأْتي هذا الدور عنْدما نصل لوصفها في صفحات هذا الكتاب بمشيئة اللَّه ، وكل نقطةٍ نضعُها في مدارها .

وقبْل أن نسْتمرَّ في أدوار هذه الحياة البسيطة المعقــدة ، ونَجْتـاز أخطر مرْحلةٍ فيها تمرُّ بحياة الإنْسان ، سواء كان ذكراً أو أنثى هــي : مرْحلة المراهقة ، الّتي تحتاج إلى توجيه ، وإرْشاد لئلاَّ ينْفلت المرءُ إلى مسْتنْقع الحضيض ، ويسْقط في الموبقات ؛ لأنه – في هذه المرْحلة – مهزوزُ العقْل عنيفُ الشَّهوة ، كطينة لزجة تنْطبع فيها كلُّ بصمةٍ ، تمرّ بها ما لَمْ تُزَوَّد بالمعارف ، ويعْصمها عقلٌ واع .

ونحن نمرّ بدورها ، ونجتاز في آفاقها ، ومــا سـنعطيه مـن صـورة عنها يعيشها الشابُ أو الشابة ، فلابدَّ مِنْ إلمامة قصيرةٍ – حتَّـى لـو كانت كإلْمامة الجزع ، أو إيماءة الشــاطئ ، أو لُمْحـة الـبرْق – نُشـير لأسْرتي قبْل أن نَدخُلَ في صميم دور هـذه الحيـاة الخاصَّـة ؛ لأن الأُسْرَة فصلٌ مِنْ فصول هذه الحياة ؛ بلْ هـو المحْـور الأساسـي ، الّتـي تدور عليها فصول هذه الحياة ، وهي القاعدة الركيزيه الّتي تتمحور النواة في ظل هذه الدوحةِ ، والمصباح الذي يضيء للبنـين في عتمـة ظلمة هذا الوجود ، أو كالسور الذي يحفظ الغصن المهزوز في كـف لرياح .





الأسرة

الأسرة هي : محيطٌ يتكون فيهِ مجتمعٌ ، صغيرٌ ، هوَ الأبُ ، والأمُّ وأفرادُ عائِلتهما ؛ أي ما ينجبانه .

وهذا التعريف البسيط للأسرة : المجتمع الصغير ، الَّذي يتكونُ منْهُ المجتمعُ الكبير ؛ وهذا التعريف هوَ البابُ الَّذي نَدْخُلُ منْه إلى الأسرةِ ، الّتي نُريد أن نتحدَّث عنها في هذه الخيوط أو هذه الصفحات ؛ ونبدأُ بتعريفِ مفتاح الحديث ، الذي تدور هذه القصَّةُ على حياته .

إسْمي هو : « محمد سعيد »[1] ، وأبي هو : الإمام الشيْخ علي بنُ الحاج حسن بن مهدي بنِ كاظم بنِ علي بنِ عبدالله بنِ مهدي الخُنَيْزي ، وتنْحدرُ هذهِ الأسرة مِنْ أسرةٍ عربيةٍ صميمةٍ تنْتهي لبَنِي عبْد القيْس ، الّتي موطنها بقلْب هذِهِ الجزيرة ، وتَرحالها التجْوالي مِنْ نجْدِ إلى القطيف وأوال .

---

(١) أحبْبتُ أن أُزيلَ وهماً قدْ يتوهمه قارئٌ حوْل اسمي : إنَّ اسمي هو محمد سعيد ، هو مركبٌ تركيباً مزجياً ، و هذا التركيب في لُغةِ القواعد النْحويّة : أن تأْتي بإسمين تْجعلهما اسْماً واحداً تُسمّي بهما شخْصاً ، فتمْزج الثاني بالأول ، فيكون الثّاني كالحرْف الأخير مِنَ الاسِم الأول يجْري عليْهِ الإعْراب ، حسب العوامل المُتوجهة له ، أمَّا الاسم الأول يْبقى مْبنياً على الفتْح ، لا يتأثرَّ بالعوامِل ، والاسم الثاني فيتأثر بالعوامل ، وهو مْمنوعٌ مِنَ الصرْفِ : للتْركيبِ والعلمية ، وهناك تركيبٌ إسْنادي ، وتْركيبٌ إضافي ، وبهذا يْرتفع وهْمُ المتوهمين ، أن إسمي ليس محمد بن سعيد .

وكان لهذه الأسْرة الكريمة - أيْ أسرة الخُنيزي - دورٌ جليلٌ في حياةِ القطيف، ولها طابعُ الصَّلاح، والإيمان حيْث بنَتْ مجْداً ضخْماً في جميع أدوار حياة القطيف في: ميْدان الإصْلاح الاجتماعي، والسياسي، وفي مجال الفكْر العلْمي بأَدواره؛ وفي السَّعيْ للْخير بيْن أفْرادِ النَّاس، وفي صميم الحياة العْلميَّة.

حيْث كان منْها شريحة من العلماء الكثر وفي طليعتها: سمَاحة الإمام الشيخ علي أبي الحسن، وسماحة الحجة العلاَّمة أبي عبْد الكريم الخُنيْزي، والعلاَّمة الشيخ محمْد علي الخنيزي، وفضيلة العلاَّمة الشيخ عبدالحميد الخُنيْزي الخطِّي، وفضيلة الشيْخ عبدالله الخنيزي، وفضيلة الشيخ عبد الكريم الشيخ علي الخنيزي.

وكثيرون من المفكِّرين كالشَّاعر عبدالواحد الخنيزي، والأديب محمَّد سعيد الشيْخ محمْد علي الخُنيزي، والكاتب عبدالمحسن الشيخ علي - أبي عبد الكريم - الخنيزي الذي نشر له عدة مقالات في مواضيع مختلفة في الصحف العربية، والأديب زكي الشيخ عبْد الكريم الخنيزي، والكاتب نجيب عباس الخنيزي الذي نشر له عدة مقالات في الصحف العربية، وغسَّان عبدالعظيم الخنيزي - صاحب كتاب الأوهام الصغيرة، والكاتب القصصي جهاد عبدالإله باقر الخنيزي كما سمعت من فيه.

وثلة أخرى حازت شهادة الدكتوراه: كالدكتورعادل بن الشيْخ عبدالحميد الخنيزي فإنه طبيب متخصص في أمراض الباطنية، والدم والأورام، والدكتور وديع (ابن كاتب هذه الخيوط) تخصص في أمراض الباطنية ويستعد للتخصص في الأمراض الروماتيزمية،

والدكتورأحمد بن منْصور الخنيْزي، والدكتور محمد مهدي الخنيزي، والدكتور نبيل محمد سعيد الشيخ محمد علي الخنيزي، والدكتورتيسير باقر الخنيزي - الحاصل على درجة الدكتورة في الاقتصاد السياسي.

وأساتذة تربويون كعلي الحائز على الشهادة الجامعية في الأسس التربوية، وأديب الحائز علي الماجستير في هندسة البترول والفيزياء، ونبيه الحائز على الشهادة الجامعية في الإدارة والكمبيوتر (أبناء كاتب هذه الخيوط)، وطلاَّب في المدارس العِلْمية الدينية، كميثم منصور الخنيزي، وحسين علي عبدالله الخنيزي.

هذه الكواكب مِنْ سماء عصْرنا، وجيلنا الحاضر، وما يُماثلهم كثيرون، لَمْ أسجّل أسماءهم في هذا الكتاب، فمحيط دائرة قبيلة الخُنيزي، ثرّةٌ سماؤها ماضياً وحاضراً بقادة الفكْر، ورجال العلم.

أمَّا أُمِّي فإسمها: عبدة العلي بنْت عبدالله بن راشد بن عبدالله الغانم؛ ولد بها في اليوم التاسع عشر مِنْ شهْر رمضان المبارك، عام ستة وعشرين بعْد الثلاثمائة والألف هجرية.

وهي مِنْ أسْرةٍ صميمةٍ عريقةِ المجْد، وعربية مِنْ قلْب الجزيرة، وقد روى لي الخال حسن عبدالله الراشد الغانم: كانت هذه القبيلة تسْكن أرْض نجْد، التي تُعْرف - اليوم - بالرياض، وتْنتقل بيْن مضارب هذه الجزيرة بيْن: ضِفَاف الخليج، وتلاعات نجْد.

وقدْ ماتت أُمُّها زينب بنت عبد الوهاب الغانم، وهي طفْلةٌ صغيرة، فتربَّت تحْت ظلِّ والدها، وفي حِجْر عَّمتها أخْت أبيها: فاطمة بنْت راشد، ولَمْ تكْتوي بأَثر ذُلِّ اليتْم، ولَمْ تتذوَّق مرارته،

حيْث ظلّ والدِها الحاني ، وحِجْر عمّتها ، الّذي تحوَّل إلـى حضْـن أُمٍّ حنون ، يقيانها لفْح الهجير ، حتّى زوَّجها والدُها مـن أبـي عـامَ تسْعة وثلاثين بعْد الثلاثمائة ، والألْف هجرية ، وهي تخْطو للمرحلـة الثالثة عشْر مِنْ عمْرها .

وجدها عبد الوهاب والد أمها ، كان من الشخصيات المرموقة ، وذو ثروة ، وجاه عريق وأحد التجار الكبار ترك من الذكور ستة ذكور من الأبناء ، وهم أحمد يعرف بأبي علي ، وأحمد الثاني ، ويعرف بأبي تقي ، وعلي خال والدتي الذي أشرنا لرعايتهِ وتضحيتهِ من أجلي عندما أصبت بعيني ، وعبدالله صاحب السفرة المأساوية ، وسليمان ، وحسن ، دون الإناث ، وهذه تعد نِعمةً ثرّةً من الله عليه ، ولاسيما في وقته كان الأبناء يموتون وهم براعمُ ، ولا يعيش منهم إلا قلة.

كما كان لهذه الأسرة في هذه الربوع دورٌ اجْتماعيٌ وسياسي ، حيْث أخذوا طابع الحكْم والرئِاسة ، والإصلاح فكان منْهم أُمراءُ يحْكمون هذه الربوع أجداد والدتي كعبدالله الغانم ، وعلي الغانم ، وراشد الغانم .

وكانت حياتهم حافلة بالأحداث ، مشحونةً بألوان القصص والأخطار نُشير إلى بعْضها ، حيْث إن عبدالله والد علي كان في درجة أميرٍ على هذه الربوع ، ورئيساً لبيْت المال ؛ وفي عصْره وقع اعتداءٌ وهجومٌ مِنَ البَدْو قراصنة البحر على غوّاصي أهل جزيرة تاروت ، وكثيراً ما تقَع هذه الغارات على هذه الربوع في عصر حكم الأتراك الذين يُعرفون بالدولة العثمانية .

فهبَّت نخوته الوطنية ، وطلب النجْدة مِنْ قرى القطيف ، فاستجابوا له ، وفكّ حصار الغواصين ، إلاّ أن أهْل مدينة سيهات ، تقاعسوا فتأخَّروا عنْ النجْدة ، فجاء له رئيسهم المسمَّى : عبد الرحيم النصر في طاقمٍ من المسلحين ولكن بعد فوات الأوان وإخماد الغارة .

فأخذ عبدالله الغانم الحماس وزهو النصر فأثارته النشوة فخرج من إطار نفسه الخلقي ، وأرسل قولةً منه مخاطباً رئيسهم في عبارةٍ غير لائقة ، ولا مُؤدَّبة قائلاً : يا عبد الرحيم ، أجئتني بفتياتك بعْد أن قام أهْل العوّامية وأنهوا هذه المهمَّة ، وقضوا على الشَّغب ، وأراحونا !؟ .... ولا حاجةَ لي في فَتَيَاتِك .

فكانت هذه الكلمات وقود نارٍ في زرع الحقد في قلب رئيسهم عبد الرحيم آل نصر ، وكان يثور كالمرْجل ، فخرج مِنْ عنْده ، وهو يُظْهِرُ له العداء إلاَّ أنه لاحت مِنْ عبد الرحيم بادرةٌ دبلوماسية ، لينْتقم مِنْ عبدالله الغانم .

فعاد وترضّاه وأظْهر معَه طُرق الصّلح المعبَّدة ، الّتي لا عِوَج فيها ، وتناسى الكلمات ، الّتي تجْرح القلوب ، وإتْماماً لهذا الصلح ، وترسيخاً لجذوره ، وعلامةً للرضى ، قدَّم عبد الرحيم دعوةً لعبدالله الغانم إلى زيارة سيهات لتكريمِهِ ، والحفاوة به ؛ غير أن هذه الدعْوى تبطنها حيَل الغدْر والانتقام .

فاستجاب عبدالله الغانم لهذه الدعْوى ، الّتي لا يُعْرف عمَّا وراءها مِنْ أخطار ليلٍ مبطنٍ بالغْدر ؛ فخرج متوجّهاً إلى سيهات ؛ وكانت الطريقة الوحيدة المسْلوكة هي : بيْن النخيل قبْل أن تُفْتَح

طريق العَّياشي التي فتحت قرابة عام ستين بعد الثلاثمائة والألف هجري، فالطريق المشار إليها السابقة تمْتدُّ مِنْ طريق الشويكة مارَّة بعنك إلى سيهات؛ وقد بقي لها مَعَالِمُ إلى اليوم وإن هُجِر اجتياز السلوك منها بعد فتح طريق العياشي لقربهِ وسعته وحسنهِ، كما فُتحت حديثاً طريقٌ جَدِيدةٌ هو: شارع الخليج عام ثمانية بعد الأربعمائة والألف هجري، وتم إكماله قرابة عام التاسعة بعد الأربعمائة والألف هجري، كما فتح بجانبه الشرقي طريق (الكورنيش) البحْري وقد وضع له حجرالأساس أمير المنطقة الشرقية سمو الأمير محمد بن فهد بتاريخ ١٤١٨/٢/٢٠هـ، وتاريخ

الطريقين الحديثتين مستقاة من بلدية القطيف، أما معالم الطريق القديمة، الّتي سلكها عبدالله الغانم، تَأْتِي مِنْ بيْن: نخيل الشويكه ولها معلمُ نفوذٍ يُشاهد إلى هذا اليوم هو غرب طريق نخيل البويب، وهي تتجه إلى ناحية الجنوب، وفي ملفاتها تعرُجات لعدم استقامتها.

فسار عبدالله الغانم في هذه الطريق، وقدْ رُتب له كمينٌ لاغتياله كأشباحٍ تخْتفي وراء النَّخيل، وكانت المواصلات عَنْ طريق ركوب ظهور الخيُول، أو الأُتن أيْ الحمير.

وعنْدما دخل في غابات النخيل القائماتِ صفيْن على جهتي الطريق كأجنادٍ مِنَ الجِنِّ، اغتنمتْ الفرصة الذهبية المواتية، لتنفيذ المأْرب الزنخ للاغتيال، فَقُتِلَ، ووُضع في رجْلهِ حبلٌ وشدُوه، وأخذُوه سحْباً إلى سيهات، والاغتيال قبيل قرية عنك.

وكان ابنه علي غير موجود في القطيف، ويُقال أن رجلاً مِنْ آل الزاير متزوج إحدى بنات عبدالله فاغتنم فرصة قتْل والد زوجته،

وغياب صهره فاستولى على ثروةٍ كبيرةٍ، ومن ضِمْنها نَخْل يُسمَّى: باب عوّاد.

هذه القصَّة رواها لي الخال حسن عبدالله الراشد أحدُ أحفاد المقتول المُشار إليه، وقد توفاه الله - في مستشفى القطيف المركزي أثناء إعداد الكتاب للطبع - في الساعة التاسعة والربع من ليلة الجمعة الحادي عشر، من ربيع الأول العام السابع عشر بعد الأربعمائة والألف للهجرة، الموافق السادس والعشرين من يوليو العام السادس والتسعين بعد التسعمائة والألف للميلاد.

ومن الصدف العجيبة التي لا تخطر ببال، أن يلتقي قبره ومضجعه إلى جنب قبر أخيه راشد، لا فاصل بينهما، بعد فراقٍ سبق مدة خمسة وعشرين عاماً، يلتقي الأخوان جنباً إلى جنب - رحمهما الله وأدخلهما فسيح جناته.

وبعْد قتل عبدالله عاد ابنه علي مِنَ الخارج، فصار مكان والده كحاكمٍ، ورئيس على بيْت المال، فوقع اختلافٌ بينه وبين أحد كتابهِ علي بن صالح آل سنان - منْ أهالي مدينة القطيف.

وكان هذا الكاتب له طموحٌ في رئاسة القطيف، فأدّى به طموحه الجامح، والأمل المْستأْسد للحكم إلى تدبير مؤامرةٍ ضدَّ علي الغانم، حيْث دعى عبدالله المداوي - الأمير في ذلك الوقت على ربوع القطيف - وتركه وراء ستارٍ بحيْث لا يُرى، ويسْمع ما يدور مِنْ أحاديث بين: علي الغانم، وكاتبه السنان.

وهنا أخذ السنان طريقة تمهيدٍ يتداولها المحْترفون للسياسة الهاوون لها، وأشْعل شحْنةً متقدة في شكوىً وتذمّرٍ مصْطنعتين،

فتفاعلت هذه الشْعلة في نفْس علي الغانم، ولَمْ يسْتطع أن يْكتم سرَّه المغلَّف، فكشفه مُعرىً مهتوكاً؛ حيْثُ قال: إنني كتبتُ إلى الأمير فيصل بنجد في عزْل المداوي وسوْف يأْتي فصْله قريباً، فكانت كلمات علي شحْنة حقدٍ تفجَّرتْ في نفْس المداوي، تُحدّد طُرقاً للمكْر، والكيْد، لاغتيال علي الغانم، قبْل أن يأتي الأمْر بإبعاد المداوي عَنْ الإمارة، فيلْعق أصابعه ندماً إذا خسر منصبه الوظيفي، ولَمْ يظْفر بعدوّه الَّذي تسبَّب في إزالته، فوجد عليه المداوي، ودبَّر مؤامرةً بليل، مبطنةً بالشرّ للقتل ورتبها بين رجاله.

فقد تعوَّد علي على زيارته بيْن صلاتَيْ: المغْرب والعشاء، فأمر رجاله أن يخنقوه، ويلفّوه في عباءته، ويُلْقوه بيْن بيوت القلعة وسورها.

فلمْ تطل ربيع هذه الحياة، ونشْوة الظفْر للسنان، والمداوي، ولكنَّ اللّه يأْخذ الظالم بما عمل؛ فدارت عجلة الزمن، وما أسرع دورانها، فإذا السنان مع المداوي يخْتلفان، فيأْمر السَّنان «المُقهوي» - وهو أحدْ خدَّامه، وهو: السَّاقي الَّذي يسْقي الجلاَّس القهوة - أن يعقْب بالفنْجان المداوي، وكان من الجلاَّس مَنْ يرقصون، ويقهقهون في موجات الفتن، ويشعلونها حطب، ففجَّروها باروداً، وشحنوا نفْس المداوي في حروفٍ تصوّر الإهانة الذليلة، والشّموخ للسّنان، وعدم الاحترام، والانتقاص لتعقيبه، وتأخيره بمرأى ومنظر على حضور الجلاَّس، فثارت في نفسه حميّة الغرور، والبطْش، فأطلق المداوي الرصاص على السنان فقتله، وسمع بعض المسلَّحين في الخارج صوت الرصاص، فهجموا، وقتلوا المداوي.

هكذا تُرْوى هذه القصة على صفحات أخبار الشيوخ مِنْ هذا الشَّعب، كما رواها الخال حسن الذي أشرنا له سابقاً، ولَمْ نقف على وثائق تاريخية تُحَدد أو ترْوي هذه القصص، والأحْداث، الّتي تمرُّ بهذا البلد، وما يوجد في بْعض الكتب هي: راوياتٌ لأشْخاص كلُ يرْوي عنها، حسْب ما سَمِعْ؛ ولعلّه صادقٌ في روايته، وإنْ اختلفت مَعَ رواية الآخر؛ لأن كلاً منْهم ينقلُ مَّا سَمع.

وهذه الحوادث، والطابع الحكمي، كان في دور حكْم أجْداد موحّد هذه الجزيرة: الملك عبد العزيز، ولعل وقائعها كانت في عصر الدولة السعودية الثانية قبل الحكم التركي، ولعلها وقعت عام ألف وثمانمائة وخمسين ميلادي تزيد أو تقصر، لأن الحكم التركي بدأ على هذه الربوع عام ألف وثمانمائة وواحد وسبعين، وانتهى عام واحد وثلاثين بعد الثلاثمائة والألف هجري الموافق ألف وتسعمائة وثلاثة عشر ميلادي.

وآخر شخْصية تتمتع بهذا الطابع التاريخي: والد والدتي عبدالله بنُ راشد بن عبدالله الغانم، وُلِدَ في شهْر شعبان عام الثلاثمائة، والألْف الهجري؛ حيْث كان الشخصَّية الأولى في عصْره في الحياة السياسية، والاجتماعية؛ وكان ذكياً حافظاً للتاريخ، ومطَّلعا على أخبار الحياة الماضية والحاضرة، وكان يزن الكلمات، إذا أراد أن يتحدَّث في حلَّةٍ مِنَ الحلْم، والأناة.

وقدْ قام بدورٍ كبيرٍ إصلاحي في مْجتمع القطيف؛ وهو أولُ رئيسٍ لمجْلس بلدي، أُسِّست ركائزه في حكم الملك عبد العزيز آل سعود،

كما نُشير إلى تأسيس المجلس البلدي مع تاريخ إنشاء البلدية في الصَّفحات الآتية ؛ وقدْ تَوفَّاهُ الله في اليوم السابع والعشرين مِنْ شهر شعبان عام التاسع والأربعين ، بعْد الثلاثمائة والألْف هجرية .

وخلَّف ولدين ذكرين ، وأربعة أولاد إناث : مِنَ الذكور حسن - المْولود عام الثلاثين بعْد الثلاثمائة والألْف هجرية ، المشار له في إسناد بعض الروايات التاريخية - والثاني مِنَ الذكور راشد - هو الَّذي أشرْنا إليه في اشْتراكه مَعَ السيِّد رضوان في أول مْدرسة فُتِحت في القطيف - المولود عام خمْسة وثلاثين بعْد الثلاثمائة ، والألْف هجرية ، والمتوفى يوم التاسع عشر من محرَّم عام أثنين وتسعين ، بعْد الثلاثمائة والألْف هجرية ، والأولى من الإناث هي والدتي ، والثانية زكية - المولود بها عام أثنين وثلاثين بعْد الثلاثمائة والألْف هجْرية، وتُوفّيت عام اثنين وستين بعْد الثلاثمائة والألف هجرية - والثَّالثة فاطمة ، والرابعة زوَّان - ماتت بعْد تاريخ وفاة والدها بأشْهر - هذه أسرة جدي : أبو والدتي .

وهنا نعود عوداً على بدْء للأسْرة الخنيزية ، فنشير إلى القمرين الساطعين في سماء القطيف العلمْية ، وهما : والدي الإمام الشّيخ أبو الحسن الخنيزي ، وابن أخيه الزعيم الشّيخ علي أبو عبد الكريم[1]، فقد حاز الزعيمان الدينيان الرئاسة الدينية العامَّة ، وهما القاضيان ، اللَّذان يقْضيان بيْن النَّاس ، لا فْرق بيْن : شيعيٍّ أو سنّي على صعيد المساواة في الحقِّ بدون تحّيزٍ لجهةٍ دون أُخرى بانْتفاء عناصر الطائفيَّة البغيضة ، الّتي عشْعشت في بعْض العقول

(١) الزعيم الشيخ علي ـ أبو عبدالكريم ـ الخنيزي بالإضافة إلى كونه ابن عمي ، فهو جد زوجي وأبنائي.

المُغلقة، وطارت أفراخاً تنعْبُ في تفْريق المسْلمين - أيْدي سبأ - جمع اللَّه كلمة المسْلمين تحت راية لا إله إلاَّ اللَّه، وأن محمداً رسول اللَّه.

ولهذا الموقف غير التحيزي كان إخواننا السنة يلحّون، ويطلبون المحاكمة عند الخنيزيين دون سواهما، ويرضون بحكمهما كل الرضا، والطمأنينة، فهما يْقضيان بِكتاب اللَّه، وسنّة نبيّه.

وللعدالة التي يتمتعان ويتميزان بهما في القضاء لا فرق عندهما بين ذي رحم أو أجنبي، وشاهدنا قضيتان من قضايا كُثر، فقد روى لي الأخ العلامة الشيخ عبدالحميد: أنه وقع لي نزاعٌ مع شخصٍ يسمى رضي الشنخنخ بائع للتمور ويسمى - باللهجة القطيفية - دلالاً، وكان النزاع في ثمن تمر مباع عليه، وعندما اشتد النزاع بيني وبينه فطلب رضي مختاراً المرافعة، والمحاكمة إلى والدي بكل رضاء وطمأنينة مؤمناً بعدالته القضائية التي لا تفرق بين قطعة منه أو أجنبي، وبعد إستماعه إلى المرافعة فصل والدي الحكم، وحكم عليَّ، ولم تأخذه في الله لومة لائم حيث أن أحد أطراف الدعوى قطعة منه، كما شاع، وتواتر أن الزعيم الشيخ أبو عبدالكريم حدث نزاعٌ لوالده مع بدوي في ماء بستان كلٌ يدعي في الماء وطلب البدوي المرافعة والإحتكام عند إبن خصمه فحكم الزعيم أبو عبدالكريم على أبيه إلى البدوي، وهذا غاية الإنصاف، والعدل في القضاء للخنيزيين.

وقدْ بذلا بْيتيهما محكمةً لترافع الخصوم لديهما، وحياتهما وما يمْلكانه مِنْ مادَّة، وأوراق، وسجلاَّت، كلُ ذلك في سبيل اللّه

بدون مرتبٍ يتقاضيَاه على خدمتهمــا القضائيــة ، والوطنيــة ؛ إنَّمــا يطْلبان الأجْر خالصاً مِنَ اللّه .

وبعْد أن اخْتار اللّهُ الزعيم الحجَّة أبا عبْـد الكريـم[1] - قـدَّس اللَّه روحه - انفرد بالقضاء الإمام - أبو الحسن - دون مشاركٍ له ، متصدياً لكلّ المشاكل على الصعيد الدينــي ، أو الاجتمـاعي ، أو السياسي .

وكان قبــلاً لـه السَّبق في هـذا المضمـار ؛ والخنيزيَّـان كـانت رِئَاستُهُما الدينيَّة ، والقضائية نصاً شرعياً مِنَ اللَّه ورسـوله ؛ حيْث إنهما مْجتهدان يسْتنبطان الفروض الفقهية مِنَ الكتاب ، والسنَّة .

وكان الإمام أبـو الحسـن الخنـيزي أعْلـم ، وأفْضـل عـالمٍ وطـأَ المْنطقة ، ويخْتص بملَكة أدبيةٍ ، وذوقٍ فطري سليم ، يُمـيّز بـه الشّـعر ، ويُقيـم الأدب ، ويحفْـظ قطعـاً مِـنَ التـاريخ مِـنَ الحيـاة الماضيــة ، والحاضرة ، لا يستهان بها حيْـث يسجّل بعْـض الوقـائع عِـنْ ظهْـر غيْب ، ثمَّ يرْجع إليها في مضانّهــا مِـنَ الكُتـب ، فـإذا هـي مطابقـةٌ لحافظة الذكّرى .

كما يُدير أبْحاثه الدراسية ، بدون أن يُراجع الكتـاب ، الَّـذي يُريد أن يُدَرِّسهُ ، أو يُباحث عليْه ، وترتفع هذه الهبة حتَّى خوَّلتْـه : أن يحْفظ ثرْوةً ثقافيَّةً مِنْ جميع عصـور الشّـعر كـالعصْر الجـاهلي ، والمخضْرم ، والإسْلامي ، والعصْر الأموي ، والعباسي ، وحتَّـى مِـنَ

---

(١) حيث أن الزعيم الشيخ علي ـ أبا عبد الكريم ـ تولى منصب القضاء عام ثلاثة وعشرين بعد الثلاثمائة والألف في عصر الحكم التركي واستمر بمشاركة عمه حتى اختاره الله.

أما الإمام الخنيزي فقد تولى منصب القضاء في شهر رجب عام تسعة وعشرين بعد الثلاثمائة والألف عند أوبته من العراق.

الشّعر الحديث ، عنْ ظهْر غيْب الشيء الكثير ؛ فهو في ميْدان العلْم ، والفكْر ، والأدب بحرٌ خضمٌ، لا تكاد أن تصل إلى شاطئيه.

ولسْتُ أُريد - هنا - أن أُسجّل حياته ، أو حياة ابن أخيه ؛ إنَّما أرْدتُ أن أَلَمَّ بهما إلمامةً قصيرةً حسْب واقع فصول هذا الكتاب ؛ لأنهما القاعدةُ الّتي يبنى الأساس عليْها ، والإشارةُ لهما نقْطةُ ضوئية ضرورية في هذه الصفْحات.

وإنَّ الإمام أبا الحسن ، هو الوحيد في هذه البلاد مِنَ العلماء ، والمفكِّرين المجْتهدين ، الَّذين غادروا هذه الدنيا ، وقدْ ترك ثروةً عْلميَّةً ، لَمْ يْترك غيْره في هذه الْمنطقة مثْلها .

ولابدَّ لنا مِنْ إشارةٍ لتكملة الحلقة الأسرية ، وندخل منها إلى أسْرة والدة أبي : فإنَّ والدة أبي اسمها : رحمة بنْت الشيْخ علي بنِ عبْد الجبَّار ؛ وآل عبْد الجبَّار طائفةٌ عريقةٌ في المجْد والعلْم ، حازوا على رئاسة المرجعيَّة الدينيَّة في الْمجتمع القطيفي.

وكان الشيخ علي بن عبد الجبار جد أبي ، والد أمه في عصره المجتهد ، والمرجع بدون منازع في المرجعية الدينية في عصر الزعيم الوطني مهدي نصر الله ، وقد تنبأ عندما وضعت بنته رحمة ابنها - أبي - قال: سمُّوه عليّاً فسيخلفني ويكون له مستقبلاً عظيماً ، ومجتهداً من المراجع ، وصدقت هذه النبوءة ، وقد روى لي هذه الحكاية أخي الأكبر الشيخ حسن.

والزعيم الشيخ علي بن عبد الجبار عايش الزعيم الوطني مهدي نصر الله ، فكان مهدي يجل الشيخ ، ويقدره ، وبرهاننا على تقديره ما حدث معه من قصة يرويها المعاصرون ، وينقلونها جيلاً

عن جيل ، وهذه القصة تُنبؤنا عن التدين ، والإلتزامية اللتين تعيشان في قلب الزعيم مهدي نصر الله - المتوفى عام الواحد والثمانين بعد المائتين والألف هجرية على مهاجرها أفضل الصلاة والسلام - وما أظهره مهدي في أسلوبه التعظيمي للزعيم الديني ، والمرجع الشيخ علي بن عبد الجبار .

فإن مهدي نصر الله ، درج على عادة خُلقية رفيعة ، تفرض عليه المرور بالمرجع الديني ، الشيخ علي بن عبد الجبار في كل صباحٍ للسلامِ عليه ، وإذا ضاقت عليه الظروف العملية ، كان سلامه من خارج البيت .

وفي تطوافهِ السلامي في صباح يومٍ من الأيام ، مر لإلقائه السلام والتحية الاستمرارية ، لتقدير المرجع الديني الشيخ علي عبد الجبار ، غير أن الشيخ علي بن عبد الجبار لم يبادله الحديث كما عوده ، فشعر مهدي بموجة تنحصر وتتضايق في آفاق نفسه بتأثيرات لعلها نميت عنه للمرجع الديني .

فوجه علامة استفهام ، وتساؤلاً في خشوع وإجلال : لن أذهب من مكاني هذا ، حتى تَخبرني عن ماذا عملته تجاهك ، وما سببُ إعراضك عني ، وما الذنب الذي جئت به ؟ .

ففاجأه المرجع الشيخ علي ، بجواب في حروف ملتهبة كالبارود : إن فلان بن فلان الذي وليتهُ على الأوقاف ، وأخذ يأكل حاصلها لقمة سائغة ، باردة الظلال والأفياء ، يستند ويرتكز عمله على شخصيتك القوية ذات القوة والنفوذ ، ولولا أنت لما عمل ما عمل .

وكان منصب مهدي الوظيفي ، رئاسة بيت المال ، فانطوى على ألم للطابع الديني المرتسم على نفسه ، فالحروف الملتهبة الّتي قذفها

فم الشيخ علي عبد الجبار ، كان لها لهبٌ ، وحماسٌ يتأججان في قلب مهدي نصرالله .

وحينما أخذ مقعده الوظيفي في دائرته الرسمية ، خطط له مخططا دقيقا يصل به إلى نهاية الشاطئ ، وبعمله يرضي الله ، ويخضع هذا المولّى إلى مظلة الشرع ، فطلب المولّى على الوقف ، وهو أحد كتابه في الدائرة من آل سنان ، وأصدر له أمراً بتقديم سجل يحتوي على جميع عقارات بيت المال ، فقدم له سجلات تحمل أسماءها ، فقال له بلهجة فيها غضب وحزم : إن سجلاتك ناقصة .

فكرر مراجعته لها ، وأعاد عرضَها على رئيسه مهدي ، فقال لكاتبه : إنك أنقصت أسماء عدة نخيل ، ودرجَ أسماءهم في ورقة خارجة عن السجلات ، وطلب من الكاتب إضافة هذه النخيل ، في سجلات الدولة ، ففوجئ الكاتب بما لم يدر في حسبانه ، وامتقعت ألوانهُ ، وتلجلجت الكلماتُ وتلعثمت على شفتيه ، وبعد لحظات قال : إن هذه النخيل هي أوقاف لأهل البيت ، ولجهات خيرية ، وولايتي عليها من العلامة الشيخ : علي عبد الجبار .

فكيف يسوغ لك يا أبا أحمد ، أن تدلي بهذه النخيل إلى بيت المال ؟!... اتقِ الله ، وخافه !.

فحانت الفرصة الذهبية الّتي تمكن مهدي من إنقاذ الوقف ، وإعادته إلى سيرةِ ما وقف عليه ، ويُخضع هذا الولي الإسمي إلى المولّي الحقيقي ، فأجابه مهدي بكلمات كشواظ النار : صحيح إن هذا وقف ، وحقيقة إنك مولى من يد العلامة الشيخ علي عبد الجبار ، وأن يدك عاريةٌ ؛ إذا

كـان كذلـك فلمـاذا تمـردتَ علـى الولـي الشـرعي ، ورفضـت تقديم سجل الحسـاب لـه ؟!.

فهنا لك خياران ، إما أن تخضعَ لمـن ولاّك ، وتسـير علـى نهـج الطريق الشـرعي ، وإلا سـيضربُ علـى يـدكَ ، فخضـع الكـاتب ، وذهب من توِّهِ صاغرا للعلامة الشيخ علي بن عبد الجبار ، مستكيناً خاضعا لطلباته .

هـذه لمحـة تاريخيـة نسـجلها مـن حيـاة علمـاء هـذه البـلاد ، وزعمائها ، وتحمل طابعا إيجابيا ، نسجلها قبل أن يبتلعها الزمـنُ ، كما ابتلع تاريخ الأمجاد لهذه الربوع .

كما تـرك علمـاء آل عبـد الجبـار ثـروةً علميـةً ، مـن الفكـر الفقهي ، والعلم الفلسفي ، ضاع أكثرها ، ولم يبـقَ منهـا إلا أقليـة نذكر منها الكتاب الذي حققه الأسـتاذ الفـاضل الشـيخ عبدالله الشيخ علي أبو الحسن الخنيزي وهو كتاب (ثمرات لـبِّ الألبـاب في إبطال شُبَه أهل الكتاب) ، طبع بلبنان توزيع دار الكتاب الإسلامي عام ١٤٠٨ هجرية ١٩٨٨ ميلادية .

وبعد أن أعطينا لمحة عـن أسـرة آل عبـد الجبـار ، الّتـي هـي أجداد أبي ، ودورها ، نعود لتكملة الحلقة من حياة أبي فنقول : إنه ترك مع ثروته العلمية ، أبناءَ ذوي ثروة فكرية ، وعلمية ، فقد أعقب خمسة أولاد ذكور ، وخمسة أولاد إناث ، وكل منهـم سنشـير لـه إ شارة مُوجزة :

الأول من الذكور : الشيخ حسن ، المولود في يوم السابع عشر مـن شهرذي الحجة عام السابع عشر والثلاثمائة ، والألـف هجريـة ، بمدينـة

النجف الأشرف ، أعده والده ، ووجهه إلى الدراسة الدينية ، غير أن لهفته إلى صراع التجارة في ميدان هذه الحياة ، جعلته يرفض هذا الطلب ، ووضع شروطاً تعجيزية حتى تعفيه من الدراسة ، ومن هذه الشروط التعجيزية : أن يخصه والده بأكثر وأجل ما يملكه من بساتين كحقل : المهيري في سيحة أم الحمام ، والعمارة في سيحة الخويلدية ، وأن يدفع له شهرياً مبلغاً ضخماً من النقود ، ومن أجل هذا المطلب التعجيزي لم يلتحق بهذه المدرسة ، وأسف كل الأسف بعد فوات الأوان ، وهذه الرواية سمعتُها من فمه .

وهو شعلة ذكاء كان شخصية فذة من شخصيات البلاد الّتي يشار إليها ، كما اشتغل بالحياة التجارية ، ويحفظ نماذج من الأدب ، والفكر ، والتاريخ ، وبعض المسائل العلمية ، والفكرية ، والفلسفية ، والأصولية ، اقتبسها من والده حتى أصبح كالصدى لهُ.

وكان منطقياً قوياً في الجدال ، يخيل لك إذا اجتمعت به ، وأدرت معه نِقاشاً كأنه دارسٌ ، ومتخرجٌ من هذه المدرسة العلمية الفلسفية .

وعيّن رئيساً لبلدية القطيف في شهر ذي الحجة عام الخامس والسبعين بعد الثلاثمائة والألف هجرية ، وتوفي في اليوم التاسع والعشرين من ذي الحجة عام خمسة وثمانين بعد الثلاثمائة والألف هجرية - رحمه الله .

وكان له سجل وطني حافل بالجهاد ، والخدمة في جميع ميادين الحياة القطيفية ، بدون أن يتقاضى على هذه الخدمات مرتبا ، أو يميل لجهة دون أخرى ، وكان واجهة ، وعنواناً من العناوين الوطنية لهذه الربوع .

والثاني من الذكور هو : العلامة الشيخ عبدالحميد ، المولود في اليوم الخامس من شهر رمضان المبارك ، عام واحد وثلاثين بعد الثلاثمائة والألف هجرية ، فهو فكرٌ جوال ، وحركةٌ ذائبة لا تعرف الفتور في القراءة ، والمطالعة.

أعدّه والده منذ الصغر للدراسة الدينية ، فقد درس في وطنه على بعض الأساتذة ، ووالده من ورائِهِ يوجهه، ويعلمه ، ويشرح له المسائل العلمية، والفكرية والأدبية ، فوالده أستاذه الأول ، والنبراس الذي أضاء له الآفاق العلمية.

وعندما بلغ مرتبة الزواج زوجه والده ، وأرسله للنجف الأشرف حاضرة العلم ، والفكر ، عام ستة وخمسين بعد الثلاثمائة والألف هجرية ، فكان المثال العبقري الممتاز في كل ما درسه ، وتلقاه من فقه ، وأصول وفلسفه ، فبرزَ على أقرانهِ في ميدان العلم ، والفكر ، حتى صار نجما في سماء النجف ، يضيءُ لرجالِ الفكر ، ويقتدون برأيهِ ، ويرجعون إليه .

وهو حق ، وجدناهُ نعمَ السميرُ ، وخيرَ جليس ، وعفويًّا ،ليس في شخصيتهِ ، أو حياتهِ تكلف ، أو تزمت ، أو تعقيد إلى ما يتمتع به من طهارةِ ضمير ، وإيمان .

وكانت النجف في ذلك الوقت ، قمة الفكر، وميداناً للفكر الصحفي والثقافي على مختلف آفاقها الأدبي ، والعلمي ، فأورقت سماؤها ربيعاً مخصوصباً ، تفتحت فيهِ شاعريته المبدعة ، وقلمهُ الخصب مكناه شموخاً أدبياً ، وعبقريةً وثابة ، ولهذه المؤهلات ، والعناصر، كانت الصحف

الّتي تصدر في سماء النجف آنذاك، تتمنى أن ينشر آثاره الفكرية على صفحاتها.

كما كتب من الشعر، والأدب ألواناً من واقع الحياة، ومن معاناة التجربة، وهو الأديب الكبير، والمبدع، وليس هذا مدحاً، وإنما هو تقريرٌ لحقيقة واقعية، فبين يدينا ثروة خطية من الشعر، والنثر، يصل في الإبداع، والزخم إلى أعلى قمم الأدب، فما كتب في لون من الألوان الفكرية، أو الحياة الاجتماعية، إلا جسدها، فكأنك تعيش معه في التجربة، والمعاناة.

وحتى في أسلوبه الكتابي، لوناً من الرفعة في رسائله الأخوية، ومذكراته البسيطة العادية، فهو مجموعة تضم عبقريات في كل ما تحمل معنى العبقرية، ويحفظ قطعاً من الأشعار لمجموعة شعراء كِثْر في طليعتهم أبو الطيب المتنبي، وغيره من عمالقة الشعر، وله ذوق مرهف حساس ينفذ به إلى ما وراء الصور.

وبعد وفاة والده رحمه الله، عاد لوطنه في يوم أربعة وعشرين من شهر محرم عام أربعة وستين بعد الثلاثمائة والألف هجرية، يحمل فضيلة علمية، وفِكراً أدبيا نيراً، فهو: أول من وضع اللبنة الأولى في هيكل الأدب القطيفي الجديد للشباب، وطور أسلوب القصيدة الشعرية، وكان الناقد البصير الذي يميز بين الدر، والفحم.

كما أسهم في حياة القطيف العلمية، والفكرية، فقد درس على يده لفيف من الشباب، وتزودوا من علميته، فدرسوا على يديه، النحو، والبلاغة، والأصول، والفقه.

كما أنتج كوكبة من الشعراء، والأدباء، ومن حملة الأقلام، ومن فضلاء رجال العلم، وكاتب هذه الخيوط يدين له بالفضل، والتعليم.

كما ترك ثلة من الأدباء، والمفكرين، في محيط هجرته للدراسة بالنجف الأشرف الذين رشفوا من سلسال جدولهِ، فهو صاحب مدرسة فكريه، عاشت على مائدتها عقول.

غير أنّنا أسفنا لإهماله، وهدره لهذه الطاقات الفكرية الّتي تركها تضيع، ولم يحتفلْ بها، ويسجلها برغم النداء المتكرر، والصرخات المنبعثة من القلوب، بأن يستعيد هذه الطاقات، ويسجلها في أحرف تضيء للأجيال، فالوقت فرصة ذهبية من العمر لا يزال فيها سعة.

فأنت تراه – وهو ينهد إلى عتبة ما بعد الثمانين – فكراً شاباً، وحياة مخصوصبة كأنها في فصل الربيع، يحدثك عن كل فكر بعيد، وقريب، كما أسهم في مجتمع القطيف في الحياة العامة يشاركهم أفراحهم وآلامهم، وكان المَفزع لهم في النوائب حتى أصبح يملأُ فراغا لا يستطيع في هذا الظرف أن يسدّهُ غيرُه، فأصبح شخصية يشار لها بالبنان.

وفي شهر صفر عام ١٣٩٥هـ، أسند إليه منصب القضاء الشيعي في القطيف، ولا يزال يديره بأمانة، وثقة، وصدق، وعدالة، وإيمان، لا يفرق بين ذي رحم، وأجنبي، أطال الله عمره المديد.

هذه لمحة مقتضبة عن حياة العلامة الخنيزي.

الثالث من الذكور: كاتب هذه الفصول، محمد سعيد، فهذه حياتي بين يديك في هذا الكتاب، فاقرأها من وراء هذه الأحرف.

والرابع من الذكور: الشيخ عبدالله، المولود في اليوم السابع عشر من شهر ربيع الأول عام الخمسين بعد الثلاثمائة والألف

هجرية ، فهو شعلةُ ذكاءٍ تتقد ، وفكر منفتح ، يلتقط كل ما يقرأه ، ويستوعبه كعدسة المصور تلتقط كل ما تمر به من مناظر .

أعده والده منذ الصغر للدراسة العلمية ، والدينية ، فدرس بعض الكتب النحوية على يد كاتب هذه الخيوط ، وكان أحد الموجهين له ، وراعيه كما يرعى الفلاح حقله لتنمو أشجارهُ ، وتتفتح أورادهُ ، فبرزَ على أترابه .

فكان عنده طموحٌ وجرأة أدبية ، ونبوغ مبكر وهو لدن الغصن كل ذلك هيأله وهو في عمر الحادية عشر أن يصير سكرتيراً لوالده .

وهذا مركزٌ كبير المعنى يحتاج إلى عبقرية ، فاستلهم من أشعة أبيه أضواء استنار بها في طريق الفكر ، وميدان العلم ، وظلت تزوده بعد وفاة والدهِ في دروب الفكر ، والحياة .

مات والده ، وهو في الثالثة عشر من عمره ، ولم يؤثر عليه اليتم - لما فيه من حرمان مرير - بانحسار الظل للأبوة الحانية ، بل أخذ يمارس القراءة ، والكتابة ، والدرس .

وتكملة لرعايتي به ، فتحت له حانوتاً يمارس فيه لوناً من التجارة ، في عام الخامس والستين بعد الثلاثمائة والألف هجرية ، وزودته بطاقات مادية ، غير أنه لم يأتِ هذا المتجر بنتائج إيجابية لصغر سنه ، وعدم معرفته بالأساليب التجارية فضاع مجهود ما قمتُ به ، وكانت نتيجتهُ سلباً لا إيجاباً .

وعندما ضاقت عليه الحياة المادية ، والاقتصادية ، أضطره ظرفه الخانق الاقتصادي إلى العمل .

فعملَ موظفاً في سلك موظفي الدولة في شهر شوال عام ثمانية وستين بعد الثلاثمائة والألف هجرية ، ولم يزل يقرأ ، ويكتب حتى

أوجد له ثروة فكرية من مؤلفاته ، وظل يكافح في بحر هذه الحياة الهائج المائج ، وفي شظف العيش حتى مكنته ظرُوفهُ من الزواج في شهر شعبان عام اثنين وسبعين بعد الثلاثمائة والألف هجرية .

كما لابد من إشارة هي فاصلة زمنية كان عليها أن تقع قبل هذه الجمل ، فبعد أن توفي والده الإمام الخنيزي ، وعاد أخوه العلامة الخنيزي ، كان له دور في مسير حياته الفكرية ، والأدبية ، وهو لا يزال لدن العود حتى اخضوضر غُصنهُ ، وتفرع حتى أصبح كالسنديانه المطلة بعنقها إلى السماء لما قام به أخوه العلامة الخنيزي الخطي بتهذيبه ، وتشذيبه كالبستاني في حقله .

وفي شهر شوال عام التسعين بعد الثلاثمائة والألف ترك العمل الوظيفي ، وذهب إلى النجف الأشرف ليزداد من العلم ، فدرس الأصول ، والفقه ، والفلسفة ، والمنطق ، ولم ينفك عن حياة التأليف ، وتتميز كتاباته بالطابع الإسلامي ، وأسلوبه الكتابي المشرق الديباجة ، وترف العبارات ، وروعة الأسلوب .

استمر في حياته العلمية في النجف ، وبرز فيها حتى صار شخصية يرمز لها ، علّق على كتاب والده « دلائل الأحكام » حيث نسقه ، وشرحه ، وحققه ، والتحقيق يكون أعظم جهداً من التأليف في أكثر الأوقات ، واستمر في التعليق على كتب والده ، وقد انفرد بهذه العناية بعناية آثار وتأليف والده دون اخوانه .

وكان ذا موهبة علمية ، وأسلوب أدبي رفيع ، ويراع خصب ، كل هذا مكنه أن يكون شخصية علمية ، وأدبية ، حتى اتخذته المرجعية في حياة المقدس الإمام الخوئي ركيزة من ركائز المرجعية

التي تعتمد عليها في أجوبتها العلمية، والدينية والتعليق عليها، فبهذا، وذاك كان شخصية لامعة يشار إليها في سماء النجف بالبنان.

عاد قافلاً لوطنه في الثاني والعشرين من محرم في العام الواحد بعد الأربعمائة والألف هجرية، وهو يحمل ثروة فكرية وعلمية، فهو: كموسوعة حافلة بألوان الصور، فأخذ يدرس الطلاب، ولا يزال يبذل عطاء للحياة العلمية - فقد كون ثروة ضخمة نشر منها: «كتاب أبي طالب مؤمن قريش» - الذي أحدث ضجة عالمية طبع في بيروت عام ١٣٨١هـ - ١٩٦١م، و«نسيم وزوبعة» طبع في القاهره عام ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م، و«ضوء في الظل» طبع في القاهره عام ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م، و«أدواؤنا» طبع بالقاهرة عام ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م، و«مداميك عقدية» في مجلدين طبع في بيروت عام ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م، و«ذكرى الإمام الخنيزي» طبع في النجف عام ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م، و«ذكرى الزعيم الخنيزي» طبع بالنجف عام ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م، وشرح أكثر مؤلفات والده، وحققها، وطبعها، وغيرها «كثمرات لب الألباب» للحجة الشيخ علي آل عبد الجبار - طبع في بيروت عام ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

ونكتفي بهذه اللمحة المقتضبة عن حياته، أطال الله عمره.

الخامس من الذكور: رسول، المولود به مساء اليوم الثاني من شهر شعبان عام تسعة وخمسين بعد الثلاثمائة والألف، وقد مات عنه والده وهو لا يتجاوز الرابعة والنصف من عمره، إذ لم يشرب من جدول حنانه، ولم يتفيأ بظل الأبوة الحاني، الذي يقي وهج حرارة الحياة، بل لم يشعر له.

فعاش يتيماً تحت رعاية - أخيه كاتب هذه الخيوط - فرباه، وأدخله المدرسة، ونمى كما تنمو الزهرة في غصنها الوريق.

وكاتب هذه الخيوط، كان يرعاه كما يرعى الفلاح حقله، ويشذبه، ويوجهه في مساره الصحيح، حتى حان نضوجه، وبلوغ زواجه، فزوجتُه في شهر رجب عام سبعة وسبعين بعد الثلاثمائة والألف من الهجرة، على السيدة نعيمة بنت الشاعر أحمد المصطفى، واشتغل في سلك العمل الوظيفي بالدولة، وبعدها تركه، واشتغل موظفا في البنوك، حتى صار مدير البنك السعودي البريطاني بمدينة الدمام.

كما حاول كتابة الشعر الحر، غير إنه لم يواصل في هذا المجال الفكري، فطوى قلاعه - وهو في اليم يسير - وأرجو من الله أن يعود فيكتب لنا شعرا صحيحا أبقاه الله.

أما البنات، فهنَّ: زهرة، فهي أكبر الأولاد ذكوراً، وأناثاً، وقد توفيت في شهر شعبان عام ألف وثلاثمائة وتسعة وتسعين هجرية.

والثانية: نجيبة، وهي شعلة ذكاء تتوقد، وتلم بما يدور في هذا المحيط الخضم من الحياة، وما يولد فيها من أحداث، عن طريق المذياع، وتستوعبُ، وتفهم كل ما تلتقطه، وتراه.

وقد توفيت في الساعة الخامسة صباحاً يوم الأربعاء الموافق العشرين من شهر ربيع الأول عام ستة بعد الأربعمائة، والألف هجرية، الموافق الحادي من يناير ألف وتسعمائة وستة وثمانين ميلادية بمستشفى فخري بمدينة الخبر.

والثالثة: نعيمة، وقد توفيت في شهر محرم عام الثاني عشر بعد الأربعمائة، والألف هجرية.

والرابعة: زينب، المولود بها في شهر شعبان عام ثلاثة وخمسين بعد الثلاثمائة، والألف هجرية، مات عنها والدها، وهي

بنت تسع سنوات، لم تتفيأْ بظل الأبوة الحاني ، ولم تشرب من ينبوع الأبوة الذي يتدفق حنواً ، وعطفاً .

وقد تربت عند كاتب هذه الخيوط ، ورعاها ، وعلمها ، فأدخلها الكتاتيب ، الّتي كانت في ذلك العصر تعلم كتاب الله، وسيرة الرسول صلي الله عليه واله ، وكتاب سيرة أبي الأحرار الإمام الحسين - سلام الله عليه فاستطاعت فك الحرف .

ولما حان بلوغ زواجها تزوجت من أحد الشباب ذوي الطائفة العريقة : رسول أحمد الزاير ، الذي آباؤه ، وأجداده ركائز من ركائز مجد القطيف ، وقد تم زواجها في شهر جمادى الأول عام اثنين وسبعين بعد الثلاثمائة ، والألف هجرية ، وزينب تتمتع بشخصية نسائية، وكرم فياض ، فهي كالوردة تذيع عطرها بدون تميز .

وبهية : المولود بها في يوم أربعة وعشرين من شهر ذي الحجة عام اثنين وستين بعد الثلاثمائة ، والألف هجرية ، وهي آخر العنقود.

وقد مات والدُها ، وهي بنت إحدى عشر شهراً ، لم تلمح خطوط وجه والدها ، ولم تتذوق حنانه ، ورباها كاتب هذه الخيوط ، وقد رعاها بالتربية ، والحنان ، والعطف الأبوي ، وأدخلها الكتاب على نهج الغرار الذي فصلناه مع أختها ، وكانت طريقة دفع رسوم الكتاتيب النسائية ، تماثل رسوم الكتاتيب الرجالية كما فصلتُها في شرح الكتاتيب في الصفحات الماضية من هذه الخيوط .

وعندما فتح الأهالي مدرسة أهلية ، أدخلتُها المدرسة فحازت على قسط من القراءة ، والكتابة ، ومعرفة الحساب ، فهي شعلة ذكاء ، وعت كل ما درسته ، وتتمتع بصبر ، وحلم ، وقد كفلت لها

كل ما تحتاجه في هذه الحياة، حتى لا تشعر بذل اليتم، فكانت تناديني بعبارة رقيقة ممزوجة بحنان الأبوة والأخوة (أخي البابا) تعويضاً عما فاتها من عطف أبيها.

وكفلت لها كل ما تحتاجه، حتى تزوجت من شاب ذي أسرة عريقة: عبدالله الحاج رضي الشماسي، وذلك ليلة السابع والعشرين من شهر رجب الأصب عام ثمانية، وسبعين بعد الثلاثمائة والألف هجرية، وزوجها الآن هو شخصية من الشخصيات القطيفية، الّتي أسهمت في خدمة المجتمع، وله ذوق في الشعر، والأدب، ويحب قراءة الكتب، ويحفظ أخباراً من قطع التاريخ.

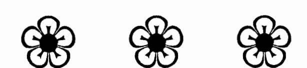
ولسنا نريد أن نتحدث عن الأسرة بإسهاب، ويكفينا هذه اللمحة المقتضبة.

ولابد من إشارة توضيحية نشير فيها إلى قطبي الاسرة اللذين تركزت عليهما حياة القطيف وشغلا أقدس منصب، وأخطره، وهو منصب القضاء، فقد شغل هذا المنصب الرفيع الكبير - في ظرف واحد - قطبا الأسرة: الإمام أبو الحسن الخنيزي، والزعيم أبو عبد الكريم بل هما قطبا دنيا القطيف اللذان تدور عليهما حركةُ حياتها الشرعية، والسياسية، والاجتماعية، والوطنية.

وبعد وفاة الإمام الخنيزي، في واحد وعشرين من ذي القعدة عام ثلاثة وستين بعد الثلاثمائة، والألف هجرية، شغل منصب القضاء العلامة: الشيخ محمد علي الخنيزي، في شهر صفر عام أربعة وستين بعد الثلاثمائة والألف هجرية، والمولود عام أربعة بعد الثلاثمائة، والألف هجرية على مهاجرها أفضل الصلاة والسلام.

وقد كان مثال الإيمان، والثقة، وقد توفاه الله في اليوم الثامن من شهر شوال عام إثنين وثمانين بعد الثلاثمائة والألف هجرية، وكان العلامة: الشيخ محمد علي، في زهده يردد كلمة بسيطة في حياته، وهي كلمة «تنقضي» الّتي هي موجزة في لفظها كبيرة في معناها.

ومن أراد المعرفة الكاملة عن حياة الإمام الخنيزي، والزعيم أبي عبد الكريم الخنيزي، فيرجع إلى ذكرى الإمام الخنيزي، وذكرى الزعيم أبي عبد الكريم الخنيزي، ففيهما ما يتطلب الباحث عن صور حياتهما المتعددة الجوانب والآفاق، فهما من تأليف الأخ الأستاذ الشيخ عبدالله، وطبعا في النجف الأشرف: ذكرى الإمام الخنيزي، مطبعة الحيدرية في النجف ١٣٧١هـ /١٩٥١م،-كما أعيد طباعة الذكرى بتاريخ ١٤١٨هـ/١٩٩٨م وقد تضمنت بعض أراء العلماء والمفكرين والأدباء في شخصية الامام الخنيزي،وهي تربو على ثمانين صفحة كما ضم لها بعض الآراء المنتشرة كباقات في الكتب الأخرى،كما كتب الشيخ عبد الجبار الساعدي عنه كتاباً مستقلاً تحت عنوان الإمام الخنيزي من أعلام مدرسة الفقه الشيعي بتاريخ ١٣٩٦هـ - وذكرى الزعيم الخنيزي المطبعة العلمية في النجف ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م.





دور المراهقة

بعد أن تحدثنا عن الأسرة، ونريد بالأسرة هنا، الأب، والأم، وفروعهما، أي الأسرة الصغيرة، لا الأسرة الّتي تتكون منها القبيلة، وإنما ذكرنا الحجة الزعيم أبا عبد الكريم، وأخاه العلامة الشيخ محمد علي الخنيزي، لموقعهما في الحياة الاجتماعية، ودورهما في الأسرة، ولإتصال الفرع بهما كاتصال الضوء بالشمس، ولموقعهما من الحياة الدينية، وتوليهما منصب القضاء العظيم.

إذن، فلنعد، لنكمل هذه الخيوط الّتي نقتبسها من ضوء الشمس، فيتكون منها عمرنا في هذه الدنيا.

والخيوط الّتي نريد أن نتحدث عنها، هى أخطر مرحلة تمر في عمر الفتى، أو الفتاة، وهي: دور المراهقة؛ لأنه دور لا يكاد للمرء فيه أن يملك عقله، ولا استقلاله الذاتي، فهو غصن وريق أمام عاصف عتي، وجحيم شهوة مدمرة، أو زورق في موج طاغ بدون مجداف، لا يكاد يصل إلى المرفأ إلا بعصمة، ونجاة من الله.

إنني مررت بهذا الدور المزعزع، الذي يكاد فيه الفتى أن يعيش كريشةٍ لا تستقر على حال من القلق، مررت فيه بخطى ثابتة، وبإيمان راسخ، لم يكن للشهوة الحمراء دورٌ في هذه الحياة

الرجراجة ، ومضيت فيها كربان يحاذر على سفينتهِ من الأنواء ، والعواصف ، وعسف الأمواج ، والفضل في ذلك لوالدي ، حيث رباني منذ الصغر تربية مثالية ، وعلمني المبادئ الإسلامية ، فعشت في أفقه الرحب ، لا أحيد عن هذه التعاليم ، حتى صرت لخوفي من هيبتهِ ، أطيعهُ كظلٍ من ظلاله ، أو إشارةٍ من بنانه .

ففي كل أمسية يعقد لي مجلساً علمياً ، ومحاضرة فكرية في المبادئ الإسلامية ، والتاريخ ، والفكر ، والأدب ، والشعر ، ومكارم الأخلاق ، فكان المدرسة الوحيدة لي ، أو الجامعة الّتي أكملت دراستي في كلياتها .

فأنا خريج هذه الجامعة المثالية ، الّتي لا تعرف للمادة طريقاً ، وبفضلها تغلبت على هذه الهزات الّتي تمر بدور المراهقة ، وحتى نمّى في نفسي بخلقه ، وتعاليمه خلقاً أدبياً تجاه الوالدين ، فمن عناصر هذه التربية أصبحت لا أفتح عيني فيه إجلالاً وهيبة منه ، ولا أسأله مَسَائِلَ خارجةً عن نِطاقِ العلم ، والفكر ، والأدب .

والفضل في ذلك له ، لأنه فتح لي الطريقَ لسؤاله ، فإذا سَكَتُ بدأني بالسؤال ، ووجه لي أسئلة علميه فكرية ، أو أدبية ، كما يعمل مع الآخرين .

ومن تعاليمهِ الخُلقية ، ما خططه لنا من أساليب تربوية ، وأعمال تخاطبيه تصاغ في حرف نداء ، وأسلوب خلقي بين أبنائه ، لا ينادي الصغير من يكبره باسمه ، بل يكون نِداؤهُ بكلمة يا أخي .

ولم يُقصر أبي هذه التعاليم الخُلقية الّتي تنبع من مدرسته العلمية فيعممها ، ويمد ظلها إلى دُنيا القطيفيين ، وكان في تعاليمه قويَ التطبيق ، والتنفيذ ، حتى تشمل أكبر الشخصيات في بلاده .

فخذ مثلاً واقعياً : ففي بعض الزورات الّتي يقوم بها عبدالله نصر الله مع أخيه حسن نصر الله ، ولموقع عبدالله الاجتماعي ، والسياسي يحفزهُ لسبق أخيهِ ، والتقدم عليه في مقاعد المجلس برغم تقدم أخيه عليه في دور السن ، فيعترض والدي على عبدالله ، ويأمره بفسح المجال لأخيه ، وإعطائه التقدم عليه ، فيفسح له المجال على مضض منه - وكان الحاج عبدالله بن نصر الله من أكبر الزعماء السياسين في القطيف عند الدولة والشعب بعد وفاة الجد الحاج عبدالله الراشد - فأخذ الحاج عبدالله بهذه التعاليم عندما يحضر مع أخيه في نوادي أبي .

فنعود لنكمل الحلقات الخلقية العلمية لحياة أبي ، فهو حركة علمية دائبة ، لا تعرف التفتير والملل .

وكنت أعيش هذا الدور الخطير في ظلاله وتعاليمهِ ، وبفضل الله ، طويتُ صفحةً بعد صفحةٍ ، ومرحلةً بعد مرحلةٍ ، خولني أن أمر بهذا الدور بعيدا عن الآثام ، والشهوات الشريرة ، دون أن أُدنس كفي بإجرام ، أو هنات .

وفي هذا الدور كان في آفاق نفسي انصرافُ ملحٌ يهتف بي ، ويبعدني عن الدراسة للعلم الديني ، للدور البسيط الضحضاح الذي لم أتذوق فيه لذة العلم ، ولم أنهل من ينبوعه العذب الصافي .

وبرغم هذا الانصراف ، تجمعني أمسياتٌ في بيتي مع ثلة من الشباب الدارسين للعلم الديني المثقفين ، نجتمع فيها فنديز الحديث حول الشعر العربي ، وما يجد من أحداث تدور من أنباء الحرب العالمية الثانية ، حيث كانت لهبُ قنابلِهَا تصطلي بها أوربا الّتي تحولت بعد الحرب إلى أوربا شرقية ، وغربية .

ولم يكن لدينا في ذلك العصر - عام الستين بعد الثلاثمائة والألف هجرية - الموافق واحد وأربعين بعد التسعمائة والألف ميلادي - مذياع ينقل عقل العالم، وشكله في هذه الربوع إلا مذياع يوجد في بيت سُكنى عبدالله القصيبي في المنصورية بالجبلة في القطيف، ومذياع ثاني عند علي بن حسن أبو السعود وهو شبه معطل، إذ لا يعمل باستمرار - ومذياع ثالث لدى أمير القطيف في قصر الإمارة بالدرويشية.

وكان هذا القصر مبنياً على الطابع المعماري الإسلامي القديم، وعلى هندسة تشبه أبنية الأتراك،حيث لهم فترة من الحكم في هذه الربوع، فتحيط الغرف صوالين تستعمل مجالسَ في الصيف لتخلل النسائم بها، وفيها المذياع، فهي تطل على فسحة واسعة أمام القصر، وفي هذه الفسحة، أو «البرحة» - باللهجة العامية - يجتمع فيها عشاق أنباء الحرب، ويكظمون أنفاسهم لئلا يفوتهم خبر.

ومن الرواد الدائمين، شخص يسمى: مهدي علي السنان - توفاه الله عام الثاني والتسعين أو الثالث والتسعين بعد الثلاثمائة والألف هجرية - فينشرون هذه الأنباء كالصحافة في هذا القطر، حيث لا يوجد غير ما أشرنا لها من مذايع.

غير أن قصر الإمارة لم يعد - اليوم - في شكلِه الهندسي القديم، وصورته الماضية، حيث هُدمَ، وبني بأسلوب البناء الجديد المسلح، كما اقتطع منه جزآن، جزء أقيم عليه المحكمة الشرعية الكبرى، والآخر أُلحق بمدرستي المتوسط، والثانوي للبنات الّتي هدمت ثانيةً وتحولت إلى مدرسةٍ ثانوية للبنات في طرازٍ

فذ ، وشكل رائع من أبنية السعودية أرامكـوا الحديثـة ، وافتتحـت بتاريخ قرابة عام الرابع عشر بعد الأربعمائة والألف هجرية .

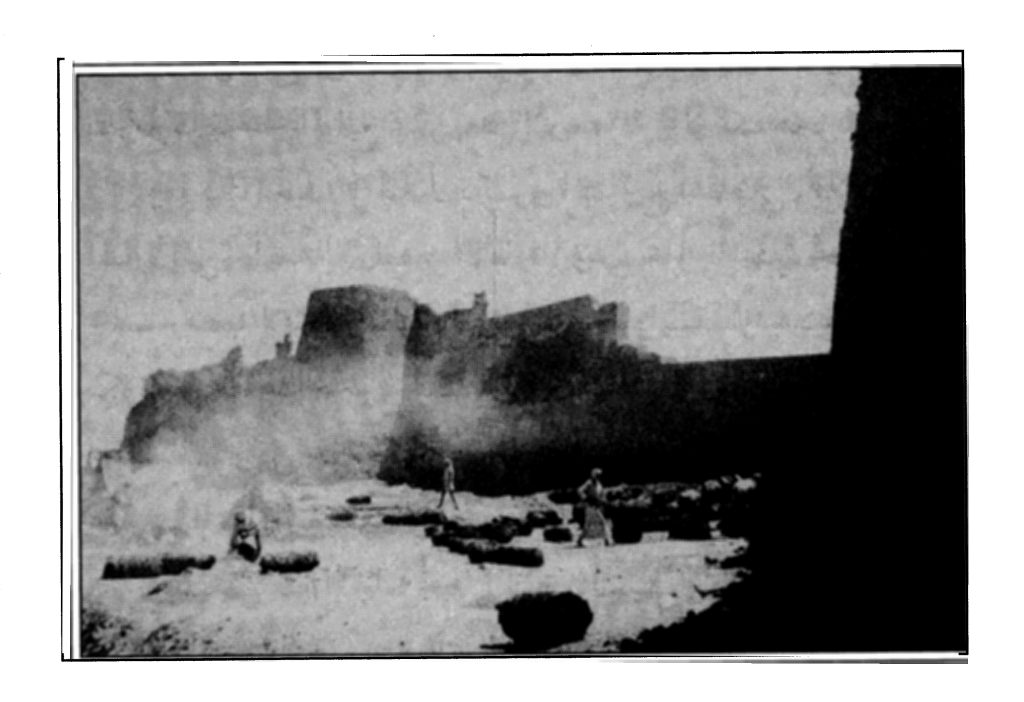
وما دمنا نعيش في ظلال ذكـرى التـاريخ المـاضي ، فلابـد مـن إشارة إلى حلقة تابعة لقصر الإمارة ، وهي خارجةٌ عنه ، حيث كـان مجلساً رسمياً لإمارة القطيف ، يقع شرق البوابـة الرئيسـية للبحـر ، مكوّناً من مقاعد حجرية عنـد خروجـك منهـا ، تقـع علـى اليمـين والشمال ، وكل جهة مكونة من ثلاثة أدوار ، وفي الدور الذي يقـع عند شمال البوابة مقعد في القمة ، وهومجلس للأمير.

ويستعمل هذا المجلس عصراً لتلقي النسيم ، ولطافة الجـو ، ورقتـه ، حيث لا كهرباء تخفف من وطأة الحر ، فإذا جلس الأمير به عصراً امتنعت المارة من هذه البوابة احترامًا له ، وشريحة أخرى خوفاً منه .

وفي هذا المجلس تُرفع له المرافعات ، والقضايا ، فيحيلها إلـى الجهة الشرعية ، وكان في ذلك الظرف القاضيـان همـا الخنيزيـان لا غير أبو الحسن ، وأبو عبد الكريم .

ولنعد إلى ندوتنا فقد ابتعدنا عنها ونصِفُ سكوننا وتحركنا فعندمـا تلقي الشمس حللها الذهبية على أمواج البحر ، وعرائس النخيل ، نخرج لنرتاد على شواطئ البحر ، حيث لا تبتعـدُ هـذه الشـواطئ عـن أسـوار القلعة في الشرق ، والشمال غير أمتار تعد بالأنامل ، أو أقل من ذلك .

فنجلس على مقاعد صخريـة علـى ضفـاف الشـواطئ لنتمتـع بهدير البحر عند مـده ، وبمنـاظر سـفنهِ الذاهبـة ، والآيبـة ، كمـا نشاهد عرائس النخيـل الّتـي تحـدق بالقلعـة في جهتيهـا الشـمالية والغربية ، فترى جمال الشفق ، وأمواج البحر ، وعرائس النخيل .



هذا منظر يصور مدخل البوابة البحرية لقلعة القطيف

وكانت أصداء تتردد في نفس والدي، ليهيئني إلى الدراسة الدينية، والفكرية، وهنا حانت الساعة الّتي أصدر فيها والدي أمره بابتداء الدراسة، وبالتحديد في أوائل شهر شوال عام ١٣٥٨هجرية على مهاجرها أفضل الصلاة والسلام في أمسية، في جلسة من جلساته، طلب مني والدي أن أُهيئ نفسي لأدرس المبادئ الإسلامية، واللغة العربية، وأكون من الطلبة الذين يدرسون الفقه، والأصول لمبادئ شريعة خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله.

غير أني لم أتلقَ هذا الطلب بشوق، وارتياح، لأنني كنت أعيش في حياة مملوءة باللعب: كالّتيلة، والخطة، والهول إلى غير ذلك من اللَعب، فتقاعست عن هذا الأمر الجليل، ورحت أتصدد، وأتشاغل بأشياء هي لعبٌ صبيانية تافهة، لئلا يلزمني والدي بذلك.

ومضت برهة من الزمن دون أن أستجيبَ لذلك الطلب والزمن كالسيف إن لم تقطعه قطعك، كما يقولون، أو كالحلم الذي يفر من جفون النائم حين استيقاظه.

وبالرغم من هذا الدور، وما كنت فيه من حداثة السن، كانت لنا أمسيات نرتاض فيها بالرياضة القدمية، نلف على القلعة فندور دائرةَ سورها في الخارج، ونرتاد ضفة شاطئ البحر لنجلس على بعض صخورها.

وقد نجلس بقرب ضفاف البحر على خزان مياه السفن الذي يُلقى به على اليابسة، ويسمى باللهجة البحرية «فنطاس» نتعاطى الأحاديث، ونُحدق في أمواج البحر، والسفن الذاهبة، والآيبة مع زملائي، وهم: الأستاذ / محمد سعيد المسلم، والأستاذ السيد

علي السيد باقر العوامي - المولود في أول محرم عام ثلاثة وأربعين بعد الثلاثمائة والألف هجرية حسب ما روى لي - والمرحوم الشاعر عبدالواحد الشيخ حسن الخنيزي - المولود في جمادى الأول عام خمسة وأربعين بعد الثلاثمائة والألف هجري - فنتدارس بعض الشعر العربي، ونرتاد هذه الضفة في جميع فصول السنة.

وفي بعض الأمسيات يصحبنا بعض الشباب الأدباء كالأستاذ محمد سعيد أحمد الجشي، والأستاذ سيد حسن العوامي، وبعض الأمسيات يصحبنا الخطيب علي حسن الطويل.

وكانت لنا معه قصة طريفة حيث كنا نتدارس الشعر، والأدب كما درجنا عليه في هذه المسيرة، وبينما نحن ندير حديثنا الفكري انبرى من بيننا الأستاذ ملاّ /علي حسن الطويل، فحظرَ عليَّ النقاش الأدبي، ويحصره حسب رؤيتهِ على من يزاول الدراسة في القواعد النحوية، وأضاف بلهجة صحراوية: أنت غير قارئ شيء من كتب القواعد النحوية، فأنا أقرأ في قطر الندى، والمسلم، والعوامي، يدرسان في ألفية ابن مالك، وعلى هذا الصعيد نحن أقرب منك للاجتهاد، فلا يصح لك النقاش معنا.

فهذه حروفٌ تنم عن كبرياء، وإعجاب بالنفس، فألقت على آفاقي أطيافاً من صور الضعف، فانتفضت كما ينتفضُ العملاق، أو الليث حين يُخدش، فبعثت في نفسي لهيباً من الحماسِ، وصحوة واضحة الصور.

واستيقظت الحقيقةُ لتُصحح المفاهيم الّتي تسيرُ إلى شاطئ الجهل، وليل الضباب المبطن بالخطأ وللصحوة أحلام، وأمال تنبعث في النفس كأضواء الشمس فكأني أهمس إلى نفسي، سأعود

لأنفذ ما طلبه مني والدي، فأدرس، وأنهل من أنهار المعرفة، فنمت رغبةٌ عنيفةٌ لحب الدراسة لا يقف أمامها حائل حيث لهب الثأر، واليقظة يمدانني بموجة عنيفة لأثأر لنفسي، وأحطم هذا الكبرياء.

وبرغم أصداء هذه البواعث الّتي دعتني للدراسة، كان السبب فيها هو الأستاذ / ملا علي الطويل، فأشكره على ذلك، فقد كان له فضلٌ قصد به، أم لم يقصد - والصحبة لها دور في الرفاق، كالنسائم إذ تأخذ مما تمر به.

ومن تلك الفينة ذهبت إلى والدي، وتقدمت له بإجلال، وخضوع، وعرضت عليه رغبتي فيما طلب مني أبي من ذي قبل، أن أدرس اللغة العربية، وأصول الفقه، والفقه، وأن يهيئ لي مدرساً لذلك، فكانت مفاجأة سارة لوالدي، نزلت عليه هذه الرغبة كأنها قطرات الندى على ثغور الزهر في ضحيان القائضة، أو كان كالعطيش في صحراء ملتهبة للماء العذب.

فهو يؤمن بعقله المتفتح، وبعد النظر، وآفاقه الواسعة، أن الرغبة لدراسة العلم عندما تأتي منبعثة من الذات يكون لها الأثر الفعال، والعمل الذي يؤتي أُكله، فرحب، وفتح صدره فرحاً، وهيأ لي أستاذاً، وهو الأستاذ محمد سعيد المسلم، فبدأت الدرس في كتاب الأجرومية يوم الأول من شهر ذي الحجة عام ثمانية وخمسين بعد الثلاثمائة والألف هجرية - على مهاجرها أفضل الصلاة والسلام - وأنا أبلغ من العمر أربعة عشر عاما.

وكنت في فجر فاتحة حروف الدراسة الباب الأول من كتاب الأجروميه - باب تعريف الكلام - أتلقى دروسا من والدي في اللغة

العربية ، وفي شتى العلوم ، أوسع آفاقاً من الدراسة المحدودة في صفحات كتاب ، ومع الرغبة المشبوبة ، واللهفة المحمومة ، تدفعاني للإزدياد ، والانتهال من جدول معين العلم .

ولم تمضِ برهة تعد بالأنامل حتى حدثت لي قصة ، ولعلها من الصدف ، ومن الخير ، وما أحسنها !...... فأخي فضيلة العلامة الشيخ عبدالحميد الخنيزي ، يحنُ إلى وطنه القطيف من سماءِ دراستهِ في النجف الأشرف ، ويتغنى بآثارها ، وحقولها ، وأمجادها ، فصور هذا الحنين في قصيدةٍ أرسلها لأخيه الشيخ حسن الخنيزي ، وهي تحمل لهفة وحنيناً إلى مرابع وطنه .

فكان من جميل الصدف في إحدى الأمسيات ، أن يسألني والدي أسئلةً ، ومن ضمن تلك الأسئلة سؤال عن بيتٍ من تلك القصيدة الّتي مطلعُها :

أهوى القطيفَ وأهوىَ كل ما فيها　　　بواعث الحب شتى لستُ أحُصيها

والبيت الذي سألني والدي عن إعرابه ، وشرح معناه هو :

إني أنا البلبلُ الغريدُ تَعِرفُني　　　كم قمتُ أهتفُ باسم الخُطِ تنويِها ؟!

فحللت قواعده العربية الّتي تسمى عند النحات إعراباً ، وشرحت مضمون ما يحتويه ، فانتشيتُ بهذه الظافرة العلمية ، فبتُّ تلك الأمسية على أحر من الذرة ، أو من الجمر ، وأنا أودّ لو ينصل الليل ، وينطوي مع نجومه ، وهدوئه مع ما فيه من جمال ضياء القمر ، وكلي لهفة ، وشوق إلى أن ينطوي الصباح ، كما انطوى الليل ، وتجمعنا الأقدار بالأصدقاء ، ومن ضمنهم الأستاذ ملا

علي حسن الطويل في الأمسيات الّتــي تجمعنــا ، ويظللنــا أصيلُهــا على ضفاف البحر.

قضيت تلك الليلة ، وأنــا كلــي لهفــة ، وشــوق ، وأنــا أرتقــبُ الســاعة ، أو بــالأحرى الأمســية بكــل مــا في جوارحــي مــن لهفــةٍ للالتقاء بالخطيب ملا علــي الطويــل والأصدقــاء ؛ لأحطــم مــا في النفس من كبرياء فارغة ، لأن العلم يمسح الكبرياء ، ويعيد الإنسان إلى خلق إنساني تتمثل فيه الإنسانية.

فجاء الصباح ، ومر الزمــن تــدب عقاربــه بخطــى ثقيلــة ، وتســير عجلاتهُ ببطء ، وكانت الساعات طويلة ، والزمن لم يتغــير ، والوقــت لم يطل ، ولم يقصر ، إنما طالت الساعة المرتقبة الّتي تجمعني مع الإخــوان حتى شاء الله، فكان اللقاءُ في ظلال الأمسية الّتــي ســتحدد مكــانتي العلمية ، وترسم لي ذروةً أقفُ عليه ، وأطل من علٍ.

وعلى صعيد النقطة المركزية الّتي حظر الأستاذ الملا علي فيها عليَّ النقاش ، أثــرتُ كوامــن الثــأرِ ، وبــدأتُ بالســؤال ، ووجّهتــُهُ للأستاذ الملا علي الطويل :

ما إعراب ، وما معنى هذا البيت :-

إني أنا البلبل الغُريدُ . . . الخ البيت؟.

فوجم ، وحار ثم أردف يقول : لا يصح لــك أن تســألني بهــذا السؤال ، وأنــا بمنزلــة أُســتاذكَ ، فأجبتــُهُ : العلــم يســتفاد منــه مــن التلميذ ، والأستاذ ، وأنا سألتُكَ ممتحناً لا مســتفيداً ، فــأغفلني ، واحتَقَرني ، ووجه السؤال للأستاذين محمد سعيد المسلم ، والســيد علي السيد باقر العوامي ، يسألهما :

ما معنى « كم » وما موقعها في البيت من الإعراب ؟ .

إلا إنهما أجابا بعد صمتٍ كصمت الظل ، لا نعرف موقعها من الإعراب ، ولا معناها ، وعندها عاد الخطيب الطويل ، ووجه السؤال لي قائلاً :

إذا كنت تعرف موقعها فأعربها ؟ فأجبته : سأعربها لك على أن تستفيد ، وتترك هذه العنعنة ، والغطرسة ، ولا تقصر المناقشة العلمية على أحد من عباد الله .

وتكملة للفائدة العلمية : إنّ « كم » في البيت خبرية ، وموقعها من الإعراب مفعول به .

وما كادت تمر بنا عقارب الساعة أياماً حتى أخذ الأخ الأستاذ الطويل يحتفي برأيي ، ويوجه لي الأسئلة ، والنقاش العلمي ، ويستأنسُ بما أوجهه من معانٍ وشروح .

هذه القصة أوردناها لما تحمله في جوهرها ، وغلافَها من تنافس علمي يبعثُ على التسابق في مضمار شوط الدراسة البعيد للوصول إلى الهدف ، وكانت هذه نقطة انطلاق لباب حياتي العلمية ، فهي جزء من خيوط حياتي ، ونستفيد منها معنى أخر : إنه يجب علينا أن نشجع أي طالب مبتدأ ، ونمده بطاقات من القوة ، والعزم ، ليسير على خُطى تشجعيةٍ ثابتة ، غير رجراجة ولا نحتقِرهُ .

ثم أعود ، وأشكر الخطيب ملا علي الطويل شكراً عميقاً ، فما كادت أن تدور عجلة الزمن دورتها - وما أسرعها فإنها كالحلم ، أو كالطير في سرعة طيرانه - حتى أخذ يطلب مني أن يشتركَ معي في الدرس ، وكان ذلك الطلب عام ١٣٦١هـ يوم ١٨ من جمادى الأول ، وأنا

في مرحلة السابعة عشر من العمر، وكان درسي في كتاب مغني اللبيب لابن هشام، عند أستاذي العلامة الشيخ فرج العمران، فاستجبتُ له، وصرت همزة وصلٍ، وسعيتُ لدى أستاذي لأُشركهُ معي في الدراسة.

وبعد تلكأ طويل من الأستاذ حيث قال: إن شرح مضمون الدرس، وتوضيحه لشخصٍ دون الشخصين يحتاج إلى تكلفة وجهد، ولكنني ألححت عليه، فاستجاب لإشراك مُلا علي الطويل معي في الدرس - فجزاه الله خيراً في الدنيا والآخرة.

فأخذ يحضرُ معي صباحاً للدرس في مسجد والدي الإمام الشيخ علي أبي الحسن الخنيزي، وهو مسجد الراجحيه؛ واستمر معي في الدراسة نطوي كتُبها واحداً تلو الآخر، وما أحلى أن نذكر معه، والأستاذ العلامة الشيخ فرج نكتة علمية تصورُ هيمنة الأستاذ على التلميذ، وإجلال الطالب للأستاذ، والعلم، وهذه القصة الّتي يحلو لنا ذكرُها شاهداً، ودليلاً على ترسيخ دور النشاط العلمي، وشوطِهِ التألُقي.

ففي صعيد البحث، ونحن آذانٌ تتلقى الدرس في مسجد أبي المعروف بالراجحيه، والبحث يديرهُ الأستاذ في علم المنطق العقلاني، وكان الدرس في كتاب الحاشية، أول كتاب يُدرسُ لعلم المنطق في الدورة العلمية في ذلك الوقت المسماة «بالسطوح»، وكان البحث في الظرف، والمظروف في ذلك الكتاب، والعلامة الشيخ فرج العمران يشرح معنى الظرف، والمظروف، وأنا، والأستاذ الطويل متُوجهانِ إلى ما يقرره الأستاذ.

فانبرى الأستاذ الطويل قائلا: إنني لم أستوعب يا أستاذ شرحك، ولم أفهمه، فأعاد الأستاذ الشيخ فرج الشرح مرات عليه لعلها تبلغ

الثلاث، أو الأربع، والأستاذ الطويـل يقـول: لم أفهـم، وفوجئنـا برفـع العلامة الشيخ فرج يده وفيها كتاب الحاشية، فهوى بـه ضربـاً علـى مُـلا علي الطويل، فقال وهو يبتعد إلى الخلف: يا أستاذ الآن فهمت.

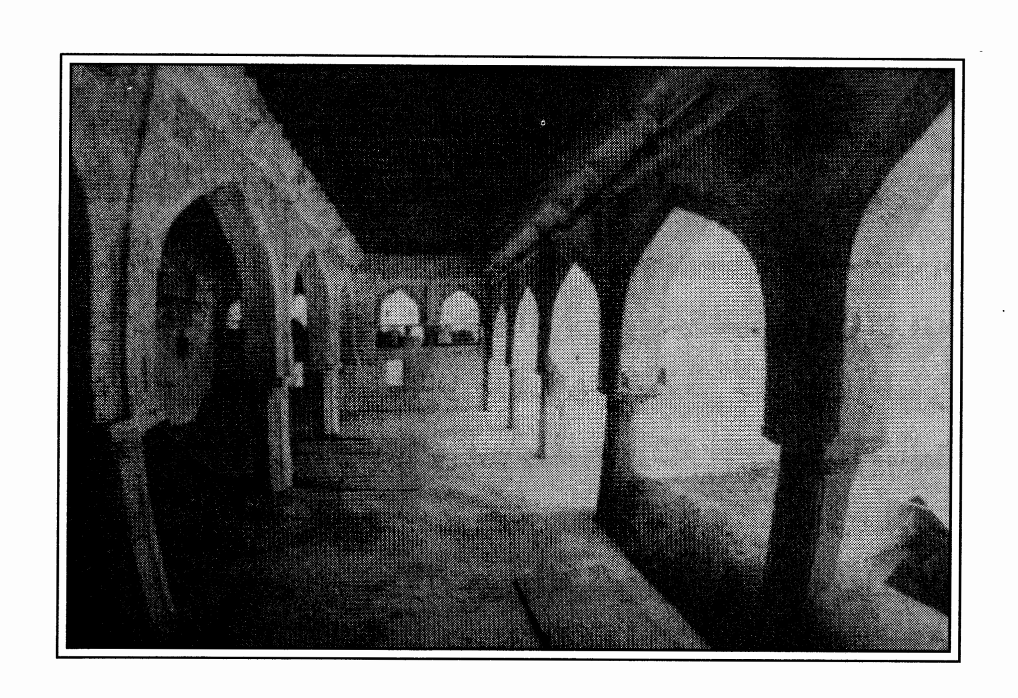
فكانت نكتة منـه بارعـة ملأتنـا ضحكـاً مـع الأسـتاذ، حتـى ارتفعت منا القهقهة عاليةً، وهدئت ثورةُ غضب الأستاذ العلامـة، فأكمل تقريرهُ؛ غير إن الرؤى لم تكـن واضحـة للعقـل، فعـدتُ بمـا شكل علينا لأبي، فشرح لي ما غمض من رموز هذا البحـث الـذي يبحث عن الظرف، والمظروف، وبدوري شرحته لمُلا علـي الطويـل فقال: لقد فهمته الآن.

ومع تغير الظروف، والحياة فإنهما لا يبقيان علـى اسـتمرارية، واستدامة، فلقد امتدت يد الزمن لهذا المسجد فـأزيلت بنيتـهُ مـع إزالة القلعة.

فهذا المسجد، من المساجد الأثرية، الـذي هـو: في فـن بنـاءِ محرابيه لهما صنعةٌ بلغت ذروة الفن المعماريـة في هذيـن المحرابـين، اللذين قل أن يوجد لهما مثيـلٌ، أو قـل لا يوجـد لهمـا مثيـل في بلادنا – على ما أعلم – وسنضعُ في هذه الخيوط صورةً توضح الفن المتجسد في هذا المحراب.

كما شهد هذا المســجد انبثـاق الحركـة العلميـة، والفكريـة الحديثتين من الإمام أبي الحسن الخنيزي، الـذي كـان يقيـم صـلاة الجماعة فيه، ويلقي فيه الدروس الإسلامية، والثقافة الفكرية.

* * *



هذه صورةُ تُمثل واجهةً من مسجد الراجحية

لقد ابتعدنا عن الشاطئ الذي رسونا على ضفافه، حيث كنت أقصّ ما مر بنا من نكتةٍ هامشيةٍ على أبحاث الدراسة، فلنعد إلى شاطِئنا الدراسي، فأنا مستمر في شموخ شوطهِ.

وقبل أن أسجل لمحة عن حياتي الدراسية، ومسارها، وتطورها العلمي المرحلي، أحب أن أرجع بكم القهقرى إلى ما وراء سبع سنوات، أي عندما كنت في السابعة من عمري، وطوى القرون القهقرى، وليست هي قرون إنما هي بضع سنين من السابعة عشر للسابعة، سبع سنوات هي صغيرة في اللسان، كبيرة في ميزان الحياة، والعمر؛ حيثُ عادت بي الذكرى إلى ما وراء طيوف السابعة من العمر، لأروي قصه طريفة من أغرب ما شاهدته في عمر يتفتح، كبراعم الورود لقطرات الطل عند أضواء الفجر، وكان عَليَّ لزاماً أن أذكر هذه القصة في المرحلة السابقة، أي في الخيوط السابقة، ولكني نَسيتُ، وما أنساني إلا الشيطان أعوذ بالله منه وعندما عادت بي الذاكرة، والذكريات صدى السنين الحاكي، ولم يفت الأوان، لأعود فأسجل هذه القصة الطريفة:

فقد ذهبت في رحلة علاجية إلى مدينة البحرين، إذ لا يوجد في ذلك الظرف مستشفى عندنا، ولا مستوصفا، ولا طبيبا، وهو عام الواحد والخمسين بعد الثلاثمائة والألف هجري.

وكان علاجي في إحدى المستشفيات الأمريكية، اذ لا يوجد غيره في ذلك الظرف كما رواه لي العلامة الأخ الشيخ عبدالحميد الخنيزي، والتاجر سعيد أحمد محروس، وفيه أطباء حاذقون، وبينما أنا أتلقى العلاج في ذلك المستشفى دُعيتُ إلى زيارة

الكنيسة في صباح يوم أحدٍ من الآحاد ، ولم يكن في خلدي أن أدعى لمثل هذه الزيارة ، لصغرسني ، فلبيتُ الدعوةَ .

ولما أخذت مقعد مركزِ مستواي في السن ، بدأ القس يتحدث في محاضرتهِ عن المسيحية ، والإسلام ، باللغة العربية ، فأدارها على الفكر الأوربي ، والأمريكي ، والثقافة الغربية ، وتخلف العرب ، وأنا ذلك الوقت لم أستطع أن أستوعب المحاضرة كاملة ، لما كنت فيه من صغر السن ، لكنها طبعت على صفحات نفسي آثاراً ممضةً من تلك الجمل الهجومية ، الّتي استطعت فهمها في ذلك الوقت المبكر من عمري، لما زودتُ به من تعاليم ، ومبادئ إسلامية ، علمنيها أبي ، غير إني لم أستطع الرد عليه لمركز سني ، لأقول لهم : إنكم سرقتم الحضارة الإسلامية ، والعربية ، ولولا هذه الحضارة الإسلامية ، لما كنتم الآن كما كنتم .

وبعدها ختم محاضرته بالأسطورة ، وخلص القس إلى معزوفتهِ الّتي تراجع عنها النصارى اليوم ، للمصالح الّتي لا تُبنى على مبدأ ، أو دين - فوصل إلى موضوع صلب سيدنا المسيح - عليه وعلى نبينا وآله أفضل الصلاة والسلام - وأن اليهود هم الذين صلبوه ، وبينما هو مُجنحٌ في أسطورة الخيال ، فاجأته لأبدد هذا الضباب بكلمات من الحق - الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ، ولا من خلفه - فما شعر إلا وأنا أتلو الآية الكريمة :

﴿ **وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم** ﴾

فانزعج القس من هذه الآية ، فطاش ، وتبخر حديثه كما يتبخر الضباب عند موجِ الريح العتي ، لأن حديثه لا يقوم على الحقائق ،

إنما يقوم على الخيال ، والمصالح السياسية ، فكانت الآية له كعصاة موسى عليه السلام تبطل سِحرهم .

فقال من المتكلم ؟ ولم يتمالك حتى قال أخرجوا هذا الطفل من الكنيسة ، واحرموه من العلاج ، وهو يشير إلى حرماني من العلاج في المستشفى الأمريكي ، لأن هذا المستشفى قائمُ على التبشير للدين المسيحي الذي حرف القسوس الكتاب السماوي لمصلحتهم ، ونسخوا الإنجيل حسب أهوائهم ، وتركوا الكتاب السماوي الذي أنزل على عيسى وراء ظهورهم ، والذي يبشر برسالةِ خَاتمِ الأنبياء محمد بن عبدالله - صلي الله عليه وآله وسلم - فشريعته تنسخ جميع الشرائع .

ولم أدرك أهداف محاضرة هذا القس في ذلك الوقت بعقلي البسيط ، وبعد انطواء مراحل الزمن أدركتُ بواعثها ، وأهدافها ، وما فيها من ثورة على الإسلام ، والمسلمين ، واليهود ، لأن الحرب العالمية الثانية خطط لها قبل وقوعها ببضعة أعوام ، فقبل أن تقع لهب القنابل سبقها لهب الحروف .

وبعد انتهاء هذه القصةُ ، والتعليق عليها ، وما فيها ، إننا نسيرُ إلى الشمس عبر خيوطها ونبدأ خيطاً آخر.





مبدأ الحياة العلمية

إفتتحتُ فجر حياتي الدراسية ، في شهر ذي الحجة عام ثمان وخمسين بعد الثلاثمائة والألف هجرية ، حيث بدأتُ دراستي على إثر القصة الّتي أشرنا لها في الصفحات السابقة ، فدرست الأجرومية وهو : أول فاتحة كتاب للغة العربية وقطر الندى ، وبل الصدى لابن هشام ، على يد الأستاذ محمد سعيد موسى لمسلم.

وبعد انتهائي من دراستِهما ، درست ألفية ابن مالك في اللغة العربية ، وكتاب الشرائع في الفقه ، في وقتين مختلفين على يد الشيخ محمد حسين عبد الجبار - المتوفى عام سبعة وثمانين بعد الثلاثمائة والألف هجرية علي مهاجرها أفضل الصلاة والسلام - .

ولما رأيت أن أستاذي - رحمه الله - لم تكن لديه الطاقات العلمية الّتي أستفيد منها لشرح ما يضمه دفتي هذين الكتابين ، قطعت دراستي عنه ، وانسللتُ من بين يديه ، لأبحث عن أستاذ آخر .

ومن الصدف - وما أغربها - أن دفعت أجنحة الحنين ، والشوقِ ، الأخ العلامة الشيخ عبدا لحميد الخنيزي إلى وطنهِ ، في أوائل شهر رجب عام ستين بعد الثلاثمائة والألف ، بعد غيبة له قضاها في دار دراسته في النجف الأشرف ، فأصدر والدي أمره بأن أدرس عنده كتاب الألفية ،

مادام مقيماً بين ظهرانينا ، فقد مكث قرابة خمسة شهور حيث لم يغادر هذه الربوع إلا في أخريات شهر ذي القعدة من العام نفسه.

وبعد أن أقفل إلى سماء دراسته العلمية في النجف - ولم أكمل كتاب الألفية - كان لزاماً عليَّ أن أبحث عن أستاذ ؛ لكي أتم على يديه بقية هذا الكتاب، وكُتباً أخرى ، فكان من توفيقي الحسن أن تحصلت على أستاذ ماهر محقق هو : الأستاذ العلامة الشيخ فرج العمران ، بأمر من أبي ، وكان نعم الأستاذ المحقق ، فأكملت على يديه بقية كتاب ألفية بن مالك ، وكتاب الشرائع في الفقه ، ودرستُ مغني اللبيب لابن هشام ، في يوم الثامن عشر من شهر جمادى الأول للعام الواحد والستين بعد الثلاثمائة والألف هجرية.

كما قرأت على يده كتاب الحاشية ، والشمسية ، وهما : يبحثان في علم المنطق ، وهي العلوم العقلية ، كما درستُ علي يديه كتاب المطول للتفتازاني ، وهو : يبحث في البيان ، والبديع ، والتلميح ، والاحتراس ، والبلاغة ، وفي كل هذه الدروس ، كان الأستاذ الأول الموجه لي فيها هو والدي .

ودرست على يد والدي المعالم في أصول الفقه ، غير أنني لم أكمله حيث وافته المنية ، فأكملت المعالم على يد فضيلة المرحوم العلامة الشيخ محمد صالح المبارك ، ومختصر المطول في البلاغة والبيان ، على يد فضيلة الأخ الأستاذ العلامة الشيخ عبدالحميد بعد عودته من العراق .

وقرأت الجزء الأول من اللمعة الدمشقية وهو كتاب يبحث عن الأحكام الشرعية في فقه الرسول وآله على يد الأستاذ فضيلة الشيخ فرج العمران .

ودرست كتاب النظام - وهو كتاب يبحث عن تعريف بنية الكلمة، واشتقاقها - علي يد فضيلة الشيخ محمد صالح البريكي، وكان شريكي في هذا البحث الأستاذ / مُلا علي الطويل.

ونورد هنا قصة، وقعت للأستاذ الطويل، مع الأستاذ الشيخ ميرزا حسين البريكي الذي هو شقيق الشيخ محمد صالح البريكي، وكانا يعيشان تحت سماء بيتٍ واحد.

فالخطيبان البريكي، والطويل، وقع بينهما ضباب من سوء التفاهم، فترك الطويل السلام على الأستاذ الشيخ ميرزا، وبينما نحن في غمار الدرس الذي نأخذه عند فضيلة الشيخ محمد صالح، فوجئنا بدخول الأستاذ الشيخ ميرزا، وسحب الكتاب من يد أخيه قائلاً: أطلب منك أن تدرس مُلا علي الطويل الأخلاق قبل تدريسكَ له العلم؛ فكانت هذه فاتحة صلحٍ لتبخر ضباب التفاهم، وعودة القنوات الأخوية.

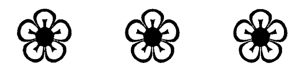
وما كدت أمر ببعض هذه الدراسات، والكتب الأدبية، حتى كونت لي طاقات علمية فتحت بها دنيا الأدب، والفكر، والمبادئ الإسلامية الّتي غُرِست بذرتُها في عقلي، وأنا يافعٌ، وأخطو إلى سلم الشباب، فأحببت الأدب، والشعر، والتاريخ، فنمت المواهب الفكرية، كما ينمو الغصن الوريق بين الغصون في الحقول.

وأخذ والدي يُشذبها، ويزودني بالمعارف الفكرية، ويلقي عليَّ الأبيات الشعرية، والقضايا التاريخية، وعواملها الزمنية، وأنا أجيبه في هذه الدروس، والمسائل، فإن كان جوابي صحيحاً، وإلا قام والدي بتصحيح ما أخُطئُ فيه، وانفتح لي آفاق من الشعر، وألوان من صور الغزل، بحيث تاقت نفسي إلى كتابة الشعر.

وأريد أن أتكلم عن فصل في هذه الخيوط عن الحياة الأدبية ، وكيف تكونت ، ونمت ؟ كما أريد أن أتكلم عن حياتي الزوجية ، في فصل خاص ، وكيف أحببت ؟ وما هي العوامل الزمنية ، والظروف العائلية الّتي مررت بها بعد أن أحببت ؟ ، وكيف اختار لي الله هذه الزوجة الصالحة المؤمنة ؟ .

وعلى هذا الضوء ، أبدأ مساري في هذين الفصلين ، وهل الحلقة الأولى - الفصل الأول - الذي نبدأ به في الحياة الزوجية ، أم الحياة الأدبية ؟! .

وسواء بدأنا بالحياة الزوجية ، أو بالحياة الأدبية ، لأنهما - كما نوضح - حلقتان تداخلتا ، وارتبطتا ، وامتزجتا كما يمتزج الماء بالدم ، وصارت في حياتي عنصراً واحداً بسيطاً غير مُركب ، ولا معقد ، إنما اخترت أن أكتب عن كل منهما فصلاً ، أديره على النقاط الّتي تمر بهذه الحياة ، حتى تُكونَ شريطا سينمائيا ، ووجدانيا ، ينقل القارئ إلى رؤية محسوسة يكاد ينظرها بعينه ، ويلمسها بيديه ، ولابد لكل فصل من تعريف قبل الدخولِ فيه .





الحياة الأدبية

إن الحياة الأدبية عنصر من عناصر الحياة، أو هي الحياة نفسُها، لأن الفكر الأدبي، هو الذي يقوِّم الأخلاق، ويزرعها في الأنفس، ويهذِّبها، فلا حياةَ بلا أخلاق، ولا أخلاق بلا حياة.

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فإن همُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

بدأت حياتي الأدبية الفكرية، عندما بلغت قرابة السابعة عشر من عمري، في عام ستين بعد الثلاثمائة والألف من الهجرة، بقراءة الشعر العربي، والتاريخ، فبعض المقامات، والقصص، إلى غير ذلك من الكتب، وفي طليعة ذلك الأدب المهجري، والتراث الموروث للشعر الجاهلي، والمخضرم، والعصرين الأموي، والعباسي، والشعر الرومانتيكي الرومانسي الجديد.

كما اطّلعت على الشعر الأجنبي، كالشاعر الألماني جيتا، أو الشاعر الروائي شكسبير، والشاعر الفرنسي موسيه، وجيرزبل، ولمارتين، وذلك عن طريق الترجمة باللغة العربية، لعدم معرفتي لغة أجنبية غير لغتي.

ولا تنسى الجهد الثقيل في مُراجعة كتب الدراسة العلمية الّتي تأخذُ جزءاً كبيراً من وقتي، وحيث أنني لا أقرأ بنفسي، وإنما

أحتاج لواسطةٍ يقرأُ عليَّ هذه الكتب ؛ لأن عيني لا تساعدني على القراءة ، والكتابة ، حيث أُصبت فيها وأنا أخطو ، وأدرج للسادسة من عمري ، فكابدت من جرائها ضروباً من ألوان المعاناة ، والعناء ، والتعب ، والشقاء .

ولكنني أبحرت بزورقي في لجة هذا الموج - موج الحياة الهائج تحت جناح عواصف الريح - أسير ، وأشق هذا العباب بمجدافي الصغير متكلاً على الواحد القهار ، فأنجاني ، وعوضني بهذه الطاقات ، وبارك لي في هذا الوقت الضيق المنكمش ، الذي لا يتسعُ لأمثال هذه الإنتاجات الفكرية ، فضلاً عن الدراسة ، والارتباطات الاجتماعية ، والعائلية ، فأعيش أكثر وقتي فراغاً عميقاً جليدي الثلوج ، لما أصطدم به في دربي الفكري من عدم وجود القارئ إلا على ندرة.

وبرغم هذه الظروف القاسية أتغلب على هذه الأوقات الجليدية فأصبُ عليها من حرارة عزمي لتذوبَ ثلوجها لأواصل السير في هذا الدرب المتعرج ، فيهيئ لي خالقي من يراجع لي الدروس العلمية في بعضها ، وبعضها أجتازُها بدون مُراجعة فأدرس غيرها .

وقد أتحصَّل على من يقرأ لي في المطالعات التاريخية ، والأدبية على ندرة ، وقلة ، فتكونت عندي رغبة وحس روحيٌّ هتفا بي ، ودعواني لكتابة الشعر ، وأحياناً لا أستجيب لذلك النداء ، وأظنه صوتا بعيداً يرتفع عن عالمي الصغير بأجنحته البيضاء في ذلك الوقت .

غير أنه أخذ يلُح عليَّ ويطرق الباب ، ويهتف بي من أعماق الحياة ، ويحومُ بأشعته حول آفاق نفسي : أُكتبْ الشعر ، وبإلحاح

وشدَّة، حتى هتف بي هاتفٌ بهواجس تكون منها هذه الأبيات في عام الستين بعد الثلاثمائة، والألف هجرية.

وأتذكر من بعض تلك المقولات ما يُماثلُ:

أيها الأستاذ، درِّس لك في الدرس ثناءُ

أنت أستاذٌ، جليلٌ لك مجدٌ وعلاءُ

غير أنني لم أحتفظ بها، ولم أَرْتَضِهَا، ولم تقنع طموحي، وعندها أخذت تنمو الحياة الأدبية، والفكرية، في آفاق حياتي.

وفي عام واحد وستين بعد الثلاثمائة والألف تبدَّلت حياتي الأدبية إلى فكر، وعمق، فبدأت أفكر في هذه الحياة، وفي النواة الأولى للبشر، وهيَ الطفولة، وكتبت قطعة تحت عنوان «الطفولة» وعرضتها على أبي، ولأول وهلة شجَّعني على كتابة الشعر، وأكتبها هنا للدلالة على النواة الأولى للشعر، إلا أنني لا أرتضي الأبيات الماضية الّتي كتبتُها كهذه الأبيات، أو غيرها، كمثل قولي:

لا تغترر إن قيل: عصر يراعةٍ عصر عليه من السخافة سيما

ومر عام ١٣٦١هـ على مثل هذه الكتابة ذات البيت، والبيتين لم أحتفظ بها والبيتان اللذان يصفان المعلم، والبيت الأخير، إنما هي من دفتر الذاكرة لا من دفتر التسجيل ولا أتذكر من تلك المقولة الماضية إلا قليلاً كبعض هذه الأبيات، فقد كنت أعالج الحياة الاجتماعية، وللتدليل على النواة الشعرية لا الرضا عن هذه الأبيات، سأذكر ما كتبته في عالم الطفولة:

عهد الطفولة عهد يستراح به ما فيه من حزَنٍ يشجي ولا كدرِ

لا يـدرك الطفـل فيـه بُعـد منيتـه	ولا يفـرِّق بـين النفـع والضـررِ
ولا يحـس لطيـب العيـش آونـة	ولا يفكـر في حـال مـن العـبر
ولا يـرى لحيـاة قيمـة أبـدًا	مـا دام مرتهنًـا في عـالم الصغـر

إن الأداء الفني في هذه القطعة، غيرُ مكتملٍ، فإن دلت على شيءٍ، إنما تدل على موهبة شعرية، بها أصالة الفطرة، تنم عن مستقبل شعري، وحياة فكرية متفتحة لا تقف على أطلال الماضي لتعيد الأسلوب التقليدي، إنما تدور في كتاب الكون الرحب الواسع، وتقرأ فصوله، وتكتب من حروفه ما تكتب.

وهناك قطعة أخرى تتألف من بيتين تعبر عن جوىً، وشوقٍ فيه لهفة الشباب الذي يعيش على الأمل الوريق الذي يبلغ ذروة الشوق العنيف هو شوق الشاب في أعلى ثورتهِ، وفي ذروة شباب قلبه وأقصى مناه أن يصل إلى فتاة تشاركه آمالهُ، وآلامهُ في هذه الحياة زوجة تمسح عنه الألم.

وقد كتبتها في العام الذي كتبت فيه قطعة «عهد الطفولة»، وكان من الأليق أن أذكرها في فصل الحياة الزوجية.

وقد كنت أحببت أن أبدأ بفصل الحياة الزوجية قبل فصل الحياة الأدبية، إلا أنها حلقة واحدة، وقد طلبت سبطتي الآنسة هند كامل سلمان العبدالهادي الحبيب، أن أبدأ بالحياة الأدبية قبل الحياة الزوجية.

وكانت هي الّتي أُملي عليها فتخط لي بعض الفصول في أوقات مختلفة، عندما أسكنُ من نَصبِ التعب، وأجلس أطلب منها

الدفتر ، والقلم ، فأملي عليها ما توحي به الذاكرة من الحياة الماضية ، وما توحيه آلهة النثر من أسلوب تجود به عليَّ ، وفي بعض المرات أكسل عن الكتابة ، وأخرى تهرب السبطة هند عن الكتابة ، وهي الوحيدة الّتي تفرَّغت لتتلقى مني ما أمليهِ عليها من هذه الفصول ، الّتي أحكيها من خيوط شمس الحياة.

إن هذه جمله اعتراضيه ، أقحمت نفسها بدون استئذان ، ولم تكن من صلب حياتنا الأدبية ، فاقتحامها أخر ذكر القطعة الشعرية الّتي تحدثنا عنها .

وهنا نعود لنسجلها كما ولدت في فجرها بدون تغييرٍ ، أو إدخال رتوش المسماة : «المحب المتألم » ، الّتي توحي بالألم ، والظمأ ، إلى معين الحياة الزوجية ، ومطلعها :-

أنا لا أنام معذَّبا بهواك	**هل تعطفين على محب شاكي**
قد بات سهراناً لأجلك والهاً	**قسما بوجهك لا يحب سواكي**

فلن نلملم هذه الخيوط ، ونعود أدراجنا لنفتح كوَّة الحياة الأدبية ، فندخل مرة أخرى لنواصل المسيرة في هذه الحياة الفكرية الأدبية.

لقد استمر نشاطي الفكري الأدبي ، والعلمي معا ، تحت ظل والدي الوارف الحنون ، فأخذت أدرس ، وأُدَرِّس ثلة من الطلاب ، حتى ضاق وقتي ، وامتلأ فلم يعد فيه فراغٌ - كما تمتلئ الكأس فلا يمكنك أن تضيف لها شيئاً - فالفراغُ الخميس والجمعة لكونهما يومي الإجازة ، فهما للراحة ، والاستجمام ، والاستحمام ، ولقراءة الكتب الأدبية عندما يجود الظرف بالقارئ .

ومن هذه الأجواء الفكرية، والندوات الأدبية استمرأتُ حلاوة كتابة الشعر، فصرت أكتبه، وأعرضه على أبي، غير أن والدي، نظر نظرة بعيدة، وبعد فترة من تشجيعه، وتعليمه، وتبصيره بالأخطاء الشعرية، أخذ يحظره عليَّ، ويحاربني في كتابة الشعر لِما رأى فيه مني من ميل عنيفٍ للإسلوب الشعري، والوله لطيف القصيدة فخشي عليَّ أن أستسلم له، وتتغلب فطرته على الدروس العلمية فأتركها، أو أكون مهملاً لها من وجهة نظرته الخاصة.

وترجم رأيه في كلمات: «إني أعددتك للحياة العلمية، والعلم يحتاج إلى رياضة فكرية دقيقةٍ، والشعر، والأدب، فطرة بشرية، ولا يحتاج إلى تعمق، فالفطرة الطبيعية تغلب التطبع الرياضي، وأخشى أن تطغى الناحية الأدبية على الناحية العلمية، وتتغلب عليها، وبعد أن تجتاز المرحلة العلمية، فما عليك إلا أن تعود للحياة الأدبية، فتكتب ما شئت من الشعر».

فمنذ هذه اللحظة صرت أكتب الشعر من وراء الكواليس، ولا أعرض أعمالي الشعرية عليه، إلا في بعض المناسبات الّتي يَطلِبُ مني فيها قول الشعر، كرثاء بعض العلماء.

وعندما يطِلب مني كتابة قصيدة، فيالها من فرحة تسقط على قلبي، وإن كنت لا أجيد في المناسبات عندما يُطلبُ مني، بل في أكثر الأوقات لا تطيعني عاطفتي الشعرية إلى كتابة الشعر عندما يرادُ مني، إنما تجود الشاعرية عندما تتأثر بانفعالات نفسية تتعامل معه تعامل النص للنص، فهنا تتسلسل المعاني، والقوافي كنهر متدفق تسبح في مياهه الأنجم، والأغصان، وتظللُ مياهه عرائس النهر.

أخذت هذه الحياة الأدبية تنمو بفضل الحركة العلمية الّتي كان يرعاها أبي ، فتألفت كوكبة من الشباب من الذين يدرسون في ذلك الوقت الكتب العلمية ، وينتمون إلى الدراسات الدينية ، كاللغة العربية ، والفقه ، والبلاغة ، والأصول.

فنشطت هذه الكوكبة الّتي تألفت من كاتب هذه الخيوط ، والأساتذة : محمد سعيد المسلم ، وعبدالواحد الخنيزي - المولود في شهر جمادى الأول عام خمسة وأربعين بعد الثلاثمائة ، والألف هجرية ، والمتوفى في يوم التاسع عشر من شعبان عام واحد بعد الأربعمائة والألف هجرية - وكان شاعراً مطرف الديباجة ، مجنحاً في الخيال ، ترك ديواناً شعرياً أسماه : « رسمت قلبي » طبع بمصر منشورات مكتبة الإنجلو المصرية عام ثلاثة ، وسبعين بعد التسعمائة والألف ميلادي.

والسيد علي السيد باقر العوامي - المولود في الحادي من محرم عام ثلاثة وأربعين بعد الثلاثمائة والألف هجرية - أسهم في فجر هذه النهضة الحديثة ، وكان نهما في قراءة الكتب ، يحفظ من أنواع الشعر العربي ، ويكتب المقالة ، ونشر بعض المقالات في الصحف المحلية ، ولا يزال يمارس كتابة المقال وهو أحد الركائز ، غير أنه كان يلقي في دروبنا ضبابا ليثبطنا عن كتابة الشعر ، والمقال ، غير أننا لم يخنقنا هذا الضباب المكثف ، ويددته عزيمَتُنا الّتي هي كضوء الشمس.

وكان الأستاذ السيد علي من طراز فذ في الجوع إلى الحرف ، يحضن الكتاب كما يحضن الشاب الغادة ، فينحني عليه وهو يقرأ لنا بصوته حتى يهجم الليل بحلته السوداء ، وهو مستغرقٌ ينقلُ

طرفه بينَ زهورهِ ، فأطلب منه التوقف عن القراءة فلا يجدي الطلب ، فلشفقتي ، وعدم استغلاليتي لهذا الموقف ، أنحني عليهِ ، وأسلبه الكتاب سلبا .

وبعد أن نشطت وأنتجت هذه الحركة النتاج الجيد ، عاد الأستاذ / السيد علي يقدّرُ ما يصدره هؤلاء الرواد من تراث .

ومن الرواد الأستاذ / محمد سعيد الجشي ، ومُلا علي الطويل - المولود في شهر شوال عام ستة وثلاثين بعد الثلاثمائة والألف هجري أو سبعة وثلاثين بعد الثلاثمائة والألف هجري - ، وهذا الترديد أنقلهُ عن فمهِ والسيد حسن السيد باقر العوامي - المولود باليوم الثامن والعشرين من شهر شوال عام خمسة وأربعين بعد الثلاثمائة والألف هجرية - وله مؤلفات طبع منها «الضائعون» - قصة نثرية - وكتاب في المرأة أسماه «المرأة في الإسلام» - يبحث عن دورها ، ومكانتها ، الّتي منحها إياها الدين الحنيف - ، والأستاذ الشيخ عبدالله الخنيزي ، الذي أدخل ثروة إلى المكتبة الأدبية ، والعلمية بمؤلفاته ومن ضمنها «أبو طالب مؤمن قريش» ، و «نسيم وزوبعة» ، و «أدواؤنا» ، و «ضوء في الظل» .

ولا يفوتنا ، أن نشير إلِى كوكبٍ هو ضوء من هذه الحركة ، لمع في سماء النجف ، وجاء مع والده العلامة الشيخ علي الجشي ، بعد أن توفي العلامة السيد ماجد العوامي ، في السابع من ربيع الأول عام سبعة وستين بعد الثلاثمائة والألف هجرية ، ذلك الكوكب هو عبدالله الجشي - المولود في العشرين من جمادى الآخر عام أثنين وأربعين بعد الثلاثمائة والألف هجرية كما وجدته في ترجمته في

كتاب شعراء الغري للأستاذ الخاقاني، وسمعته من أخي الشيخ عبد الحميد نقلاً عن والده العلامة الجشي.

إن هذا الكوكب كان له دورٌ فكري في الأدب النجفي، وفي صحافته، بأسلوب المدرسة الأدبية الّتي تسير عليها سماء أدب النجف في ذلك الوقت، فلمع فْي تلك السماء.

وقد تلقى توجيهاته الفكرية من العلامة الشيخ عبدالحميد الخنيزي الخطي، يضيء له مساره الأدبي، والفكري، حيث كان معه في النجف الأشرف، وبعد عودته، تحول عن تيارات النجف إلى الّتيارات الرومانسية الحديثة، وكتب شعره الجديد، وغزلياته في ديوان أسماه: «غزل»، وله مجموعة شعرية تتألف من رباعيات أسماها «رباعيات»، كما له عدة مقالات عن تاريخ القطيف، وعن دور القرامطة، وله كتابُ فيه أبحاثٌ عن الزيت، وهذه المعلومات مستفادة منه فنأمل منه نشرها.

والموجه له في مساره في فجره الأول بالنجف الأشرف، العلامة الخنيزي، عاد يرشده في آفاقه الفكرية بعد عودته لوطنه مع أبيه، والذي لمسته في الأستاذ عبدالله الجشي، ظاهرة فكرية لا تنفر ولا تستأنف من الاستشارةِ للمفكرين من لهم وزن في الحقل الأدبي، والتاريخي فهو يسترشد بها ويستضيء، وهذا فضلٌ يجب الاعتراف بهِ بصفتهِ مفكراً، ورائداً.

ومسيرة هذه الكوكبة حركة علمية، فكرية، أدبية جوالة، تشرب من جدول أعماق الكتب الأدبية، والعلمية، لا يمر علينا الوقت هباءً أو ضياعاً، إنما نقضيه في نقاش علمي، وأدبي، وقراءة في الكتب العلمية، والأدبية، والتاريخية.

وكنا نقسم الأوقات، ونخصصها في تقسيم قراءة الكتب الّتي نختارها من بين الكتب، ونغتنمُ، وننهب الوقت نهباً حتى نقسمه كما يقسم الفلاح الماء للزرع، وننظم الجلسات، فيكون وقت تجمع هذه الكوكبة: في بيتي وقت الضحى، وتارة في بيت أحد الزملاء كبيت الأستاذ محمد سعيد المسلم، فنتناقش، ونقرأ.

واستمرارية الجلسة عصراً في بيتي، ويكونُ وقت الضحى مشتركاً في بعض الأحايين بين بيتي، وبيت المسلم، ومحمد سعيد الجشي - المولود عام ثمانية وثلاثين بعد الثلاثمائة والألف هجرية، كما هو مؤرخ في كتاب المسلم «القطيف واحة على ضفاف الخليج»، وقد توفاه الله في يوم التاسع عشر من شهر رمضان المبارك عام العاشر بعد الأربعمائة والألف هجرية، الموافق ميلادي اليوم الرابع عشر من شهر إبريل عام تسعين بعد التسعمائة والألف ميلادية.

وهو من الرواد ترك مجموعتين مخطوطتين من الشعر أسماهما: «في محراب الذكرى» وهي مقصورةٌ كلها على أهل البيت عليهم أفضل الصلاة والسلام، و«الأنغام» مجموعةٌ فيها مختلف ألوان الشعر، كما نشر بعض قصائده، وأعماله الأدبية في بعض الصحف كمجلة الأديب، والعرفان اللبنانيتين، وفي غيرهما من الصحف - وأدعو الله من أعماق قلبي، أن يتيح لهما المفكر المخلص لإنقاذهما من براثن عوامل الزمن، ونشرهما.

وهذه اللقاءات، والدراسات الّتي تشبه الندوات، هي الّتي كونت هذه الحياة الأدبية، والعلمية، الّتي آتت أكلها، وكانت

الحياة فيها بسيطة لا تكلفنا أي تعقيد ، حيث نجتمع الضحى كما قلت في بيت المسلم ، أو بيت الجشي ، أوفي بيتي ، فنأكل التمر الّتي تنتجه عرائس النخيل ، ونشرب القهوة العربية ، وقد يضاف في بعض الأحيان إلى هذه المأدبة البسيطة في شكلها الكبيرة في معناها القثة مع الملح ، أي «الطروح» باللهجة الشعبية القطيفية ،أما الأمسيات ، فأقداح الشاي مع القهوة .

وأطل العام الثاني والستين بعد الثلاثمائة والألف ، فدخلت الحياة الفكرية الأدبية في منعطف غير منعطفها السابق ، حيث نضجت الثقافة الفكرية ، وصارت تنتج شعراً يقال له شعر ؛ والتنافس بين الشعراء ولا سيما بين كاتب هذه الخيوط ، وبين المرحوم الأستاذ عبدالواحد الخنيزي ، والأستاذ/ محمد سعيد المسلم - أعطاها زخماً حتى وصلَ إلى ذروته ، وبلغ تنافسنا - نحن الثلاثة المشار إليهم - إذا التقينا صباحاً ،كلٌ منا يفتش جيب الثاني ، لعله يعثر على قصيدة خبأها في جيبه عن صاحبه ، فيحاول الإطلاع عليها .

وأنا في تلك الفترة كنت أكتب في كل شهر قصيدة ، وهي تشبه المجلة الأدبية الشهرية الّتي تصدر في مطلع كل شهر ، حافلة بالفكر والأدب ، وكل منا يخشى أن يتفوق أحد منا - في هذا الشهر- على الآخر .

فكانت هذه الحركة الّتي تمت بتوجيهات أبي ، يعتز بها جميع رجال الفكر، كما يفخرون بتوجيهاته عند إلقائه الدروس لهم من الفرص الّتي ينهبها من وقته .

وكان يثقّف النشئ ، ويحرص علـى تعليمـه ، وتدريبـه ، فقـد شهد مسجده دروسا ، وأبحاثاً متنوعة الجوانب ، والأفكار ، في شتى العلوم بعد صلاة العصـر في شـهر رمضـان المبـارك ، وبعـد صـلاة العشاء على مدار الأعوام ، وفي هذه الجلسات تحدقُ به حلقةٌ ، فهـو كالبدر بين النجـوم يغمرهـم بضوئـه في إلقائـه ، وتعليمـه المبـادئ الإسلامية ، والدينية ، والفقه ، والأدب ، والشعر .

وهذه الدروس ، والتعاليم كان لها صدىً بعد موتـه في نفـوس العلماء ، والأدباء ، ولاسيما الطلاب الذين يحضرون هـذه الحلقـة الدراسية ، فهزّت قلب الشعر ، وحولته إلى ألحان باكية .

ومن تلك الأوتار الحزينة ، ما قالـه الشـاعر / الأسـتاذ محمـد سعيد الجشي ، فسكب قلبه دموعاً قانية ، في قصيدته الّتي رثـى بهـا الإمام الخنيزي ، واستمد معانيها من تلك الشخصية ، حتى جاءت قطعة تجسد جانباً من جوانب حياته العلمية ، بعدمـا تـؤدى أعظـم صلة بينها وبين خالقها الصلاة ، وكيف ينفتل من صلاتـه ، ويتجـه لتعليم تلك الحلقة ، والكوكبة ليدخل في عبادة بعد عبـادة ، وهـو لم يخرج من مسجده .

وعـت الأحكـام في مسـجده   أمـةٌ لم يُـرجَ بـالأمس شـفاها

ولم تقتصر تعاليم أبي على المسجد فقط ، بل في مجالسه العامة ، والخاصة ، فهو فكر جوال ، ومدرسة سيارة .

هذه جملة اعترضت خطنا ، وأوقفتنا هنيهة لأننـا تحدثنـا عـن بادر الفكرة العلمية ، والأدبية ، ومغذيها ، إذن لم نخرج عـن الحيـاة الفكرية .

وما دمنا نتحدث عن حياة أبي في هذا المسجد ، فيحلو لنا أنْ نعطي لمحة مقتضبة عن طبيعة حياة هذا المسجد الأثري ، لكونه من آثار هذه الربوع التاريخية المسمى : « مسجد الراجحية » .

فقد روى لي بعض الثقات ، كالمرحوم الحاج عبدالله نصر الله : أنَّ هذا المسجد كان بيتاً لإمرأة تسمى : « راجحية » ، وقد أوصت بعد موتها أن يوقف بيتها مسجداً لله ، يقام فيه أقدس عبادة ، ويذكر فيه اسْمُهُ ، كما أوصت أن يُستثنى من الوقفية دارٌ تدفن فيها وتكون قبراً لها .

فقد كان قبرها عندما تدخل من باب المسجد يقع في غرفة صغرى في المدخل على يدك اليمنى ، وهي الّتي أشرنا لها .

وهناك روايات مختلفةٌ سمعتُها يقصها بعض المعاصرين ، فقد روى لي عادل بن الخال راشد عبدالله الغانم عن موقع المرأة راجحية الإجتماعي ، والأسري عن شيخٍ طاعنٍ في السن سيد من قرية التوبي من قرى القطيف أن نسب راجحية تنسب إلى قبيلة آل غانم ، وإن والدها عبدالله بن غانم وعلى هذا الضوء تكون عمة والد والدتي أخت أبيه ، ويستدل على ذلك أن هذا المسجد هو جزء من بيوت آل غانم.

وأنا قد رأيتُ شبابيكَ ، ونوافذَ من بيوت آل غانم تطل على حرم هذا المسجد قبل إزالته مع القلعة في التاريخ الذي حددناه لإزالة مدينة القلعة.

كما روى لي السيد محسن السيد باقر العوامي عن بعض معلوماته أن مسجد الراجحية بني في عهد الأتراك ، وجدد بناؤهُ

عام ١٢٨٧هـ ، وإن راجحية وقفت له نخلاً يسمى المشهد يصرف على تعميره ، وتنويره ، وفرشه بتاريخ ١٧/١٢/ ١٣٣٢هـ ، وهذه الروايات تتناقض مع تاريخ الوقفية لأن تاريخ الوقفية في عهد الحكومة الجليلة السعودية عام ١٣٣٢ ه ، فكيف يكون الوقف بعد موت المرأة إذا كانت المرأةُ راجحية أوقفت المسجد في عهد حكومة الأتراك وجدد في حكم الأتراك ؟ إلا أن تكون عُمرت وجاء وقف النخل بعد وقفية المسجد ، وهذا جائزٌ.

وما يرويه عادل عن هذا الشيخ الطاعن فهو من جهة النسب الأسري لراجحية فهو قريبٌ فإن تاريخ الوقفية يؤيد رواية هذا الشيخ الذي ينقل عنه عادل ، وتدل عليها أيضاً البيوت التي تمتدُ من جنوب المسجد إلى أخر سلسلة بيوت آل غانم الممتدة إلى براحة الحليب ، ويضيف السيد محسن السيد باقر العوامي أن تاريخ الوقفية وجده في أحد سجلات جده بخطه .

هذه الروايات رويناها كما هى ، ولم نقف على وثيقةٍ تبرهن لنا برهاناً قاطعاً إنما أخذنا ببعض التراجيح الطبيعية الموجودة قبل إزالة القلعة ولا نستطيع أن نثبت الواقع الصحيح ، إنما الواقع أن هذا المسجد قد وقفته هذه المرأة المسماة راجحية ونسب المسجد لها ودفنت فيه ، كما شاهدنا قبرها ، وجميع الروايات كلها أقوال تحتاج إلى براهين .

وإن تاريخ بناء هذا المسجد العظيم - ذي الطابع الأثرى ، والبناء الفني - فقد تحدثنا عن بنائه ، وتاريخه في رويات متضاربة في الصفحات السابقة ، وعلقنا عليها برأينا ، وحاولنا أن نستشف

الحروف المرسومة على باب غرفة القبر لراجحية فلم نستطع فك هـذه الحـروف برغـم الأجهـزة الحديثـة ، والتكنولوجيـا الجديـدة ، لأن الدهر مشى على أحرفه ومسحها فهو أقوى من الأجهزة.

كما روى لي الأخ العلامة الأستاذ الشيخ عبدالحميـد : كـان أحد الأولياء لهذا المسجد جدنا الحاج حسن الخنيزي المتوفى عام ستة عشر بعد الثلاثمائة والألف هجرية ، والمدفون بالنجف الأشرف - وحينما كان وليّاً نمّى ربع ما ينتجه النخل - الموقوف مـن المـرأة راجحية الصالحة ، على عمارة المسجد وإنارتـه ، ورواتـب مؤذنـه - واشترى مما يفضل - بعد صرفه علـى حاجيـات المسجد - نخـلاً تابعاً له على نهجية النخل الموقوف للمسجد المشار إليه.

وبعد الجد تحولت ولايته إلى يـد أحـد شـخصيات القطيـف الذي كان من الصلحاء والأتقياء السيد علي العوامـي - المولـود في يوم حادي محرم عام سبعة وستين بعد المـائتين والألـف هجريـة ، والمتوفى في عام تسعة وثلاثـين بعـد الثلاثمائـة والألـف هجريـة - وهذه الرواية عن الجد لا تتم إلا علـى تـاريخ تأسـيس المسـجد في عصر الأتراك لأنه توفي في عصرهم وبهذه نعرف كيف سُمِّي المسـجد بهذا الاسم ، لأنه يُنسب إلى المرأة الّتي وقفته ، وقد أزيل مع إزالـة بيوت مدينة القلعة ، فأصبح في خبر كان ، ولم نعثر على ما يؤيد هذه الرويات أو ينقضها ، والواقع لم نصل له والله أعلم بذلك.

والذي يؤسـفني ويزيدنـي ألمـاً ، الفـن الأثـري الـذي يحملـه محرابيه ، من طابع تاريخي أثري بعيد الجذور في أعماق أمجاد حاضرة القطيف القلعة ، وذكرى لتاريخ هذه المـرأة المحسـنة ، وأُفـق لفجـر

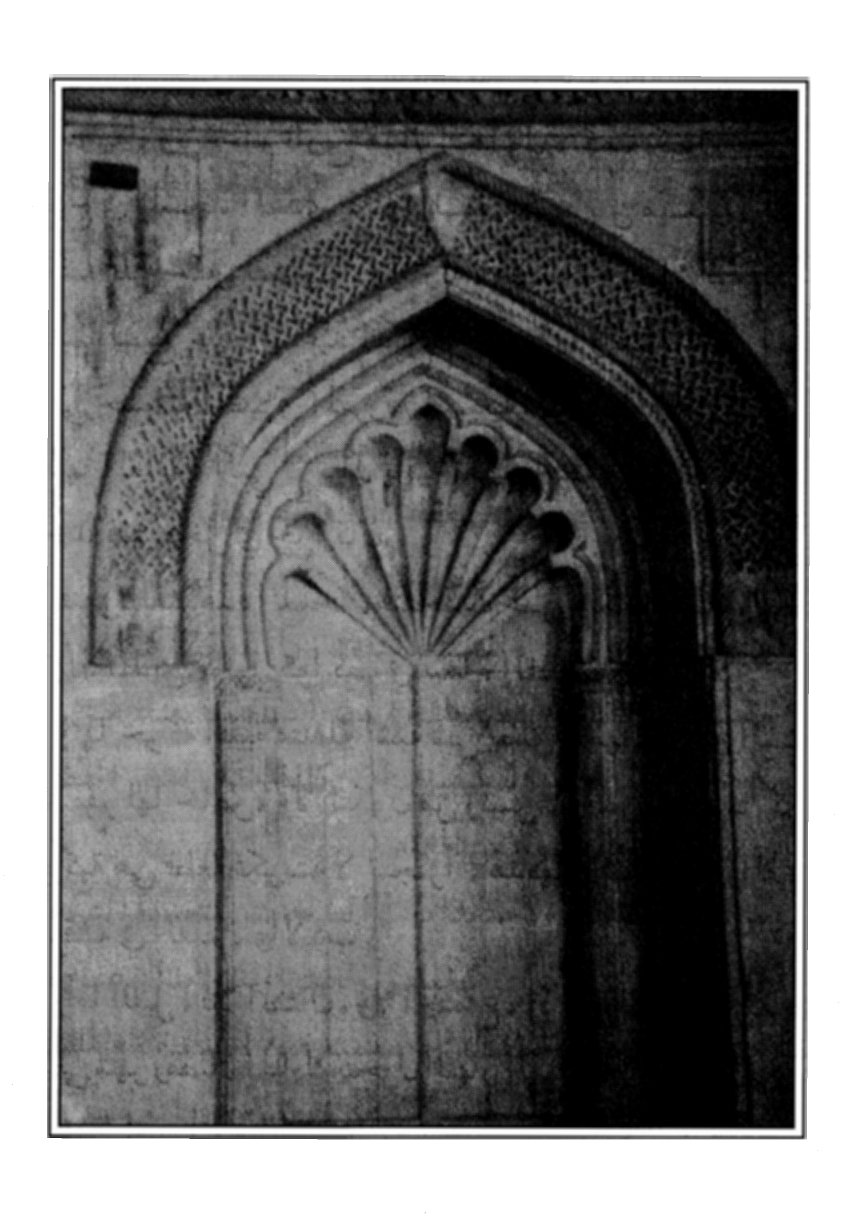
حياة باذر هذه الحركة ، الإمام الشيخ أبي الحسن الخنيزي الذي تحدثنا عن حياته العلمية - ونشرها من سماء هذا المسجد .

والمسجد في الإسلام ، هو : الجامعة الكبرى الّتي تعلم المسلمينَ دينهم ، وأخلاقهم ، وحياتهم وهو : المركز الوحيد في فجر الدعوة الّتي انبثقت منه ضوء الرسالة ، وقام بنشرها سيد الخلق من الأولين ، والآخرين رسول الله محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله ، ولا يزال المسجد ، وَلَمْ يزل تنبثق من سمائه المبادئ الإسلامية الحضارية ، والأفكار المقومة لمنهج الخُلق ، والتعامل مع البشرية .

فنعود إلى الحديث عن والدي ، فإنه عندما هبط من سماء النجف الأشرف إلى وطنه القطيف ، في شهر رجب الأصب عام تسعة وعشرين بعد الثلاثمائة والألف هجرية ، بدأ فجر حياته العلمية ، وأقام أبحاثه ، وفرائضه في مسجد المسألة ، أو المسهلة كما تنطق أحياناً .

وهذا المسجد ، يقع في حاضرة القطيف قرب بواباتها الغربية الّتي تسمى : « باب الشمال » ، وقد هدمه والدي ، وبناه من كيسه الخاص ، وبقى على هيكله مدة طويلة حتى هدمه رجل من رجال الخير يسمى مكي آل جمعة ، فعمره ، وبناه على أسلوب البناء الجديد ، ولا يزال ثابتا شامخا ببنائه في موقعه ، إلا أنه سلب منه مساحة من سمائه ، هو سقف « لساباط » في الجهة الشرقية منه .

* * *



صورة تمثل محراب هذا المسجد بما فيه من طابع فني معماري

وعندما ضاق هذا المسجد بالمصلين، تحول أبي إلى مسجد الراجحية، ولا أعلم تاريخ هذا التحول، كما كان يلقي بحثه الخارج في المسجد الذي بناه والده حسن بن مهدي الخنيزي، وأوقف عليه نخلين لعمارته، وإنارته، وفرشه، ويصلي فيه ابن أخيه الزعيم الشيخ علي أبو عبد الكريم الخنيزي، ويقع هذا المسجد جنوبي حسينية الخنيزي المعروفة بحسينية الدريب أو الزريب كما يُسميها العامة، الّتي لا تزال باقية تعيش تحت ضوء الشمس، أما المسجد فقد دخل في خبر كان.

فنعود بعد هذه اللمحة، فنتحدث عن هذه الحياة الفكرية، والرواد الذين كانوا كواكب في سماء القطيف الأدبية.

إنها حركة أدبية متنقلة أشبه شي يطلق عليها النادي السيار، إذ لا مقر لها خاص، ولا تتكون من رئيس، وأمين سر، إنما كل هذه الكوكبة هي قطعة فكرية لا تتجزأ، هدفها الدرس، والقراءة، والمناقشة في العلم، والأدب.

أما الليل، فلا اتصال، ولا اجتماع، إذ لا هاتف، ولا كهرباء إلا في ليالي شهر رمضان المبارك يتحول النهار إلى ليل والليل إلى نهار.

وهنا لابد لنا من وقفة نسهر فيها، ونعيشها على صعيدِ ليالي شهر رمضان العظيم - الذي فيه ليلة أفضل من ألف شهر - ونَصِفُ صورها، ومناظرها مجسدة في الأساليب الّتي تستعد لها القطيف من أولها إلى آخرها.

وهذه الحياة هي جزء من حياة شهدتها، وعشتها، فوصفها خيطٌ من خيوط هذا الكتاب.

فأهل القطيف يستعدون لهذا الشهر العظيم قبل شهرين، فعندما يهل شهر رجب الأصب، ويشرق بَدرهُ على الآفاق، ويرسل حُللهُ الفضية على النخيل، والمروج، لا تكاد أن تطوف بشوارع حاضرة القطيف القلعة، إلا وتسمع صوت الطواحين تُنَغِّمُ ألحانها كأنها تشير في نبراتها إلى الفرح الذي يغمر المدينة بقدوم هذا الشهر المبارك وهي تطحن الرز، وتحوله إلى طحين ناعم، كما تسمع صوت المدقات، وهي تدق الحنطة في إناء واسع كبير يسمى باللهجة القطيفية: «ميقعه»، يقف الدقاقُ أمامها، وهو يدق بمدقه الحنطة، فيحولها إلى ذرات ناعمة ليُعمل منها «الهريس».

وتُشاهد صوراً من الاستعدادات، واسعة الآفاق، فأينما تفتح جفنك أو تصيخ بسمعك رأيت أساليب تُعد من ألوان الأطعمة حتى قال بعضُ القطيفيين: إن تكلفة هذا الشهر الفضيل، تعادل مصرف أربعة شهور من العام.

ومن أساليب هذه الاستعدادات الطبخات المتعددة الّتي يقوم بها الطهاة من شتى الألوان كخبيص العيش الذي يدار عن طريق الطواحين، وخبيص الحب الذي يصنع من الحنطة، واللقيمات ويعمل من طحين الحنطة ويُقلى بالسمن ويوضعُ في مائعٍ من السكّر يسمى باللهجة القطيفية «شيرة»، والتلاقيم، والزلابية، والشعرية الّتي تعرف باللهجة القطيفية: «السيويه».

ومن الاستعدادات، أن تؤُخذ الحنطة، وتوضع في أوان واسعة فيسكب عليها الماء، وفي كل إشراقة صباح يُبدَلُ بماء جديد حتى تتصلب الحنطة، وتستحيل إلى أقراصٍ جامدة تسمى نشا فيصنع

منه الماقوطه، والفالودج، ويعرف باللهجة القطيفية «مقرازي» وهو لذيذ المطعم يحمل نكهة لا توجد في الحلويات الأخرى، كما يصنع خبيص البيض، والحلوى، والكباب، والهريس.

فعندما تجلس على وجبة الإفطار، تشاهد المائدة وهي تحمل ألواناً متعددة من الأطعمة، وتوزع هذه الأطعمة في المساجد الّتي تقام فيها صلاة الجماعة على المصلين، وبعض الحسينيات.

وقد شاهدت في كل مساء أحد الخدم يحمل مائدة تضم بعض ألوان الأطعمة، مع التمر في فصل الشتاء، والرطب في فصل الصيف، إلى مسجد أبي طيلة هذا الشهر العظيم.

وتوزع فيه الصدقات على الفقراء، فهو ربيع المساكين، ففي حسباني، وما أخال أنَّه لا يبيت في هذا الشهر العظيم جائعُ أو محتاجٌ، فهو شهر الرحمة، والغفران، وربيع القرآن، والدعاء.

ولو أنك طفت – اليوم - في شوارع القطيف في شهري رجب، وشعبان، لن تسمع أنغام أصوات الطواحين، أو مدقات الحب، ولا صوت عمليات، كعمليات الماضي تحتاج إلى إعداد، لما حدث من تطورٍ في الأساليب العصرية الجديدة الحديثة الّتي طورت الحياة فتأتيك هذه الأطعمة جاهزة بلا عناء، أو كلفةٍ.

ولا ننسى البهجة الروحية الّتي تنشر ظلالها في سماء القطيف، فهي تموج بشتى ألوان الصور، والمناظر، حيث تلاوة القرآن تنبعث من البيوت سحراً، ومن الحسينيات، والمساجد قبل السحر، وما يعقبُ الشوارع من بهجة الأطفال وهم يغردون كالعصافير في الطرقات، ويلحنون الأناشيد الدينية.

وتزان الطرق بالفوانيس القديمة الّتي سنشير لها ، والفرحة الّتي تسكب بهجتها في براحة الحليب الواقعة في وسط القلعة ، حيث هي مُجَمَّعٌ لما ينتجه الفلاحون ، والزرّاعّون ، فيباع فيها عصراً الحليب ، والبيض ، واللوز، وصلوم اللوز، والفواكه ، وكل ما تنتجه هذه الأرض الخيرة ، والرياحين ، والنبق ، فتكون مَجْمَعَ موسم تجارة ، وفرح ، وبهجة ، وفي طرفٍ منها ألعاب شعبية يمارسها بعض الشباب مثل : «الصبة »[1] ، و«الّتيلة » ، و«القرعة »[2] ؛ وتستمر هذه الحياة في هذه البراحة طيلة أيام هذا الشهر الفضيل .

ولا نغفل دور المسحر الذي يطوف على أبواب البيوت ، وهو يدق طبلته ، ويهزج أنغامه ، وحواليه ثلة من الشباب ، فينادي سكان البيت كل واحد باسمه ، وبعد انتهاء الشهر العظيم يمر على البيوت التي طاف على أبوابها سحراً ليقبض أجره .

---

(١) الصبة : هي رسمة ، تخط على الأرض ، بحيث تكون لها خطوط عميقة في الأرض ، وتتألف الرسمة من عدة خطوط ، وتكون لها زوايا أربع ، ويتكون لاعبيها من شفع ، لا يزيد على إثنين ، فيتقابلان ، وينزلان ميدان العمل بحصيات ، كل واحد منهما ، يحمل سبع حصايات ، أو بمثلهم من نوى النخل ، ويبدأ اللعب ، فإذا انتصر أحد اللاعبين ـــ أي ملك على اللاعب الثاني الزوايا الأربع ـ فأينما يخرج حصاته أو النواة من هذه الزاوية الى الأمام ، ينتصر عليه ويأخذ الحصاة منه ، وهكذا كلما أخرجها أو أعادها الى الزاوية ، يأخذ حصاة من المقابل له في اللعب ، ويسمى هذا النصر باللهجة الشعبية : تدخل تاكل ، تطلع تاكل .

أي إن دخلت للزاوية ، فهي تكسب من المقابل له حصاة ، وإن خرجت تأخذ حصاة حتى يهزمه ، ويقفل الشوط بالنصر للغالب .

(٢) القرعة : تتكون من عدة حفر عميقة ، يحفر لها في الأرض ، أو تتألف من هيكل بناء متنقل ؛ وتتكون تلك الحفر من سبع حفر ، في كل جانب ثلاث ، وفي الوسط حفرة رئيسية ، وتلك الحفر تتبعها ،فيتقابل اثنان بحصيات أو بنوى الخوخ ، ويعرف باللهجة الشعبية بـ" العنقيش ". وعندما يبدأ اللعب ، يتبارون بهذه الحصيات بإسقاطها في هذه الحفر ، فمن يكسب أكثر ، يكون النصر له .

والقلعة حاضرة القطيف، تنقسم إلى أربعة أحياء: الزريب، الخان، السدرة، الوارش، فلكل حي مُسحرٌ خاص به.

وما دمنا مررنا بأحياء القلعة، فنشير إلى الآبار المفتوحة، والمباحة لإستعمال عامة الناس.

فالزريب به بئر تسمى: «ركية مغيبوه»، وهي تنقسم إلى قسمين: قسم منها داخل بيت صالح وأخيه سليمان أبناء أبي السعود، والقسم الأخر مباحٌ وخارج منه، له غرفة كبيرة تحيط به يستقي منها الطبقات الفقيرة.

وحي الخان به بئرٌ تسمى: «ركية الخان» محاطة بدكك وسور لتستقي منها الطبقة الفقيرة.

وحي السدرة به بئرٌ تسمي: «ركية الجبلة»، تقع قرب حسينية الزاير ومحاطة بدكك وسور تستقي منه الطبقة الفقيرة.

وحي الوارش به بئرٌ تسمى: «ركية الوارش» مكشوفة ولها دائرة تحيط بها تسمى حوضاً، وبه قناةٌ لتصريف المياه، وتسقى منه الطبقة الفقيرة.

وفي هذه الليالي العظيمة يخصوصبُ الفكر، حيث نقضي السهر بها حتى وقت السحر في ربيع فكر، متنقلين بين عقول المفكرين في آثارهم، فكم من كتاب قرأناه؟!..... فقد قرأت في هذه السهرات مع الأساتذة السيد علي العوامي، ومحمد سعيد المسلم، والأستاذ الشيخ عبدالله، وعبدالواحد الخنيزي، المدائح النبوية، وبعض من أبحاث الموازنة بين الشعراء للدكتور زكي مبارك، وقسم من العبقريات كعبقرية محمد صلى الله عليه وآله، وعبقرية الإمام علي، وشريحة من

ماضي التاريخ ، وما يماثلها من الفكر الجديد ، والقديم ، وبعض التفاسير لكتاب الله المجيد ، ومراجعة معاجم اللغة .

وهناك أسلوب آخر نمى على صعيد الحياة الأدبية ، هي التقفية : وهي امتحان للحافظة ، وللذوق ، ولمعرفة إصابة القوافي في محلاتها ، يأخذ شخص من المجتمعين ديوان شعر لأحد الشعراء ، فيختار قصيدة فيقرأ مَطلَعها ، أو أول بيت منها ليعرف المقفون روي القصيدة ، ويقرأ كل بيت بدون أن يختم آخره ، ويطلب من الجلاس المشتركين في الندوة تقفية البيت ، فكلٌ يجيبُ حسب معرفته وذوقهِ ، فإن أخطأ كل الجلاس نطق القافية من بيده الكتاب للتصحيح ، ولابد أن يصيب واحدٌ منهم ، فإذا أصاب قال نعم ، وصار إلى بيت آخر ، وهكذا دواليك .

وهذه صفحة من الصفحات الأدبية المشرقة ، وهذه الطريقة تستعملها دنيا أدب النجف ، وبعد إقفال العلامة الشيخ عبدالحميد الخنيزي الخطي من النجف إلى وطنه ، فتح في ليالي رمضان المباركة هذا الأسلوب الأدبي .

إن هذه الصورة المتحركة كشريط سينمائي ، إنما ترسم ، وتتحرك بأحرف في أيام مضت وانقضت ، فقد تبدلت الحياة عن هذه الصورة ، وانطوت ، وعادت في أساليب غير الأساليب الّتي رسمناها وصورناها ، ولهذا الهدف النبيل ، سجلنا هذه اللمحة من فصول أيام هذه الحياة .

فنطوي ملف هذه الصور الّتي عشناها في ليالي شهر رمضان ، ونعود إلى الليالي المجردة من أفراح تلك الليالي العظيمة ، ونتحدث فنقول :

أما الليالي الّتي هي غير ليالي شهر رمضان، يقضيه كل منا في بيته بين المطالعة، أو كتابة الشعر.

ومطالعتنا لم تكن على مصباح كهربائي يخطف الأبصار، إنما على مصابيح «كيروسينية»، واستعمالها حسب الحياة الاقتصادية.

فبعض منا يستعمل مصباحه «الفانوس» الذي يتألف من: قاعدة تتكون من صلب معدني ماسكة للزجاجة فينبعث الضوء منها، وغطاء من الأعلى، وحامل يمسك عندما يريد الشخص التنقل به من مكان لآخر، وتسمى - باللهجة القطيفية: «عروايه».

كما يوجد به فتيلة يتولد منها الضوء، والقاعدة المحتوية على غطاء خاص لها، وتحته ثقب يملأ بالكيروسين (الجاز)، وتشعل بالكبريت.

أما من كانت لديه إمكانية اقتصادية أوسع، فمصباحه يختلف عن الفانوس، حيث تكون القاعدة زجاجية، أو من الأنواع النحاسية، تعلوها زجاجة مفتوحة من جهاتها الأربع، وتوضع الفتيلة بتلك القاعدة، وتملأ بالكيروسين (أي الجاز باللهجة العامية)، وهذه تكون أكثر ضوء من الفانوس، حيث ترسل الأضواء من جميع جهاتها الأربع، كما يكتنفها صحن لماع تنعكس عليه الأضواء فيعكس أشعتها، وتسمى - في اللهجة الشعبية القطيفية -: «اللاله» لما يتلألأ منها الضوء.

وهذان المصباحان أصبحا رمزاً أثرياً للزمن الماضي، ويصلحان للمتاحف الأثرية، فمصباحي من نمط «اللاله» الذي أقرأ عليه ليلاً في غرفتي بمنزلي.

وكان يقرأ لي الأستاذ الأخ الشيخ عبدالله، وخططنا لنا وقتاً محدداً نقرأ فيه، فإذا كلَّ فِكرُنا، وجُهدنا من القراءة، أو كلّت معنا ذبالة المصباح بالنعاس لتشير أن الوقودَ قد نضب من القاعدة، فعندها آوي إلى فراشي لألتمس الدفء فيه لأصيغ القصيدة.

وكنت إذا صغتُ قصيدةً، وانهيتُها لا أنساها حتى أكتبها على الورق، ولا أكتبها حتى أقرأها على بعض الزملاء، وفي طليعتهم المرحوم الشاعر عبدالواحد الخنيزي، والأستاذ محمد سعيد المسلم، لأنني وصفت هذه الكوكبة بالنادي السيار المتنقل الذي يشبه رابطة القلم المهجرية المنشأة ببوسطن بالولايات المتحدة، ولم يكن لنا هدف في تقليدها، ولم تحمل ترتيباً يضم رئيساً، وأعضاء، إنما هي نادي سيار جمعها الرابط العلمي، والفكري، والتنافس الذي يُحيي العلم، والأدب في النفوس.

وقد أطلقتُ عليها الآن بعد أن أصبحت في خبر التاريخ البعيد السحيق هذا الاسم، وهذا التحليل، لأصورَ فترة من الحياة الفكرية.

أكتب القصيدة في الليل، فإذا أصبح الصباح، والتقينا عند الدرس، أو بَعْدَهُ، تجول علامات الاستفهام، والتفتيش عما كُتب، هل جاءك الشعر؟ وهل جاءك الوحي؟ أسمعنا - ماذا؟.

فكل منا يُسمع الثاني فيأخذ الشاعر على الشاعر الآخر أهبَتَهُ لئلا يبقى في السفح، بل يريد أن يطيَر للقمة بجناحين، قويين، يعينانه على الطيران.

وكنا في تلك الفترة الزمنية نقرأ الأدبَ المهجري ، ونناقش مضامينهُ ، وقد شاقتنا منه بعض الأفكار في أسلوبه الأدائي الفني ، وأفكارهِ الرومانتيكية ، نهلنا من ينبوعهِ من كتاب بلاغة العرب في القرن العشرين ، وهذا الكتاب يضم كوكبة من الأدب المهجري من شعرائه ، وكتابه ، ومن حملة التجديد الذين بدّلوا وجه الحياة الأدبية إلى حياة جديدة .

فسرنا في ضوء الحياة الفكرية الجديدة ، ورسمنا التجربة الّتي تتفاعل مع كل نفس ، والمعاناة الواقعية .

واستمرت هذه الحركة ، ونشطت حتى استقلت وكان لها طابعٌ ، واتجاه فكري ، وألوان من الصور الشعرية الجديدة ، وكانت كمرآة تعكسُ كلِ ما في النفوسِ من آمالٍ ، وآلام ، فكلما كتب هنا شاعر قصيدة ، كتب الشاعر الآخر في الموضوع نفسه ، لأنه يعيش مع أفكار ولادة تلك القصيدة حتى تكون شابة ، وبالأحرى مكتملة .

وأتذكر قصة عجيبة غريبة تدل على أوج الحب والتنافس في الفكر ومن الصدف أن تقع في زواج ابن أخي - المرحوم الشاعر عبدالواحد بن الشيخ حسن الخنيزي ، كانت بداية التحول في إتجاهاتنا الشعرية - حيثُ تزوج في الليلة السابعة والعشرين من شهر رمضان عام ثلاثة وستين بعد الثلاثمائة والألف هجرية ، وكنا عصراً نتقبل الأفراح في نادي والدنا الإمام الشيخ علي أبي الحسن الخنيزي ،ليقدمَ الجمهور له التهاني ، والتبريكات في زواج حفيده عبدالواحد - وفي هذا العام المشار له نشط الشعر ، وترف خياله ، وحلق بأجنحته إلى أجواء لا يختنق فيها .

فتشاء الصدف، وكم للصدف من غرائب وعجائب، أن تزورني آلهة الشعر، وتُدخلني إلىَ مِحَرابها القُدسي، فتفتح أمامي كتاب الطبيعة لأصوره في لوحة فنية في قصيدة ترسم هذه المناظر.

وكانت القصيدة في اليوم الرابع من الشهر العاشر عام الثلاثة والستين بعد الثلاثمائة والألف هجريه وتدور على وصف أسرار الطبيعة المتلألئة في واحتنا الخضراء القطيف، وجوها الساحري، هو غير الجو المألوف الذي درج عليه شعراؤنا في كتابة الشعر، فهي حوار عاطفي مع البدر، وأسميتها حديث البدر الحائر، وكَتبتُها دون أن أُطَلعَ عليها أحداً من الزملاء كما درجنا على الأسلوب المتبع حتى أكملتُها، وراجعتُها، وهذبتها.

وكانت لنا عادة تربطنا، وتشدنا كحلقة واحدة في الذهاب، والإياب - أنا والشاعران، المسلم، وعبدالواحد - وعندما تنفض جلسة التهاني نصحبُ العروس - عبدالواحد - إلى بيته الذي تزوج فيه، ففاجأتهما مفاجأة غريبة مبهمة: قد قرأتُ البارحة قصيدة إلى أحد شعراء المهجر عثرت عليها في إحدى المجلات.

فكلٌ منهما اشرأبَّ قلبه، وتطاول عُنقهُ لقراءتها، أو استماعها، فبدأتُ أقرأُها عليهما، وكلما قرأُت بيتا صفقا له استحسانا، وإعجاباً به حتى أكملتُها، وأنا أحفظها عن ظهر غيب، وطلبا مني أن يكتباها، أو أكتبها وآتي لهما بها صباحا مع اسم شاعرها.

وتركتُهما تلك الأمسية يَغطان في إعجابهما، ولم أكشف السر لهما، وكلما ألحَّا عليَّ في طلبها، أظهرت لهما تَعللاتٍ عليلة.

وفي أمسية ثالثة، خرجنا على عادتنا المستمرة - فرفيقنا يعيش الأسبوع الأول من زواجه لشهر العسل - وحانت الساعةُ لإزاحة الستار عن سر صاحب هذه القصيدة المخفي، والمغلف بحجاب الأيام الثلاثة بقول متفجر يشبه متفجرات القنابل، وخشيتُ عليهما من هذه القولة فانعطفت في مُنعطفاتٍ لئلا يصيبهما اللهبُ مباشرة، فقلت إنها لشاعر سعودي، فأجابا بحرفٍ مرتبك أكشف لنا هذا الستار بوضوح، فإن هذه القصيدة في صورها، ومعانِيها ومقاطعها لا تكون إلا لشاعر مهجري.

فاقتربتُ، ونطقتُ كلمة السر الرهيبة :هي لي، فكأنها نذرُ صاعقة تنذر بكآبة وحزن ينتشر سواده على أسرار الوجهين، نحن لا نصدق أن تكون هذه القصيدة لك، فأجبتهما : إذا كنتما لا تصدقان فأتياني بها من أي كتاب، أو مجلة، أو انسباها لشاعر من الشعراء.

وبعد هنيهةٍ من الصمت الذي ساد الأجواء اقتنعا بأنني كاتبُ القصيدة، وطلبا مني نسخة منها وعلقا على ذلك: سنكتب قصائد تكون لنا حصونا من أن يخترقها محمد سعيد بشعره.

وقبل أن أختم هذه القصة الّتي تدل على التنافس الفكري الذي كنا نعيش في ذروته، وفي أبعدِ طاقاته، بعيدين عن الحياة المادية بكل ما فيها من ترهاتٍ، وسخافاتٍ، أورد منها مقطعاً لإكمال هذه القصة التاريخية، وهي مطبوعة في الديوان الثالث «شمس بلا أفق»، ثم نتابع بقيةَ ما تبقى من ذيول هذه الذكريات الجميلة، الّتي تنم عن سباق فكري في ميدان الحياة الأدبية:

حديث البدر الحائر ، إلى الذي أغرق في التفكير ..... وأمعن في حل رموز هذه المُبهمات .... إليه .... أرفع حديث البدر .

أيا بدر عمت بهذا الوجود وشاهدت فيهِ فنون الصور

وجزت الفضاء طليق الهوى وان الهوى لجناحُ الفكر

وشاهدتَ منظر هذي الحياة وبانت إليك مغازي البشر

وألقيتَ فوق ضِفاف الغدير شعاعك في موجه كالدرر

فهل تبصر العين سر الحياة وهل يدرك العقل تلك العبر

ويا بدرُ أنت عليم بما تضم محاسن تلك الصور

فكتب الشاعر المسلم قصيدة أسماها « نحن والشعب المتقدم » ، أما الشاعر المرحوم عبدالواحد ، فحاول أن يجاري حديث البدر الحائر عندما يخلو مع عروسه ، ولكنه لم يفلح ، ولم يكتب ، وأخذ يردد .... بديع الصور جميل الصور .... - أي بعض المقاطع من قصيدة البدر الحائر - فكانت تقول له زوجهُ : أراك تردد هذه الجمل : فماذا رأيت في صورتي ؟ .

هكذا نقلها لي الشاعر نفسه ، وأضاف : »إنك نغصت عليَّ زواجي ، ولم أهنأ به ؛ لقصيدتك الّتي بدلت مسارنا الشعري ، وقلبت الحياة الأدبية إلى مسار عميق يصور كتاب الحياة ، وواقِعَهُ » وكان - رحمه الله - من المنصفين يسمي الأشياء بأسمائها ، ولا ينتقص من حقوق الآخرين .

وكان لهذه القصيدة دور آخر ، حيث قرأتُها على المرحوم أحمد محمد علي المصطفى شاعر التجار، وتاجر الشعراء - كما

كنا نسميه في نكتتنا التعبيريه الأدبية الّتي نجريها معه في الجلسات الفكرية ، حيث تكونُ لنا معه في بعض الأيام جلسات شعرية يغلق فيها حانوته ، ويعيش معنا للأدب ، والفكر، وإن كان هو في السن بمنزلة والدنا ، غير أن لديه موهبة ذوقية ، ومقياساً يميزُ به الأدب .

ولهذه المؤهلات علّق على هذه القصيدة بإيجاز وقال فيما معناه : « إنها كعدسة المصور ترسم سا تقع عليه » وأخذ نسخة منها ، وعرضها على أدباء الاحساء ، وفي طليعتهم الشاعر أحمد الراشد المبارك ، فكانت همزة وصلٍ للتعارف بيننا وبينه .

وكانت أول مرة نلتقي معه في بيت الشاعر أحمد المصطفى ، فكانت ندوة أدبية فكرية ، وفي تلك الندوة كان الشاعر أحمد الراشد يعلق على قصيدة « حديث البدر الحائر » ويُقرضُها ، ويثني عليها ؛ وثمة نمت بيننا وبينه علاقات ودية ، والرابط لها هو الفكر الأدبي الذي هو أقوى صلة في الحياة ، فصار يعرض علينا من شعره ، ونعرض عليه .

فالعلاقة الأدبية تخلق في الحياة أصدقاء ، وأخوة قد لا نعرفهم ، ولا نلتقي بهم ، وإنما تلتقي الأرواح سابحة في سماء الفكر الذي لا يحد بحدود .

وكان أحمد بن محمد علي المصطفى شاعر التجار ، وتاجر الشعراء ، المتوفى في يوم التاسع والعشرين من شهر ذي القعدة عام خمسة بعد الأربعمائة والألف هجرية على مهاجرها أفضل الصلاة والسلام يملك مكتبة تحتوي في ذلك الوقت على عيون التاريخ ، والمجلات الحديثة ، ويفتح باب مكتبتهِ إلى الأدباء للقراءة أو من أراد الاستعارة ، ولا يبخل ببعض الهدايا التشجيعية إلى الأدباء .

كما أوجد بعض الشرائح من الكتب لبيعها بدون استغلال في أثمانها ، وترك ثروة من القصائد الشعرية لم تجمع وهي عند أبنائه ، وأخشى عليها من الضياع ....نرجوا من العلي القدير أن يتيح لها من ينقذها من هذا الضياع!

إن هذه ذكرياتٌ ، فما أحلى الذكرى ؟! ، وما أمرها ؟!.

وبعد هذه القصيدة تطورت الحركة الفكرية ، وبالأصح تطورت الحركة الشعرية لأن هذه القصيدة مسارها ، وتأثيرها في الناحية الشعرية في مجال اختصاصها - فكان الشُعراء يكتبون شعراً عن الطبيعة ، وأسرارها ، وعن الحب ، وما فيه من نعيم ، وعذاب .

وأخذت أنا أكتب ما أعانيه من معاناة ، ومن تفاعل نفسي ، وبالأحرى الشعر الذاتي الذي تتأثر النفس مما يمر بها من تجارب ذاتية ، ومن مآسي من ألوان مصائب الحياة ، ومرها ، وأتراحها ، وأفراحها - إن كان هناك فرح - حتى قلت قصيدة تحت عنوان: «الجدب» - مطبوعة في ديوان النغم الجريح ، وهو أول كتاب لي كسر القمقمة ليعيش تحت الضوء ، ويتنفس في أكسجين الهواء الطلق الذي لا حياة بدونه - من ضمن هذه القصيدة مقطع يمثل الرغبة الجامحة والعزيمة ، والطموح الفكري الذي كان في ذلك الوقت يطير للقمة بجناح التنافس ، أسجل منها مقطعاً :

ينطوي اليوم والغدُ	وأنا ميُّ مجهدُ
وسمائي كئيبةٌ	ليس في أُفقِهَا غدُ
وسط دنياً رتيبةٍ	ليس فيها تجددُ

وشباب مضيعٌ وحياة تُبدَدُ

وسط جدبٍ كأنه شبح الموتِ يرعِدُ

* * *

عبر ستٍ طويتُها وكأني بها حجرْ

طيُّ أيامها البعاد كنوز من الفكر

بين ذراتها فنونٌ من الشعر مبتكر

قد مشى الجدب فوقَها كخريف إلى الزهر

لم تذع عطرها ولم تُجلَّ للناس كالدرر

حتى استمريت في قصيدتي ، فسجلت أمنية لا كأمنية التجار بل يراها أصحاب رؤوس الأموال سخافة فيسخرون منها ، ويضحكون فقلت :

كل يوم يمر بي في حياتي ويخطرُ

ليس فيه قصيدةٌ أنا : يا ميُّ أخسرُ

هذه الخسارة المعنوية الّتي لا يتصورها إلا أرباب الروح ، والفكر الذين يعيشون محلقين بروحهم في عالم المعنويات ، ولا ينظرون بمنظار المادة ، كما ينظر لها أرباب الأطماع الذين يعيشون على شاطئ بحرٍ يحاولون إغراق البشر في لجه .

وهذه القصيدة ، لم تكن في عهد التنافس الذي كان في أوجه ، حيثُ إنَّ الحركة الأدبية انفك عقدها المنتظم ، كما نشير لها في الصفحات الآتية ، ولكنها أصداء ، وثمار لتلك البذرة ، والحركة

المباركة، لأنني كتبتها في يوم الخامس عشر من شهر جمادى الآخر عام ثمانين بعد الثلاثمائة والألف هجرية، الموافق يوم الخامس من شهر ديسمبر عام ستين بعد التسعمائة والألف ميلادية، بعدما انفض أكثر زملائي، وتحولوا إلى حياة عملية في هذه الدنيا، واشتغلوا بأعراضها عن جوهرها.

غير أن هذه الحركة، لا تزالُ بين الفينة، والفينة، ترسل أشعتها، ويولد في سمائها نجوم آخرون، فقد أشرق في سمائها كوكبةٌ نشير لبعضها على سبيل المثال لا الحصر: كالشاعر السيد عدنان السيد محمد العوامي، الذي نشر مجموعة من قصائده الشعرية أسماها «شاطئ اليباب».

والشاعر محمد رضي ناصر الشماسي المولود عام سبعة وستين بعد الثلاثمائة والألف هجري كما روى لي ميلاده وقد أصبح أستاذاً للغة العربية في جامعة الملك فهد للبترول والمعادن المعروفة سابقاً بجامعة البترول والمعادن التي تم تأسيسها عام الثلاثة والثمانين بعد الثلاثمائة والألف هجرية، الموافق عام الثلاثة والستين بعد التسعمائة والألف ميلادي -؛ والشاعر سعيد بن الشيخ ميرزا البُريكي.

والأديب الكاتب والصحفي المؤلف: حمزة الحسن، الذي كتب كتاباً عن تاريخ المملكة العربية السعودية.

والمرحوم الشاعر عبد الوهاب بن حسن بن مهدي آل عبد الوهاب المعروف «بالمجمر»، الذي تعرض لكارثة أتت عليه، وعلى جميع أفراد عائلته، حيث في ليلة من ليالي الخريف،

اشتعلت النارُ في بيته، وهم نائمون، فأكلت الأخضر، والبشر وحَرفهُ، وذلك في ليلة السابع من صفر عام ستة بعد الأربعمائة والألف هجرية، الموافق لليوم الثاني والعشرين من أكتوبر عام خمسة وثمانين بعد التسعمائة والألف ميلادية.

وكنت أداعبه في حياته، وأطلب منه نشر ما تكوّن لديه من مجموعة شعرية يعدُها مكتملة التنسيق في نسخة مبيضة تصلحُ للنشر، فَيرد عليَّ بجواب يقصد منه النكتة، وعلى شفته ابتسامةً: لقد سودتُها.

وما أصدق هذه الجملة، فقد سودتها النار، وأكلتها هي والشاعر، الذي كان يحمل على ذراعيه طفله ليقيه من أشداق النار، ولكن النار لا ترحم، فأكلته مع عائلتهِ، ولم يخرج منهم حتى طفل من هذه العائلة - والأمر كله لله.

فقام صديقه السيد عدنان العوامي بجهد - يشكر عليه - فلملم الحروف المحترقة، والمتبعثرة عند بعض الأصدقاء، فجمعها في مجموعة أسماها «بقايا الرماد»، وكتب لها الشاعر محمد الشماسي مقدمة، وطبعها السيد إبراهيم السيد أحمد المشقاب - صاحب مكتبة الساحل - على حسابه الخاص.

وبدورنا، نشكر هذه الأريحية بجهود الإخوان جميعاً، ونتمنى أن يسير أبناء الوطن على هذه الدروب الوطنية الكريمة، الّتي تحتضن آثارها وتبني مجدها بأيديها.

ولا أنسى أطياف منظر يوم الكارثة الرهيب، الّتي أودت بالشاعر واسرته؛ لما اكتنفتها من أشباح، انتشرت في دربي عند

خروجي صباحاً من بيتي الواقع بحي البستان الذي لا يبتعد عن بيته إلا بضعة أمتار، ولم يَنْمُ إلى علمي نبأ هذا الحادث، وما خطوت خطوات، حتى رأيت الشارع مكتظاً برجال المطافئ، ومعدات الإطفاء، وقد حول مسار السير إلى منعطف آخر.

فكان في نفسي تساؤل، واستفهامات فضولية، لإزاحة هذا لستار: عمن وقع أشلاءً في هذه الكارثة؟!... لكن فضولي التساؤلي لبعض المارة، أعطى «لا» السلبية، فخطوت لأدنو من رجال المطافئ برغم بعض العوائق لأكرر تساؤلي الفضولي لرفع الستار.

فكانت الإجابة على شعوري تشبه الحروف الملتهبة الّتي أكلت حروف الشاعر عبد الوهاب، وعائلته، وكل ما يحويه بيته في هزيع الليل، اشتعلت النار فيهم، ولم ينجُ من هذا البيت إلا أخوه، فحولقتُ، واسترجعت كلمات يرجع إليها المصاب، وهي من الوصفات الناجعة الّتي تخفف أهوال الكوارث، إذا لم تمحها.

ولكن الذهول الذي استولى على إحساسي لم أشعر إلا وأنا في المحكمة الشرعية الكبرى بدون قصد؛ لأنها مقر عمل الشاعر، وقد طار لها الخبرُ منذ ساعات، وقد تفاعل هذا الحادث الأليم مع نفسي تفاعلا روحياً، فولّد قصيدة عاطفية مأساوية نذكر منه مقطعاً، وهي مثبتةٌ في ديوان «كانوا على الدرب»:

وقف الصمت خاشع القلب والطرفِ	هول أطل في الحالكات
فتهاوى مصابه فوق أشلاء ضحايا	في موقد الحجرات
أسرة قد ذوت بحادث ليل	وتلاشت لعالم الذكريات

وبهـــا شـــاعر يلحـــن للدنيـــا لحـــون الربيـــع في الربـــوات

رسـم الحـب والليـالي والأحـلام طـــافت بعـــالم الجنـــات

ونعود لهذه الكوكبة التي لديها أزهار من الشعر أعدتها ، في دواوين شعرية ، نتمنى نشرها فتتنسم الهواء ، وتعيش تحت ضوء الشمس.

ومن هذه الكوكبة اللامعة الشاعر عباس مهدي الخزام ، الـذي له دواوين شعر ، وشعره رومانسي طبع له ديواناً «أشواك وورود » .

والأستاذ الكاتب المبـدع ، عبـد العلـي يوسـف آل سـيف ، الذي أسهم في هذه الحركة الأدبية ، وأرخهـا في كتـابين ، أحدهمـا عن حياة الشاعر طرفـة العبـدي ، والثـاني عـن الحركـة الأدبيـة في القطيف ، وأسماه «القطيف وأضواء على شعرها المعاصر » ، بذل فيها جهداً مشكوراً ، كما طبع له كتاباً وهو باكورة حياتـه الأدبيـة أسماه «المجتمع ، وجهاز الحكم في الإسلام » ، بمطبعـة النعمـان - النجف الأشرف طبع عام ١٣٨٨هجرية ، ١٩٦٩ ميلادية ، منشورات دار التربية بغداد شارع المتنبي - أداره على البحث في جهاز الحكم للإمام علي سلام الله عليه .

والشـاعر محمـد علـي حسـن النـاصر الـذي أسـهم وكتـب ، وأستمد من أضواء هذه الحركة المباركة ، وله دواوين شعر ، وكتب نثرية ، وطبع من مؤلفاته كتاباً أسماه «الله الخالقُ القدير » .

والشاعر السيد حسن أبو الرحى ، الذي كان له دور في الكتابة عن الحركة الأدبيـة في القطيـف ، حيـث كتـب بحثـاً دراسـيًّا ، عـن «النغم الجريح » ، نشـره في مجلـة «المنهـل » ، مضافـاً إلـى ثروتـه

الشعرية. والشاعر محمد علي توفيق، لديه ديوان من الشعر الرومنتيكي نتمنى طبعه.

والكاتب السيد محمد الشرفاء، الذي طبع له من إنتاجه الفكري كتابين، احدهما في مجلدين وأسماهما: «المنطقة الشرقية حضارة، وتاريخ»، و «الحياة الاقتصادية في المنطقة الشرقية»، والثاني «شخصية المنطقة الشرقية».

والأستاذ / محمد رضا نصر الله، الذي كان له دورٌ في صحافتنا، وفي تحليل بعض الوقائع الاجتماعية.

والشاعر أحمد محمد علي المصطفى، الذي أشرنا له سابقا، شاعر التجار، وتاجر الشعراء، وهو أحد الرواد، وكان موقعه في الكوكبة السابقة ولكننا لم نأخذ بالموازين الزمنية في هذا الكتاب.

والأستاذ عبدالله بن حسن عبدالمحسن، الذي قام بعملٍ أدبي أرخ فيه حياة شعراء القطيف، وأسماه «شعراء القطيف المعاصرون»، وقد طبع الجزء الأول منه عام الرابع عشر بعد الأربعمائة، والألف هجرية - ويشكر على هذا الجهد.

والأستاذ الشاعر عبدالله الشيخ جعفر - المولود عام ١٣٥٨هـ، ١٩٣٩م، وهذا التاريخ أخذته من فمهِ - فإنه شاعر رقيق، رومانسي، مشرق الديباجة، لديه باقات من الشعر نأمل منه نشرها، والأستاذ الشيخ حسن الصفار الذي أسهم في الحياة الأدبية، وطبع له عدة مؤلفات، وهو خطيبٌ مصقعٌ له إسلوب يتميز في خطابته، والأستاذان الشيخ زكي الميلاد ومحمد محفوظ رئيس ومدير تحرير مجلة الكلمة.

والأديب الصحفي فؤاد نصر الله، والشاعران المبدعان عبدالكريم زرع، وشفيق العباد، وذاكر حبيل، وحبيب محمود، فإن لديه مجموعة شعرية، أسماها «أنفاس محترقة»، لا تزال مخطوطة.

والأديب الكاتب عقيل ناجي المسكين، والأديب الكاتب سعود عبدالكريم الفرج، والشاعر سعيد محمد العصفور المولود عام ١٣٧٦هـ بقرية التوبي الذي كتب ونشر ديواناً أسماه: «هدير الصمت»، ولكن صمت هديره حيث وافته المنية في شهر جمادى الأول من عام ألف وأربعمائة وسبعة عشر هجري في مستشفى أرامكوا وهو في ربيع العمر.

وإنما ذكرت هذه الأسماء على سبيل المثال لا على سبيل الحصر، ولم تكن هذه الخيوط موضعا للكتابة عنهم، وإنما مررنا بهم، وذكرنا أسماءهم، لارتباطهم بهذه الحركة الفكرية الّتي خلقت حياة فكرية، تخلد بلادنا على صفحات التاريخ، وتجعلها في ميزان الحركات الفكرية الخالدة.

وبرغم العوامل التاريخية، وأقلام الأدباء التي مرت بهذه الربوع، إلا أنها - للأسف - لم تُعنَ بحياة القطيف الفكرية منذ العصر القديم، فقد ضاعت حلقاتُها في التاريخ الغابر الذي ابتلعته السنون.

فالباحث لا يكاد عندما يريد أن يكتب عن القطيف، أن يعثر إلا على إلمامة الجزع مبعثرة في بطون التاريخ، فهو كباحثٍ عن أطلالٍ دوارس أو كشيخ يبكي شبابه المعسول، ولعلي أعزي هذه الظاهرة للإهمال من أبناء الوطن، أو لعقدة نفسية متأصلة في

لنفوس ، حيث الحسد ، فكل منا لا يريد الثاني أن يظهر في هذه الحياة كمفكر لامع .

وهذه الظاهرة ليست حادثة ، إنما هي قديمة متأصلة ذات جذور لها استمراريةٌ ، وطابعٌ على صفحات تاريخنا الحاضر ، فإننا نشاهد بعض كتابنا الصحفيين كمحمد رضا نصر الله ، وأمثاله يُهَمِشُون رجال الفكر من أهل القطيف ، ويحفلون بأدباء العراق ، أو المغرب ، أو البحرين - المعروفة اليوم ، وأوال أمس - ، كأنها لم تكن من امجاده ، ولم يلون حرفاً من هذه الحروف حتى في من يفخر به شخصياً كالشاعر أحمد مهدي نصر الله ، وهذه حقيقةٌ واقعية نسجلها للتاريخ ، فبهذه الظاهرة ضاع هذا التاريخ سواء كان علمياً ، أو أدبياً ، أو اجتماعياً ، أو سياسياً .

فكل هذه الجوانب أصبحت في العدم السحيق ، إلا ما شذّ ، وندر من هذه الحلقات الّتي حالفها الحظ ، وكُتِبَ لها البقاء ، فأنت لا تكاد أن تعثر في بطون التاريخ - وأنت تبحث عن تاريخ هذا البلد العريق ، حتى تكدّ جهداً ، وتعباً - إلا على إلمامةٍ بسيطة أكثرها ظلال باهتة من أقلامٍ بعيدة عن هذه الربوع ، نستثني منها بعض الأفكار الجديدة التي قامت في عصرنا بعناية ودرس تاريخ هذه البلاد ، ووضعت دراسات ، واطروحات في كتب خاصه ، وهى لا تتجاوز أصابع اليدين ، نذكر منها الأستاذ عبدالعلي آل سيف ، والشاعر محمد سعيد المسلم ، وعبدالله آل عبدالمحسن ، والأديب سعود عبدالكريم الفرج ، وغيرهم من الأدباء اللذين عنوا بالتراث السعودي كالدكتور عمر الساسي ، والدكتور عبدالله المبارك ، وهؤلاء على ندرة وقلة .

لذلك حاولت أن أسجل هذه الخيوط من حياتي ، ومن خطوط هذه الحركة الفكرية الجديدة ، ومما بقي في دفتر الذكريات لأنفضَ عنه غبار التاريخ ، وأسجل منه ماجدّ من الذاكرة ، طافيا أو ما كان راسبا في قرارة الذاكرة ، أو غافيا على جفون الحياة ، وفي دفاتر الذكريات الّتي فاتني أن أتحدث عنها في دور الطفولة عندما كنت طفلاً ، وبعدها عندما كنت يافعاً ، أشياء طريفة سأضيفها إلى هذا الفصل ، لكي تكمل الحلقات في هذا الكتاب .

ففي دور الطفولة ، كان لي خال - شقيق لأم والدتي - يسمى : علي عبد الوهاب الغانم - وقد مررنا على ذكره في الصفحات الماضية - وكلما رزقه الله أبناء يموتون ، وهم براعمُ لم يفتح أجفانهم ضوء الفجر ، وكان يعيش بحسرات مريرة .

وعندما جئتُ لهذه الحياة تبناني ، فدللني ، وأحنى عليَّ بألوان الحنان ، فكنت لا أطلب منه شيئا ويستطيعه إلا لباه ، وأحضره ، فجمع لي أنواعاً من اللّعب ، ودمىً تسرّ الأطفال ، وتفرحهم ، وتخلب عقولهم ، وتسمر أبصارهم في تلك اللعب ، لا سيما في ذلك العصر الذي يعجز المرء فيه أن يقيتَ نفسهُ ، فضلاً عن عياله .

ولكن شاءت الظروف أن تتدخل ، فأتلف هذه الدمى في طرفة عين ، فهيأ لي رفيق يكبرني في السن يسمى : علي المسلم ، فأدخل في روعي ، وحسّن لي ، وزين بقوله : « دعنا نبيع هذه اللعب ، لنستفيد من ثمنِها ، وثمُنها خيرٌ منها » ، فاستجبت لرغبته ، وجلسنا بها على قارعة الطريق عند باب بيت خالي علي ، حتى بعناها على الأطفال ، وعندما نمى العلم لخالي ، لم يغضب ، ولم يتأثر بل

ضحك، وجاءني في صورة معلم مرشد لحياتي المستقبلية، وخطط لي كيف يعيش الطفل في مراحله.

ولما بلغت سن العاشرة، كنت أحب القصص، وذكر العفاريت، والجن، والمغامرات الّتي يقوم بها أبطال القصص الخيالية، والأساطير الّتي ترويها العجائز.

فكانت عجوزٌ جارة لنا أسمها خديجة بنت محمد النهاش ولها صداقة وتعلق بالوالدةِ تُكنّى: أمُ أحمد السنان - تغمدها الله برحمته الواسعة - تشرب «النارجيلة»، وباللهجة الشعبية «القدو»، وتحب القهوة العربية.

فكنا في كل ليلة نذهب لها مع أخي الشيخ عبدالله، ونأتي بها، ونأمر الخادم أن تَعُدّ لها القهوة، والنارجيلة مع موقد النار.

وموقد النار مصنوع من «تنك» مطلي من خارجه، ومبني بالإسمنت من داخله، وفي وسطه حفرة يوضَعُ فيها الفحم الخشبي، ويشعل فيه النار حتى يصير جمرا مُتَقِداً، فيوضع ابريق القهوة الذي يعرف في لهجتنا «الدله» على حافة الموقد الذي به الجمر.

فندور حوله كالحلقة المتواصلة، وهي تَعبُّ من قهوتها، وأرجيلتها، وكلنا آذان صاغية، حتى تبدأ تقص أساطيرها، وقصصها الخيالية بمغامرات، وأساطيرا الجن، والعفاريت، والذئاب، والسباع وأهواله.

وكان لها الوقع الشيق في نفوسنا، وأحيانا تخيفُنا، فننكمش كما ينكمش الظلُ، ونلصق أنفسنا بالأرض، والجدار، وأحيانا تثير فينا الضحك فيمتلأ البيت بقهقهتنا الصاعدة.

وعندما تنقضي سهرة مغامرات الخيال نطلب منها ، ونشير عليها بعدم خروجها من البيت خشية العفاريت الّتي تبتلع البشر، كما رسمتهم أشباحاً مخيفة في قِصصها ، فنتصورها أشباحاً مُرعبة كأنها تنتصبُ وتنتشرُ في دروبِنا ، فنخشى مرافقتها إلى بيتها بعد انقضاء السهرة ، فنُشيرُ عليها ، ونقنعها بعدم الخروج من البيت فتنام مع بعض من العائلة في الغرفة معهنَّ حتى الصباح .

ويحلو لنا أن نروي قصة من ذكريات قصصها ، ولا نلتزم بلفظها فنصيغ معانيها في أسلوب يواكب هذا الكتاب ، إنها من القصص الّتي تصلح أن يُؤَلَّفَ من مشاهدها قصة شعرية :

كان في سالف الزمان ، بطل من أبطال المغامرات ، وفي إحدى سفراته زودته أمه بوصايا وقالت له : إن طبقت هذه الوصايا فسوف تجتاز هذه الرحلة بسلام وإلا فمصيرك الهلاك.

وعند إعدادها الزاد إلى رحلته الطويلة بدأت تزوده بهذه النصائح فقالت إنني أعددت لك زاداً منه طعام لك وشراب ، وأكلاً لراحلتكَ مع شراب لها .

وأردفت تقول: أيها الولد العزيز ستسير في هذه الصحاري الخالية الّتي لا كلأ بها ، ولا طعام ولا ماء ، ولا أنيس إلا الله ، وأنت تشق هذه الرمال الملتهبة تحت ضوء الشمس ، وفي أجواء عارمة بالحرارة ، وسيتلون لك أشباح الجن ، وينسابون لكَ في صورٍ من الأطعمة الطازجة ، ومن الأنهار العذبة المتدفقة ، ومن الكلأ المخضوضر .

فإذِا رأيتهم تلونوا بطعام طازج أمام عينيك فلا تُلقِ الطعام الذي في رحلكَ ولو أوشك على التلف ، فإنك إن ألقيته لا تراه ولا

ترى الطعام الذي تصور لك، وإذا رأيت الماء يجري في نهرٍ متدفق لا تهرق الماء الذي في رحلك، لتأخذ الماء الجاري من النهر المتدفق، فسوف يضيع منك الإثنان، وإذا رأيت نبتاً مخضوضراً، فلا تلقِ ما في رحلك من برسيم «قت» - وهو قوت الدابة - لتأخذ بدله طرياً.

ولكن الفتى لم يعمل بوصايا أمه العجوز المُجربة، وسخر منها، فصار في هذه الصحراء الموحشة، وعندما رقصت أمام عينيه الظلال، والأشباح الخادعة فصورت له الطعام الطري أمام عينيه، ألقى بطعامه ليملأ وعاءه من ذلك الطعام بدل الطعام القديم، إلا أنَّهُ لم يَرَ لا هذا، ولا ذاك، ولم يتعظ على إحساس مرأى من رؤية التجربة.

وعندما أبصر الماء يتدفق كالنهر السلسال، قال لنفسه إنه ماء عذبٌ لن ينضبَ ويغور كما ضاع مني الطعامُ، فأهرق ماءَهُ ليملأ سِقاءَهُ ماءً، ولكنه ضاع منه الجميع.

وهكذا استمر هذا الفتى الغرير المخدوع في عدم تنفيذ وصايا أمه العجوز، حتى أصبح منقطعاً حائراً في هذه الصحراء لا يستطيع أن يلج أو ينفذ منها، أو يفلت من قبضةِ هذا المأزق.

وتفسر هذه الأشباح في قصتها بأن هؤلاء الذين تلونوا أمام عينه بهذه الصور هم أشباح من الجن والعفاريت، فيبتلعون طعامه، ويتركونه وحيداً، فأما أن تمر عليه قافلة فتنقذه، وإلا يكون ضحية رخيصة تضيع مع أشباح الصحراء.

وهذه القصة الأسطورية، كأنها من أساطير الإغريق وفيها عبرةٌ وتجربةٌ، ليأخذ منها الشبابُ درساً عملياً، وتدبراً في عواقب الأمور.

هذا ما نعرضه من صورٍ لمسرح الطفولة، كان الطفل يستهويه الدمى، وحين يكون في العاشرة تستهويه الأساطير الخيالية.

إن هذه الخطوط يمر بها أكثر البشر حينما يمرون بدور الطفولة المرحة، ويجتازونها إلى دور الشباب، فعالم الطفولة هو عالم الطهارة، وقد استهوتني الألعاب الشعبية الّتي يلهو بها الشباب كلعبة: «الّتيلة»، ولعبة «الخطة»، ولعبة «الطنقور».

ولعبة «الهول»: الّتي تتألف من فرقتين، تنقسم إلى قسمين، تجعل لكل منهما هدفاً معيناً، وكل فرقة تمنع الفرقة الأخرى أن تصل إلى هدفها، فإذا تغلبت إحداهما على الأخرى، معناه فازت بالنصر، وأخذت «هول».

وكلمة هول، كلمه شعبية تسمى بها اللعبة، وهي تشبه لعبة الكرة في لعبتها، وإن افترقتا في بعضِ الملامح حيث لا توجد كرة في لعبة الهول.

ولعل لعبة الكرة وِلدت من لعبة الهول، اللعبة الشعبية، فأضفى على لعبة الكرة الفن العصري تهذيباً، وتحسيناً، والطابع الدولي الذي رعى لعبة الكرة، ورفع من قيمتها، وإن كانت لعبة الكرة لها الدور والشوط في التاريخ العربي القديم فقد وصف الشاعر أبو نواس هذه اللعبة في عصر الحكم العباسي بأرجوزة نذكرُ منها مقطعاً، غير أن اللعبة لم تكن على مستوى هذا التطور والفن:

قد أَشهدُ اللهو بفتيانٍ غُرَرَ ... من ولدِ العبَّاس ساداتِ البشر

ومن بني قحطانَ والحيّ مُضر ... من كُلِّ مألوفِ كَريمِ المعتصر

زَيَّنَ حُسنَ وجهه طيبُ الخبر ... على جيادٍ كتماثيل الصُّور
من كُلِّ طِرفٍ أعوجيٍّ قد ضمر ... لم يكوه البيطارُ من داء الحمر
جنٌّ على جنٍّ وإن كانوا بشر ... كأنما خيطوا عليها بالإبر

ويمضي أبو نواس في أبياته الرجزية فيصفُ ملاعب الكرة :

فلم يعب طُولُ ولا شان قصر ... وقد تنادوا فتراموا بالأُكر
مدمجة الأركان مدماة الطرر ... شدَّد صفقي متنها حشوُ الشعر
أحكمها صانِعُها لما فطر ... ألطف بالإشفاء خرزاً إذ دسرْ

ليس من القصد أن أضيف إلى الحياة الفكرية هذه اللمحة ، الّتي جنحنا إلى سماء خيال الأساطير وعدنا منها إلى الحياة الواقعية ، ولعلها تكون مرتكزاً ، أو نقطة تتصل بالحياة الأدبية الفكرية ، وأعم فائدة ، وحظاً للحياة التاريخية الشعبية .

وقبل أن نغلق ملف الحياة الأدبية ، هناك صفحات منها بعيدة الأصداء واسعة الآفاق ، والأرجاء ، نريد أن نتحدث عنها ، ونصورها لكونها أول حركة أدبية بدأت بهذا الزخم ، وهذا التطور ، حيثُ إنَّ الأدباء القدماء لم يخرجوا عن دائرة محيطهم ، ما عدا الشاعر الشيخ جعفر الخطي ، الذي تمرد على هذه الحياة ، فسار كالنجم في آفاق الفكر ، وبَقِيَ يعيش في الحياة الفكرية الأدبية ، أما البقية فتقوقعوا ، وانكمشوا في أوطانهم .

أما الحركة الفكرية الجديدة الّتي تحدثنا عن روادها في هذه الصفحات ، وتحدثنا عن منشأ هذه الحركة ، فلم تخضع هذه الحركة

إلـى محيـط خـاص ، بـل كسـرت القمقـم ، ولم تعـرف التقوقـع ، والانكماش على نفسها ، فانطلقت كالعاصف المـارد ، أو كـأضواء الشمس تسير على هذا الكوكب ، فَطَوفت في آفاق أمهات الصحف العربية ، كمجلة الكتـاب المصريـة ، للأسـتاذ/ عـادل الغضبـان ، والصحف اللبنانية ، كالعرفان ، والأديـب ، والنهـج ، والألـواح ، والمعـارف ، والصحـف العراقيـة ، كصحيفـة الهـاتف ، والغـري ، والخليجيـة ، كـالرائد ، وصـوت البحريـن ، والصحــف المحليـة الداخلية.

وأخذت هذه الكوكبة المباركة تنشر ما تنتجه من آثـار فكريـة على قلب صفحات هذه الصحـف ، وهـذه الصحـف ترحـب بهـذا الإنتاج العميق ، وتشير له.

وأثارت هذه الروعة مشاعر الأستاذ محمود نعـره ، حتـى كتـب على صفحات العرفان يتساءل عن الثقافة الفكرية ، وقال ما معنـاه وهو يبحثُ عن كنه الثقافة ويستفهمُ عنهـا : أهـي في مصـر؟!.... أم لبنان ؟!..... أم في العراق ؟! ، أم القطيف ؟!.

وهذه إشادة بالثقافة القطيفية الّتي كانت في ذلك الوقت تزخـر بما تنتجه من آثار أدبية ، تبهر بأشعتها الآراء ، والأفكار.

ولا ننسى الحدث الأدبي المفاجئ ، وهو زيارة الوفد المصـري مـن جامعة فؤاد ، المكون من : كليات جامعة القاهرة - الّتي تسـمى اليـوم - ، والممثل في : الأستاذ أمـين الخولـي ، والدكتـورة بنـت الشـاطئ ، الأستاذ الدكتور محمـد عبدالسلام العبـادي ، الأسـتاذ عبدالسـلام مدرس بكلية الحقوق ، الأستاذ كمال الدين الهاشمي ماجستير بكليـة

التجارة، الأستاذ عبدالحميد البارودي - بكالوريوس كلية الزراعة، الأستاذ محمد صبحي عبدالرحمن - إداري بكلية الطب - كما يصحب هؤلاء الأساتذة ثلة من طلابهم.

وقد تمت هذه الزيارة لمدينة القطيف يوم الخميس الثاني من الشهر الخامس عام سبعين بعد الثلاثمائة والألف هجرية، الموافق الثامن من شهر فبراير عام الواحد والخمسين بعد التسعمائة والألف ميلادي، في قصر الإمارة.

ولم يكن الترحيب على صعيد الفكر وجانب من الثقافة، فألقى الأستاذ أمين الخولي حرفه: هل البلاغة في الصمت ؟!.

فدعوناه لزورةٍ أخرى ليعرف هل البلاغة في الصمت، أم الصمت في البلاغة، وكتبت مقالاً - تعقيبياً بعنوان «هل البلاغة في الصمت؟! » .... يوضح صورة هذه الزيارة الأدبية.

فعقدنا له سمراً أدبياً بتاريخ الرابع من جمادى الأولى عام سبعين بعد الثلاثمائة والألف هجرية، الموافق العاشر من شهر فبراير عام الواحد وخمسين بعد التسعمائة والألف ميلادي أقامه أحد زعماء القطيف، الأستاذ عبدالله بن علي إخوان، في إحدى بساتينه المسمى: نخل «السيحة» - الواقع بقرب سوق القطيف شمال قرية الدبابية - وتعاقب في هذا الحفل الشعراء وكان لقاءاً فكرياً، وأمسيةً أدبيةً حافلةً بما تحوي الكلمةُ من معنىً رفيع.

فكان للأدب القطيفي، ومساره الفكري، والعلمي في نفوس هؤلاء المفكرين، إعِجاب، حينما التقت بهم تلك النخبة من كوكبة الفكرا لقطيفيين.

ومن المشتركين، كاتب هذه الخيوط، والأستاذ /محمد سعيد الجشي، والأستاذ/ عبدالله الشيخ علي الجشي، الذي وصف في قصيدته تاريخ هذه الربوع في أداء فني رائع، وعلي بن حسن أبو السعود، الذي قدم للدكتورة بنت الشاطئ أربعة عشر لؤلؤة من لآلئ الخليج في علبة من الصدف مطعمة بالفضة هدية.

وبعد انفضاض الحفل، وقبل أن يغادر الوفد، أبدوا إعجاباً بما رأوه من آثار، انعكست على مرآة مشاعرهم في تنظيم الحفل الرائع، والآثار القيمة الّتي أُلقيت فيه، فكان لها الأثر العميق، وغسلت ما ردده الأستاذ أمين الخولي في زورتهِ المفاجئة الأولى بقصر الإمارة بالقطيف ولم نعرف عن مجيئهم حتى نستعد، ونستقبلهم كمفكرين.

وقد ناقشتهُ في مقال حول كلمتهِ الّتي ألقاها في الزورة الأولى، غير أنه استبعد من الحفل وقدمته مناولةً، ولم أحتفظ - للأسف - بصورة منه، وقد أشارت الدكتورة إلى بعض فقراتهِ في مقالها المنشور في مجلة الكتاب، والمعاد في أرض المعجزات.

وبعد رؤيتهم لعقول تتجسد في آثار رائعة، أبدى الأستاذ أمين الخولي كل الإعجاب، وأضافت زوجه الدكتورة بنت الشاطئ - بعد المناقشات الّتي دارت بيننا وبينها كندوة أدبية في الزورةِ الثانية -: إن هذه النخبة القطيفية، تعرف عن مصر مالا يعرفه الخاصة - الخاصة في مصر - ولها إنتاج فكري في الذروة، غير أنَّهُ مغمورٌ.

وعند خروجها قالت: سنلتقي على صفحات مجلة الكتاب المصرية، وكتبت مقالاً فيها عن الثقافة القطيفية، تحت عنوان

« أصداء من بعيد » ، كله ثناء ، وإعجاب ، وتحليل لهذا الكنز المغمور ، والجوهر، وتمنت لو تقلبه كف منتقد.

وعادت الدكتورة فنشرت المقال نفسه ، وفيه بعض التطور البسيط في كتاب أسمته « أرض المعجزات » المطبوع عام ١٩٦٩ بمطابع دار المعارف بمصر ، ومن أراد أن يعرف حقيقة ما قالته فليرجع إلى كتاب الدكتورة.

هذه لمحة مقتضبة عن الحركة الفكرية القطيفية ، حين كانت تزخر بنشاطها الأدبي ، وبحياتها العلمية الفكرية منذ أعوام الستينيات بعد الثلاثمائة والألف ، حتى عام تسعين بعد الثلاثمائة والألف ، فكانت تلمع كالبدر في سماء المملكة ، وليس القطيف ، فقد شقت طريقها وسارت تعيش في آفاق أفكارٍ بعيدة ، ويا ليتها استمرت في هذا النشاط !.... وبقيت تزاحم ، وتطير في الآفاق ، ولم تنكمش كما ينكمش الظل على نفسه ، فإنها أول رائد فتح أبواب الحياة إلى آفاق الصحف ، فلماذا عادت هذه الحركة تقصر نفسها ، وتتقوقع في محيطِها ؟!.

وقد سجلنا ما قاله فيها رجال الفكر العربي ، كالعملاقة بنت الشاطئ ، وغيرها ، فأتمنى من أعماق قلبي - والأماني لا تجدي - أن تعود هذه الحركة الفكرية القطيفية إلى حياتها الأولى عندما انطلقت تلف الآفاق ، وتستقر على صفحات الصحف الكبرى.

ولابد من إعطاء لمحة موجزة عن الأستاذ عبدالله بن علي إخوان - المولود عام واحد وعشرين بعد الثلاثمائة والألف هجرية ، والمتوفي في التاسع عشر من شهر محرم عام تسعين بعد الثلاثمائة والألف هجرية

الذي ذكرنا أسمه مرات في هذا الكتاب فهو أول أديب مارس كتابة المقال على طريقة الأسلوب الحديث، واشترك في الصحف الخارجية، ونشر مقالاته تحت أسم مستعار باسم «ابن الخليج»، و«ابن الساحل»، ولم أعثر له على مجموعة من مقالاته.

وكان بعض الشباب يرشحونه لزعامتهم كما هو يرشح نفسه حتى خاطبه الشاعر محمد سعيد الجشي بهذا البيت:

يا زعيم الشباب إنا شبابٌ   لا نطيق الحياة بالأحقادِ

والأستاذ عبدالله إخوان له تاريخ قديم في الزعامة من أبيه، ولكن طريقه تخالف طريق أبيه حيث إنَّهُ أديب يحفظ الشعر، والتاريخ، ويقرأ الكتب ويتعمق فيها، ولاسيما الكتب العَقَدِية.

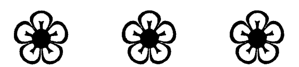
فهو شخصية من الشخصيات الوطنية القطيفية، كان له في كل مساء في بيته نادٍ مفتوح، يلتقي فيه ثلة من الأدباء على مر فصول السنة، وتحت ظل سمائه النقيت بالأستاذ الأديب، والمؤرخ حمد الجاسر عدة مرات مع الشاعر خالد الفرج لكونهِ أحد رواد هذا النادي، كما يرتاده أحياناً بعض العلماء، والمفكرين كالعلامة الشيخ عبدالحميد الخنيزي وغيرهم.

وعبدالله اخوان أول من فتح في القطيف طريق الاحتفالات الدينية على الطريقة العصرية الجديدة، وأول حفلٍ افتتحه في يوم عشرين من صفر عام خمسة وستين بعد الثلاثمائة والألف هجرية على مهاجرها أفضل الصلاة والسلام بمناسبة المصاب الدامي ذكرى أربعين مقتل سيد الشهداء الإمام أبي عبدالله الحسين، بحيث يقف كل خطيب أمام المنصة ويلقي إنتاجه.

وعبدالله إخوان مع ما يتحلى به، كان حلو الهندام، ولعله أول حاملٍ من أهالي القطيف لجهاز التصوير الشمسي، فصور بعض الزعماء الدينيين، والشخصيات، والمناظر الطبيعية، ولكن هذه الصور الأثرية، ومقالاته ضاعت عند أبنائهِ، كما ضاع تاريخُهُ، ومن أحلامهِ تخطيط مدينة تشاد على ضفاف بحر القطيف في جهاتها الشمالية، وقد تجسدت هذه الأحلام وأصبحت واقعية، غير أنه لم يَرها رأي العين.

كما نحب أن نُعطي صورةً عن هذا البستان الذي صار ذكرى لحدثٍ أدبيٍ من أضخم الأحداث الأدبية العصرية الجديدة الذي أُقيم فيه الحفل تكريما لوفد الجامعة المصرية، فقد تحول هذا البستان إلى قصور بعد وفاة مالكه عبدالله اخوان، ونأسف بصفته أول أديبٍ نشر من أهل القطيف في بعض الصحف العربية، بأن لا نرى له آثاراً مهما كان وزنُها الفكري.

وهذه المعالم التاريخية ذكرى عزيزة للأجيال.





الحياة الزوجية

إن الزواج هو رباط مقدس، واتصال معنوي فيه امتزاج روحي، ولا أدقَ، ولا أبلغَ من تعبير كتاب الله حين قال:

بسم الله الرحمن الرحيم

« أنتم لباسٌ لهن وهنَ لباسٌ لكم »

صدق الله العظيم

الحياة الزوجية، فطرة بشرية أودعها الله في الإنسان الكائن الحي، لا فرق بين الذكر، والأنثى، لامتداد البشرية حتى لا تنقرض من رقعة هذا الكوكب بما فيها من حياة متكاملة، لأن الرجل يُكمِّلُ المرأة، والمرأة تكمل الرجل، فلا حياة كاملة بدون ارتباط زوجي بما فيه من إطفاء للشهوة، وإبعاد كل من الرجل والمرأة عن الشرور، والآثام.

قد يتعرض الفرد من هذه البشرية - إن لم يتزوج - للشرور، فيقع في بؤرة الآثام، ولكن الله يعصمه بالزواج، ويبعده من أن يقع في سعير الشهوات، فَتعلقُ به الأمراض، وينشرها في المجتمع عن طريق الحرام، فتحريم الزنا، وإباحة الزواج، هو صون للمجتمع من الرذائل، وإبعاده عن المهاوي السحيقة، ووباء الأمراض الخطيرة كالإيدز.

فالزوج الصالحة هي أثمن شيء في الحياة بعد نعمة الإسلام، وبر الوالدين، وهي الّتي بأناملها الرقيقة تخفف آلام الرجل المجهد عندما يؤوب إلى عشه مثقلا بأتعاب الحياة، وتَبسم له عندما تربد الآفاق في وجهه ويُنشرُ عليها قطع من الليل تبددها تلك الزوج ببسمة كصفاء الفجر من شفتين صغيرتين، فتمحو هذا الظلام المتراكم، وترسل الشمس لتضيء له الطريق في حياته المُعتِمة.

ولذلك عبّر الإسلام عن هذه الزوج، بأنها أفضل شيء بعد الإسلام، تسره إذا نظر، وتحفظه في عرضه، ومالِهِ إذا غاب عنها، لا كبعض الزوجات الّتي تحول البيت إلى جحيم، وتقطع ذلك الرباط المقدس بارتكابها الأعمال الغير صالحة، وتزيد زوجها أثقالاً من الهموم فوق همومه السوداء، فإذا جاء متعباً تستقبله قطعة مظلمةً عابسة، بدل أن تمسح جرحهُ، وتَنْفُضَ أتعابهُ، تُنكِأُ الجرح أتعابا - فنستعيذ بالله من هذه الزوجة، أو الزوج الذي يسير على هذا الخط.

والزوج الصالحة الّتي تسعد زوجها، فهي: سكن وأي سكن؟!، وقد عبر القرآن عن هذه الصورة الرائعة الدقيقة الّتي لا يصل لها الفكر، ومهما حلق، ومهما أُعطي من البلاغة، فإنه يختنق، وينكفئ خاسئاً أن يصل إلى هذا التعبير في أداء فني، حيث قال الله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

«ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودة ورحمة، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون»

صدق الله العظيم.

إذا كانت الزوج مكملة للرجل، والرجل مكمل للمرأة، فكلٌ للثاني زينة الخلق، والأدب، وهي كمالٌ للإنسان، فمن هذا المنطلق، والتعبير نخرج أن الزواج عنصر من عناصر الحياة الأدبية، ويرتكز عليها، وتدور الحياة بما فيها من ألوان، وصور على الحياة الزوجية.

ولعل سعادة الإنسان في الحياة الزوجية، وشقاءَهُ في عدمها، لذا ربْطنا الحياة الزوجية، بالحياة الأدبية كان ربطاً واقعيا، تجسده البراهينُ والأدلة.

فالحياة الزوجية ضرورة لكل فتى وفتاة، فلابد للفتاةِ من فتى أحلامِها، والرجاء المخضوضر لأمانيها، ولكل فتى فتاة تطلع على حين غفلة في حياته، تشرق كما تشرق الشمس في سمائه، فلكل قيس ليلى، ولكل ليلى قيس.

فبعد هذه الأحرف الّتي صورت مرتكزات الحياة الزوجية، والأرض التي تعيش عليها نقول: لا بد للشخص كفرد من أفراد الإنسانية من زواج شخصي يخصه، فنصور الدور الذي مر به في تلك الحياة نقطه بنقطة، بحيث تكون شريطا مرئيا، تجسد واقع ذلك الزواج، بحيث يحسهُ، ويرى مشاهدهُ أمام عينه كالوجدان الواقعي، وإن اختلفت عوامل الزمن في دورة التاريخ، فإن الزواج لا يتغير في جوهره، قد تتغير المظاهر الشكلية الّتي يعتاد عليها ذلك المجتمع في دور ما قبل الخطوبة، وما بعد الخطوبة، وعند الزواج.

كما نعرض لهذه الفترة، وتلك، والتطور الذي طرأ على الحياة الاجتماعية في قَطِيفِنَا، حتى نسجل تلك العادات الشعبية، ونحفظها من الضياع، وليست هي من الأصول المبدئية الّتي

لا تتغير ، إنما لكل شعب عاداته الّتي تنشأ من اصطلاحات يوجدها لنفسه، ويسير عليها بدون أن ينظر إلى الجميل منها ، أو القبيح .

فإذا تحدثنا عن الحياة النسائية في مجتمعنا قبل أكثر من تسعين عام، - كما يرويها لنا بعض الرواة - كانت الفتاة قبل الزواج لا تقابل إلا والدتها ، أو أختها ، وترتدي ثيابا تكسوها من رأسها إلى قدميها ، لا يبين منها حتى إصبعها ، ولا تكشف وجهها حتى إلى مثيلاتها من النساء الكبار المتزوجات ، أما أترابها فلا مانع من أن تجلس معهن بكل حرية ، وانطلاق ، وتبرج .

فلهذه العوامل كان الزواج في هذا المجتمع مغلقاً ، ولا يعرف الزوج زوجته إلا ليلة الزفاف ، وإذا خرجت الفتاة عن هذه القيود نزلت من ذروة ذلك المجتمع إلى الحضيض ، ففي تلك الفترة لا تختلط الفتاة بمجتمعها النسائي إلا في حدود ضيقة مع أترابها ، وتنكمش كما ينكمش الضوء في زجاجته ، لأنها فتاة مُخبأة ، أي لا يبين منها شيءٌ حتى إلى مثيلاتها من النساء الكبار ، وكلمة مخبأة أي غير ظاهرة للعيان ، وهي مقتبسة من اللغة العربية الفصيحة ، أي مخبوءة كالجوهرة الّتي تصان في حُقٍّ حتى يأتي الصيرفي، النقاد لها .

وقد بلغ بهذه العادات السخيفة ، أن الفتاة إذا استحمت في الحمامات الشعبية الخاصة بالإناث ، تستحم معهن على أن لا يبين إصبع منها ، فضلاً عن الوجه .

وهذه الفتاة هي الفتاة المحمودة السيرة ، الّتي يرضى عنها المجتمع النسائي ، ويشيد بذكرها ، ويطلب من أبنائهن التقدم لخطبة مثل هذه الفتاة الّتي أعطت مثلا رائعا في هذا المضمار .

هذه الفترة قد انطوت ، ولفها الزمن ، وأصبحت خبراً يرويها لنا الشيوخ القدامى .

أما الفترة الّتي عايشتُها ، ورأيتُها بالحس فهي تختلف عن الفترة الأولى في بعض مظاهرها ، فالفتاة لا تضرب على نفسها ستارا حديدياً ، بحيث لا يراها النساء ، ولا تبصرها الشمس ، ولا العين ؛ بل تعيش كفتاة تذهب للكتاب ، والكتاب هذا مقصورا لتعليم على كتاب الله ، وكتابين دينيين هما : سيرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وكتاب ثاني يتضمن سيرة أبي الأحرار ، سيد الشهداء أبي عبدالله الحسين عليه السلام .

وتتولى التعليم فيه إحدى النساء اللاتي تعتز بين مثيلاتها بمعرفتها عليهن ، وتفخر بهذه المعرفة فتتعداها إلى أن تروي المعاجز ، والأساطير، فكان مجتمعها يتقبل هذه الأساطير ، لأنه مجتمع حجري مغلق لم تُفَتح أفكاره أضواء العلم .

فكانت الفتاة لا تكلم خطيبها ، أو زوجها المعقود به عليها قبل الدخول ، ولا تراه ، أو يراها عمداً ، أو قصداً ، قد يلمحُها على بغتة مفاجأة ، أو تلمحه فتلتقي النظرات منه ، أو منها ، ولكن بدون قصدٍ أو ميعاد محدد من الطرفين .

وفي هذه الفترة تستحم طبيعيا ، وتتنفس الأكسجين ، وتعيش في بيتها أمام إخوانها ، ونسائها بحرية ، وبلا قيود ، وإنما قيدُها بما قيدَها به الإسلام .

غير أن أولياءهن لم يطبقوا المبادئ الإسلامية كاملة ، فيخيروها حسب المبادئ الإسلامية في الزوج الذي تختاره ، فهي لا حرية لها ،

ولا رأي في شريك حياتها ، بل يفرض عليها الرأيُ فلا خيار لها إلا القبول بذلك ، فتزف إلى زوج كأنها تزف إلى الجحيم ، لا إلى بهجةٍ ، وفرحةٍ .

ويزداد بعضُ الأباء ، والأولياء ، إسرافاً ، فيتاجرون ببناتهم لربحٍ زهيدٍ من هذه المادة الفانية ، فيقصرن بناتهنَّ على أزواج يكبروهنَّ في الأعمار ، ولم ترغب الزواج من ذلك البعل لأنه بمنزلةِ والدها ، وبالعكس أيضا قد يقصر الفتى على فتاته للعوامل المادية ، أو عوامل بيئية كما أشرنا .

فتتولد من هذه الزيجات بعض المشاكل ، فتستحيل حياتهما إلى براكين من الجحيم ، وقد تؤول إلى الفراق ، فكان البعل في تلك الفترة لا يعرف من زوجه إلا الإسم ، وأوصافها وسيرتها كُلهُا سجل ترويه أمه ، أو إحدى العجائز من أقربائه ، فيصح لنا أن نقول أن والدتي تعشق وأنا أتزوج .

أنا لا أدعو للتبذل ، والسفور ، والاستهانة بالفتاة ، فإن ابتذالها ، والاستهانة بها يحط بشخصيتها المثالية الّتي حافظ عليها الإسلام ، إنما أطلبُ أن يكون الزواج في الأطر الإسلامية ، ولا يتعداها قيد أنملة ، فالإسلام خطط لنا الحياة الفاضلة ، والعيش الكريم .

و أطوي صفحات كتاب هذه الفترة بما فيها من عادات حسنة ، أو سيئة ، سواء حازت مني الرضا ، أو الغضب ، فنطوي كتاب الزواج العام ، لننشر كتاب حياتي الزوجية الخاصة لنمر ونقرأ حُرُوفَهُ صفحة بعد صفحة ، بما فيه من عادات ، ومراسيم فنتحدث فنقول :

لكل شخص ظروفه ، وشخصيته الاجتماعية، وما يكتنفه من ظروف بيتية ، وحياة مادية، واجتماعية ، كل هذه العوامل تفرض عليه قيوداً تربطه بمجتمعه .

وبعد هذه الأحرف أو الكلمات ، فلندخل من باب حياتي ، ونبدأها فصلاً بعد فصل من فصول العصر الذي تزوجت فيه ، وفي هذا العصر ، تنسمت الفتاة القطيفية نسيم الحياة البدائية الّتي انكسر فيها طوق التخبئ الذي يحذر عليها رؤيتها أمام المجتمع النسائي اللاتي يكبرنها أولهنَّ شخصية مرموقة بين النساء - وقد أشرنا لها - وكسرت عنها قيود التخبئ الّتي يسمونها باللهجة القطيفية - الفتاة المخبية - ، أي المخبأة، وأشرنا إلى هذا الدور الذي يشد الفتاة من قرنها إلى قدمها ، وفي هذه الفترة فُكت بعض حلقاتها .

وعندما بلغتُ السابعة عشر من عمري ، كانت تدور في أفق أحلامي فتاةٌ رُسِمت صورتها في عيني ، غير أن بعض الأقرباء لمّح لوالدي ببناتهم بإشارة كإشارة شخص من شاطئ يعبر للشاطئ الأخر، تحمل تبطينا مغلقاً يرمز في أسلوب أدبي ، في تحفظ في حق زواج بناتهم، غير أن مشيئة الله هي الغالبةُ ولا رادَ لها .

وكنت في هذه المرحلة أحترم أبي ، ولا أجرؤ أن أفاتحه في أمر الزواج ، أو في تعيين الفتاة الّتي أحلم بها ، وأختارُها كصديقة العمر، ولكن أحلامي الشابة الطموحة تسمرت في فتاة من الطبقة الفقيرة المعدمة ، فأحببتها ، وتمنيت الزواج منها لخفة روحها ، وظلها ، وجمالها السحري ، وكتبت فيها قصائد - وهي لا تعرف تلك القصائد .

وبرغم حبي العارمِ لها لم يعطني الجرأة، والاندفاع في أن أفاتحَ والدي في رغبتي من تلك الفتاة، حيث تغمرني هيبتُهُ، وجلالُهُ فيُخْرِسُ لساني عن النطق.

وكلما حاولت أن أنطقَ بالسر لوالدي أرتد كسيف القلب، فأكبتُ هذه الرغبة في أجنحةٍ ملتهبة، فعشت فترة في هوىً جامحٍ، وفي لهفتي لذلك الزواج من تلك الفتاة، حتى سجلت ذلك الحب قصائد تجسده، وتعبر عنه.

واشتدت اللوعة والحب لها لأنها من أترابي، وقد قمت معها، وبعض الأتراب في أيام الطفولة، وبعدها بألعاب شعبية، ونحن لا نعرف أسرار الحب، ولا معاني الهوى على صعيد طهارة، وقلب نقي.

غير أن مشيئة الله لم تختر لي الزواج من هذه الفتاه، وحُرمتُ منها، بل شاء الله أن يختار لي فتاة أخرى - وليس لك إلا ما أراد الله إذ لا مفر من مشيئته، وعلى ضوء ما كتب الله تُذللُ الصعابُ.

عندها أخذ فضيلة العلامة الشيخ محمد صالح المبارك يلوح لوالدي، ويشير بإشارة أدبية، وأسلوب خُلقي في رغبته بالمصاهرة، فتم مع أبي ما أرادهُ، وفضيلة الشيخ المبارك، وفوجِئتُ وأنا لا أعلم شيئاً يسلمني والدي كتاباً لأقوم بدوري لتقديمه إلى العلامة المبارك، وأنا لا أعرف محتواه، وهو يحمل سراً وراء سطور لم أقرأها، ولم أدرِ ما دار عليها من معاني، فجاء جواب هذه الرسالة التي تربط برباط مقدس، وتشد الأواصر، والرحم القديم، بالموافقة بالزواج من كريمته خاتون.

وتشاء الأقدار، أن يلم بالفتاة مرضٌ مفاجئٌ بعد شهر من الخطوبة، فتصاب بالحمى التّيفوئيدية، مما أخر قِرآن الزواج إلى عام تقريباً.

فلم ألتقِ بها، ولم أرها إلا ليلة الزفاف، وقد خلق مرضُها فراغاً، فأشباح وأطياف تلك الفتاة الفقيرة تلاحقني، وتتسمرُ أمام عيني، لرؤيتي لها طفلة، وشابة، فانطبعت صُورتها في عيني، وقلبي، فصرت أصارع آلام اللوعة، والشوق، فألجأُ إلى ربة الشعر فأكتب الشعر أنغاماً متفجرة لوعة في حياةٍ مشبوبة بالشوق، واللهفة.

وبرغم تيار الشوق العنيف الذي ألقى على أجفاني يقظة من أشباح السهاد، لم أفاتح أبي للهيبة الّتي تغمرني منه، وللعوامل الاجتماعية الّتي ميزت المجتمع، وخلقت فيه طبقية لا تخضع لواقعها، فالجماهير أو الدهماء لا ترحم، وترى أن الزواج لا يصلح للعوائل ذوي البيوت الرفيعة إلا من طبقتها.

فويلٌ لمن تزوج من غير طبقته، أو تزوجت فتاة من غير طبقتها!.... حتى صار العوام يتحدثون ويرددون مثلاً: «إن الثوب لا يُرقعُ إلا من جنسه»، وتناسوا المبدأ الإسلامي الذي ينص:

«إن أكرمكم عند الله أتقاكم»

والحديث النبوي للرسول صلى الله عليه وآله:

«لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود، إلا بالتقوى»

كل هذه المضامين تناساها المجتمع، وعاش تجري في دمائه رواسب الجاهلية المُظلمة.

إنما ذكرتُ هذه الظاهرة الاجتماعية ، لأُلقي عليها بعض الضوء في ذلك العصر في مجتمعٍ تناسى المُثل الإسلامية العُليا ، وإن كان في عصرنا الجديد بدأت تنحلُّ قيود هذه الحُلق وتذوب الفوارق في الطبقات الاجتماعية .

فنعود بعد هذه الجمل ، فأتحدث عن حياتي الزوجية ، والحقُّ كان الواقع يسير تياره في صالحي ، حيث ما اختاره أبي خيراً لي من الخيال الشهوي الذي غرقت فيه ، وتعلقتُ بأجنحته ، فكان اختيارهُ لهذه الفتاة الفاضلة من سعادتي وسعادتها ، فكأنه أُلهِمَ ، وسدد برأيه ، فهو صاحب الذوق الرفيع ، فصادف اختياره قلب الواقع الصحيح.

وبعد شفائها مما ألم بها من تلك الوعكة ، قرر والدي أن تقام الأفراح لعقد القران ثم يتلوه الدخول .

ولا بد من شرح مراسيم الزواج ، وطقوسه في تلك الفترة ، وإن لم تختلف كثيراً عن هذه الفترة المحدثة الّتي نعيشها اليوم ، فبعض العادات ضرب عنها المجتمع صفحاً وألغاها ، وبعضاً منها عاد لها ، والعادات الشعبية يخلقها المجتمع ، وينقضها تنشأُ تقليداً من البعض للبعض .

وعندما تحدثت عن مبادئ الحياة الزوجية العامة في شكلها الاجتماعي ، إنما أنا صفحة من صفحاتها ، فزواجي الشخصي هو بعضٌ منها ، إنما التباين بين الأفراد على مستوى رفعة دنيا الإقتصاد ونزول الحياة الاقتصادية ، والطبقة الاجتماعية .

فحديثي عن الزواج العام في القطيف هو حديثُ عن زواجي ، لكوني فرداً من ذلك المجتمع ، فالمراسيم هي المراسيم ، ونبدأ بتفصيلها نقطة بعد نقطة :

فأول ما يقوم به والد الزوج ، أو الزوج نفسه عندما يبدأ افتتاح مراسيم الزواج ، يتحملُ أثقالاً من المصاريف ، وألواناً من الأتعاب بحيث تبهظ كاهله ، حتى توقعه في متيه خضم ، يكاد يبتلعه .

وهذه العوامل التّي تنتشر في درب الزواج ، أخرت زواج الشباب ، فكم شاب يقف حائراً ، وهو يتوق إلى القرآن ؟!... ولكن المادة اللعينة تحول بينه وبين رغباته.

فآمل من مجتمعنا أن يعود فيخفف من هذه الأثقال ، ويسير على ضوء المبادئ الإسلامية في عصر الرسالة ، حيث كان الصحابة يتزوجون بتعليم سورة من القرآن ، أو قبضة من التمر تكون إحداهما صداقاً .

هذه الجمل لم تكن - سابقا - في خلدي ، ولم تكن من صلب الموضوع ولكنها اقتحمت عليَّ ، ونزلت في هذه الصفحة ، وأخذت موقعها من المواقع الصحيحة .

وعلى ضوء هذه العادات الشعبية المتبعة - ولا تزال حتى يومنا هذا - أمر والدي بتهيئة الزوج ، حيث قام والدي بتقديم ما يسمى مصاريف نثرية ، تقدم لبيت الزوجة وهي : كمية من السمك لتوزيعها مع أكياس اللوز - باللهجة القطيفة البيدان - مضافا إلى السكر ، والرز والتبغ إلى غير ذلك من التموينات كالخراف ، والفحم ، والمرطبات ، واليرنأ ، أي الحناء ، هذا غير الصداق الذي يدفع نقدا كلٌ حسب طاقته المادية ، إلى ما يماثله مما يثقل كاهل

الزوج، أو والده، حيثُ إنَّ العرف هنا يقضي بأن آباء الزوجات لا ينفقون شيئاً من جيوبهم، إلا قلة منهم نادرة كبعض الآباء يصرفون ما يعادل صداق بناتهم، أو يزيدون على ذلك.

وكانت سابقاً توجه الدعوات للاحتفال بالزيجات عن طريق شخص يستأجره المسؤول عن هذا الزواج بأجر معين، يمر على البيوت بيتاً بيتاً فيدعوهم للاحتفال، مأدبة العشاء، ومثل ذلك، تقوم إمرأة بالطواف على البيوت لدعوة النساء للاحتفال النسائي، ومأدبة العشاء.

وقد تبدلت هذه الدعوات عن طريق البطاقات المزخرفة، والمطبوعة الّتي تكلف مبلغاً من المال، ولا سيما إذا كانت مُذَّهبةً، ويقوم بتوزيعها أشخاص يمرون على بيوت المدعوين، ولعل هذا التطور في هذا الأسلوب لتطور الحياة أولاً، ولوجود المادة ثانياً.

وبعد هذه المراسيم يذهب بالعروس، أي الزوجة، إلى أحد الحمامات الشعبية البعيدة للإستحمام مع كوكبة من النساء، والفتيات، فتستحم العروس مع الفتيات، وعند عودتهنَّ بها تقام لها حفل ثلاث ليالٍ متتالية، وهي بينهنَّ كالوردة بين الورود، وتنقش (أي تزخرف أطراف رجليها، وباطن يديها بالعجين ثم يُصبغ بالحِناء)، ويسمى باللهجة الشعبية القطيفية نقش، وفي مساءِ ليلة زفافها تخضب أطراف يديها، وقدميها، ويسمى خِضاباً، وهي مجلوة في حفل رائع.

كما يوضع في حجرها رأس من القند، أو رأسين - وهو يشبه في حجمه عموداً من السكر - فتأخذهما مع بعض النقود أجوراً لما قامت به الخاضبة، والناقشة، والمحنية، وتسمى: «الخضّابه»

باللهجة القطيفية - ، وهي الّتي: تصبغ الكفوف ، والأرجل بالحناء ، والخضاب ، وتزخرفهم ، حتى صار مثلاً بين العوام « شاهدة العروس خاضبتُها ».

ويتلى فيه سيرة الرسول في زواجه على السيدة خديجة أم المؤمنين - رضي الله عنها - ، وطوراً ينشدن أَنَاشِيدَ دينية ، وأخرى يتغنين الأغاني الشعبية ، وبعضهن يضربن الدفوف ، ويمسْن كالأغصان عندما تداعبها النسائم .

بل أكثر من ذلك ، يأخذهنَّ الطرب حتى يُصبحن كالمخمورات من الرقص ، والغناء ، وما يقمن به من فصول ، وأدوار غنائية شعبية ، فلو شاهدت ذلك المنظر ، ورأيته عن كثب لبصرت بدوراً مع كواكب تموج في سماء زينت بألوان الأضواء ، والورود المنتثرة هنا وهناك ، أو قل دراري السماء انتثرت على كوكب الأرض ، أو أغصان يتمايلن في روضة غناء ، ولأثارتك العطور المنبعثة من تلك الفتيات الأوانس ، وهنَّ يَحدِقنَ بالعروس كالسوار بالمعصم ، ورأيت دخان البخور المنبعث من المجامر يتساطع ، وكأنه يحمل في أعطره المنبعثة أسرار الحب ، وآيات الشوق ، وأحلام الزوجين .

هكذا أمر والدي بهذه المراسيم ، ومن أساليب هذه المراسيم أن العروس تُجلى في المساء الثالث في حفل بهيج يسمى يوم الخضاب ، أي عصر ليلة الزفاف الّتي في ليلتها تزف لزوجها ، وهذا الحفل تتجلى فيه العروس كالقمر الساطع يعبق فيه الأرج ، ويفوح مع الند ، والعود ، وتسيل الأغاريد من حناجر الفتيات ، وكأنهنَّ العصافير يزغردن في الفجر البكير .

أما مراسيم الزوج الذكر: فيذهب مع زملائه في كوكبة مبهجة مفرحة في عصر اليوم الثاني لمراسيم الزوجة إلى أحد الحمامات الشعبية، أو العيون البعيدة ليستحم، ويقام له احتفال في ليلتين، يُقرأ فيهما سيرةُ الرسول صلى الله عليه وآله، وينشد فيهما الأناشيد الدينية، وفي الليلة الأولى يبيت معه كوكبة من زملائه، وتصبغ بالحناء يديه ورجليه، كما يدار في الاحتفال أكواب الشاي، وأقداح القهوة، ويدار ماء الزهر، أي ماء الورد باللهجة الشعبية، وتتساطع مجامر البخور، فكأنها تحمل في طيات دخانها العطري أحلام العروسين، عندما تنشرُ ظلالها من الدخان على سماء الاحتفال، وكأنها تشير إلى السر الذي أثقل جفني الزوجين، وترمزُ للحلم الذي يرتقبه الشباب الذين سيصيرون إلى هذه الحياة في المستقبل القريب.

وبعد هذه المراسيم عندها يبدأ بزفاف الزوجة وهي في حلة بهيجة، وفي ثوب فضفاض تحيط بها زميلاتُها من الغيد في كوكبة رائعة، وهي تغط بالعطور، والرياحين، والورود، ويلبسونها أثمن الحلي من العقود، والأساور الذهبية، وفي رجليها الخلاخيل الذهبية الّتي تسمى - باللهجة الشعبية القطيفية: «حجول»، كما في أذنيها قرطان من الذهب، ويشد بوسطها حزام من الحرير حتى تُجْلَّى مفاتنها في صورة رائعة، ويسيروا بها في موكب بهيج رائع، ومن حولها الشموع الموقدة، حتى يأتين بها إلى بيت فجر حياتها الجديدة للالتقاء بزوجها.

وكانت غرفة العروسين مكتسية بالمرايا في جدرها الأربعة، وفي سمائها، فأينما يقع طرفك ترى صورتك تنعكس على تلك المرايا،

وهي مزدانة بالشموع الموقودة، وبالفرش الوفير، وبالمصابيح الّتي تستعمل في تلك الفترة، ونعبر عنها باللغة العربية بالمشاعل، إذ لا كهرباء موجودة.

ولا ننسى دور البخور، والعطور، كما تُنثر الرياحين على ذلك السرير الوفير الجاثم في أطراف زوايا هذه الغرفة، وتُزين الغرفة المعلقات كالقناديل، وبالبلور كالكرات من شتى الألوان كالأخضر، والأزرق، والأحمر، وتسمى - باللهجة القطيفية - : «بيض النعام»، فتزيد روعة الغرفة روعةً، فكأنها قطعةٌ مرمريةٌ تموج بشتى الألوان والصور.

فيدخلن بالعروس إلى هذه الغرفة، ويتجمعن معها كوكبة من الفتيات، والنساء، وهنَّ ينشدن، ويتغنين حتى تكلّ حناجرهُنَّ، وتتعب راحتهُنَّ من التصفيق، وهنَّ في انتظار العروس[1] - أي الزوج -، ليمر بمراسيم الزفاف.

فبعد أن يقام له في الليلة الثانية حفل الفرح، ويتلى فيه السيرة النبوية، والأناشيد الدينية بعد مأدبة العشاء الّتي تقام له، ويدعى فيها مختلف الطبقات على إمكانيات المتزوج المادية، حيث تنحر الخراف، وتقام المأدبة الفخمة السمينة الّتي تكلف الحياة الاقتصادية، وترهق كاهل أهل العروس، سواء كان أبو الزوج، أو الزوج نفسه.

كما أبدي رأيي حول تكاليف هذه الزيجات في هذه الجهود، والمصاريف عندما أنهي مراسيم الزواج، والفترة الّتي وعدت بعرضها في الصفحات التالية.

---

(١) لفظة عروس كلمة مشتركة للذكر والأنثى و كلفظ الزوج تستعمل أيضا .

ويعد أن تُنهى مراسيم الاحتفال يُزف الزوج الرجل في كوكبة من التهليل ، والتكبير للبعض، والبعض في أغاني شعبية وضرب الدفوف حتى يأتون به إلى البيت المُعد ، لسكناه مع عروسه الّتي سبقته إليه.

وعندما يصيرإلى الغرفة أي إلى الأفق الشاعري الذي فيه فتاةُ أحلامه - ، يصلي فيها ركعتين شكراً لله حيث بلّغَهُ الزواج ، ويقرؤونه دُعاءً خاصّاً وهو واضع كفه على رأس عروسه يدعو فيه الله أن يجعله قِراناً سعيداً ، ويرزقه الذرية الصالحة منها.

ثم بعدها يبدأ الرجال زملاء العروس يتفرقون واحدا إثر الآخر ، حتى لا يبقى منهم أحد ، ويأتي دور النساء ، والفتيات فيقمن ، ويتسللن واحدة إثر أخرى ، حتى يبقى ثلة من أهل العروسين ليتممن بعض المراسيم الشعبية.

فتتقدم فتاة تميس في حلتها ، وتغط في عطرها من حرم الزوج - الذكر - كأختهِ، أو خالتهِ، أو عمتهِ، فتطلب من العروسين أن يضعا قدميهما اليمنتين بعضهما على بعض متقابلتين في ذلك الإناء البلوري ، فتغسل أخمصيهما من ماء إبريق بلوري ، وتطلب منهما أن لا يرتفع إصبع أحدهما على الآخر لئلا تتشاءم أُمَّيْ الزوجين.

وبعد غسلهما يلقي العروس - الزوج - بعضاً من النقود في ذلك الإناء ، تأخذها المسماة: «الداية »، الّتي تقوم على خدمتهما ، وبعدها يُخلى ذلك الأفق للعروسين لينالا لذة ، وشهوة.

وعند الصباح تأتي الداية - وهي الخادمة المخصصة لخدمتهما - فتقرع الباب وهي تحمل وجبة الإفطار لهما مع القهوة العربية فيلقي

الزوج دراهم في فنجان القهوة؛ وعندما تقدم الداية وجبة الظهر يلقي الزوج أيضا دراهم معدودة في الإناء الذي يحمل مائدة الغذاء، وجميع هذه النقود للداية من الزوج لقاء خدماتها.

وفي كل مساءٍ يقام له احتفال، يأتي فيه الناس لتهنئته، وتهنئة أهله بالزواج، طيلة سبعة أيام لا يخرجُ من عند عروسه إلا لهذا الاحتفال فقط، ويشعر بلذة وغبطة؛ لأنه يمر بليلة العمر وأيامها الّتي لاتعود في الحياة، ولا تتكرر فهي كالحلمِ.

وقد كتبت قصيدة في ذلك وصفت فيه زواج القطيف، وعادته الشعبية تحت عنوان (ليلة العمر) في ديوان النغم الجريح، ونذكر منها مقطعاً:

وأتت غادةٌ، وفي كفها الإبريقُ ... تزهو كالزنبق المطلولِ

غسلت إخمصيهما، وتغنت ... كالعصافير في ظلال الحقولِ

حتى أصف ليلة العمر فأقول:

ليلة العمر في الحياة نعيمٌ ... ليس في الدهر مِثلُها من نظائر

وبعد وصفي لهذه المراسيم الشعبية، فإنني مررت بها حرفاً بعد حرف، عندما تزوجت السيدة خاتون بنت الشيخ محمد صالح المبارك في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك، عام واحد وستين بعد الثلاثمائة والألف هجرية، الموافق يوم السابع عشر من شهر أكتوبر عام أثنين وأربعين بعد التسعمائة والألف ميلادية.

وطفت بهذه المراسيم الّتي تعمل للعروسين عند زفافهما إلى بيت الزوجية، بحيث يتقدم شخص فينحر شاتين واحدة منهما على

رجل العروس الذكر ، والأخرى على رجل العروس الأنثى ، كلّ منهما على انفراد ، بحيث لا يجتمع العروسان في هذه المراسيم ، والمناظر ، ويتصدق بهما على الفقراء .

وقد تصورت نفسي عندما دخلت هذه الحياة كأنني ملك ، وحولي الحاشية ، كلٌ منها يريد خدمتي ، وقد زُفُفتُ في موكب رائع يتقدم ذلك الموكب والدي الإمامُ أبو الحسن الخنيزي ، والموكب يردد التكبير، والتهليل: « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » .... ما أعظمها من كلماتٍ يفتح بها سفر حياة مستقبلية لشابين ، وهما على عتبة الحياة الزوجية الجديدة ؟! .

إن هذه الكلمات فيما أعتقد ، لمفتاح السعادة الأبدية ، والفتح الذي وراءه كل خير .

زففت إلى بيتي - وبالضبط إلى بيت والدي ، لأنني لا أملك شبراً في ذلك الوقت - وقد أعد لي والدي - رحمه الله - قسماً خاصاً من بيته ، الذي نسميه في عرفنا اليوم « بالشقة » فقد أتيته في ذلك الموكب الرائع ، وبعد أن تفرق الذين حضروا الزفاف من إخواني ، وأصدقائي ، وبقية الجمهور، تقدمتُ وصليتُ ركعتين شكراً لله .

وبعد الصلاة تقدم والدي ليقرئني الدعاء المستحب في هذه الليلة ، ويحمل مضامين الشكر لله ، والطلب منه وحده بأن يبارك هذا الزواج ، ويرزقنا ذرية صالحة ، فكانت هذه الكلمات المباركة يلقيها أبي في أذني ، وأنا واضع يدي اليمني على رأس العروس .

وبعد خروج والدي ، تقدمت المرحومة أختي زهراء - أم سيد أحمد - وهي تكبر الأخوات فغسلت الأخمصين ، فرميت النقود

حسب العادة المتبعة الشعبية ، وعلى ضوء النقاط الّتي فصلناها سابقا في المراسيم.

وبعد غسل الأخمصين ، وأنا في غمرة موجةٍ من الفرح ، فوجئت بخبر يطرق سمعي مُفزِعاً يقف كالسد المنيع بيني وبين اللقاء بزوجي ، حيث هناك حرسٌ مفروضٌ على الزوجة ، ومعناه أن الزوجة تبقى بعيدة عن زوجها ، ومعها ثلاث من السيدات الأمينات القويات تحرسها إلى أذان الفجر ، وعند ذلك يَتْرُكْنَها وزوجها.

فقد اشمأززتُ ، ونفرتُ من هذه العادة الجاهلية الّتي ما أنزل الله بها من سلطان ، ولا سيما أننا نعيش في أواخر شهر رمضان المبارك ، ومعناه سيستمر الحرس حتى الليلة الثانية بقصدٍ أو بدون قصد .

وعلى ما أعتقد أنها نشأت من عقولٍ جاهلية تولدت من رؤوس العجائز، ولكن العجب ، وكل العجب :

كيف استساغتها الفتياتُ الشاباتُ الحديثاتُ ، ويقفن يُدافعن عنها بكل طاقةٍ ، وحرارة ؟!.

وهذه العادة باقية حتى كتابة هذه السطور وإلى يومنا هذا ، برغم مقاومتي ، ومقاومة أمثالي لها ، وبرغم تطور الفتيات القطيفيات اللاتي يختلفن عن أمهاتهنَّ ،حيث تعلمن ، وأخذن من العلم القسطَ الذي لا يستهان به ، ومن مراتب الدراسات العليا ، ولكن عقليتهنَّ لا تزال تنطبع بعقليات العجائز اللاتي يعشن في حياة الجهل - إن كان للجهل حياة - هذه جملة اعتراضيه أردت

منها إيضاح هذه العادة السخيفة، ومعالجتها، وتقليصها عن هذا المجتمع حتى تُدفن بما فيها من قبح مع الأيام المنطوية، وذكرى لها لكوني عشتها، وأقصد من ذلك محاربتها.

وبعد أن انقضت مراسيم الحرس، وزالت جميع العوائق خرجتُ مساء لإستقبال المهنئين، ويزين صدر النادي والدي الإمام أبو الحسن الخنيزي - رحمه الله.

استمرت هذه التبريكات سبعة أيام حسب المراسيم، والعوائد القطيفية، يدار فيها أقداح الشاي، والقهوة العربية، وتوزع فيها السجائر، ويُطَيّب الجمهور من المهنئين بماء الزهر - أي ماء الورد باللهجة القطيفية الشعبية.

ولم تنفك عني آلهة الشعر، ولم تغفُ أوتارُها وأنا في ربيع شهر العسل، فتهبط وأجس ريشتها، فتجود سماؤها بالشعر، فأكتب بعض القصائد، وأنا أعيش مع زوجي تحت ظل والدي لستُ مسئولاً عن تكاليف الحياة، ولا همومها.

وهنا نريد أن نضيف بعض المراسيم الشعبية للزوجين، وهي تشبه الفاصلة في مراسيم زفاف العروس الذكر لعروسه، وهذه المراسيم تقع عندما يلتقي العروسان في أفق أحلامهما، وهي من المراسيم الشعبية الجميلة الّتي فيها عناءٌ، وإبداعٌ، ورقةٌ شعبية.

وكيفية تنفيذُ مراسمها: عندما يزف العروس - الذكر -، ويصل إلى البيت المعد لهما، يجمع الزوج، والزوجة على «طونفستين»، أو على سجاد في الأرض، وتأتي أربع فتيات من محارم الزوج في حللهنَّ البهيجة المُغرية، وهن يتضوعن عطراً، ويمسكن كساءً من

جهاته الأربع، ويعليانه فوق رأس الزوجين، فيأخذن في رفعه إلى أعلى، وينزلنه إلى أسفل، ويستمر هذا المشهد بضعة دقائق، وهنَّ ينشدن أناشيد، وأغاني شعبية: «وا تريم بوه، واليومي»، ويسمّى هذا الأسلوب باللهجة الشعبية القطيفية «مُتورب».

ولعل هذه الطريقة جاءت من الحبشة، لأن لغة هذه الأغنية لغةٌ عبيدية، لأن العبيد كانت لهم لغة خاصة لا يفهمها غيرهم.

وقد كثر التملك منهم في القطيف، ولم يتقلصوا إلا حين أعلن الملك فيصل بتعويض مالكيهم، وتحريرهم عام أربع وثمانين بعد الثلاثمائة، والألف هجرية - على مهاجرها أفضل الصلاةِ السلام.

وكان يتملكهم أرباب الثروة والغنى، فوجدوا بكثرة في القطيف، وفي الأقطار الإسلامية على ضوء الفتوح الّتي فتحها المسلمون في غزواتهم لبلاد المشركين، فيربوهم غلماناً، وفتياتٍ، ويؤدبونهم، ويعلمونهم المبادئ الإسلامية.

ومن ثقافة هذا الشعب الأصيل الأغنيات الّتي تنشد في الأعراس، حيث تصف العروسين بأوصاف رقيقة، وأتذكر من هذه الأغاني الشعبية: «يامعيربس، عين الله تراك، القمر والنجوم تمشي وراك»، ومثل: «محمد كاتب كتاب وفي جيبه قلم ذهب، وهو في روعة الشباب».

لو تصورت معنى الغنوة الشعبية، وهي تنبعث من حناجر الغيد كوتر يسيلُ لحناً عذباً، «يامعيربس عين الله تراك، القمر والنجوم تمشي وراك»، وجدتها صورة رائعة متحركة في منظرٍ حسي يوحي الشعر، والفن.

إن هذه الصورة، والأغنية الشعبية في رأيي، تبزُّ في مضمونها، وعذوبتها بيت لمارتين الشاعر الفرنسي الذي قال: سر في طريقك إن الله قد رآك.

أليس هذا الموال الشعبي القطيفي يحمل مضموناً وصورة أروع من بيت الشاعر الفرنسي؟!..... ولكنه لحنٌ ينبعثُ من شعبٍ مغمورا!.

إن هذه الأساليب الشعبية المجسدة في الأفراح لها أصداء عميقة، وبهجة في النفس تملأ القلوب، والجو غبطة وسرور، في أسلوب رائع، وأخذت هذه العادات تنكمش على نفسها، ولكنها عادت كأنها ولدت من جديد.

وما دمنا نسير تحت مظلة هذه العادات الشعبية، فيحلو لي أن أشير إلى أغنيةٍ تُمثل جراحات الطبقة الفقيرة الّتي تكتوي بألم الفقر، وتعبر عنه في نشيد أو موال شعبي بلغتها الّتي يفهمها طبقات الشعب على اختلافها، ولكنه تعبيرٌ متفجرٌ في لحنٍ باكٍ، من قلب يصف حياته المريرة، اسمع معي هذا الموال الشعبي:

اليوم يوم المطير اليوم ما قدر أطير　　　اليوم سعد الغني اليوم نحس الفقير

إنه تعبيرٌ يمثل حياة بائسة، يجسدها، ويضعها في ميزانٍ بين حياتين: حياة الأغنياء، وحياة الفقراء الذين عندما تهطل السماءُ لا مقر لهم بأكواخهم، ولا طريق لهم للكسب، فيعبر عن الحياتين بالسعد، والنحس، وما أبلغ هذا الوصف والتعبير في هذا النشيد المقتضب؟!.

فلنعد بعد هذه المراسيم لنتحدث، فنروي فصول ما بعد الزواج.

فقد كانت حياتي رتيبةً تبدأ صباحا بالدرس على يد أستاذي فضيلة الشيخ فرج العمران، فيستمر الدرس عنده حتى رأد الضحى في مسجد الراجحية - الذي كان يصلي فيه والدي، وشهد انبثاق الحركة الفكرية، والعلمية - وأعود إلى البيت مع كوكبة من الفكر للمباحثة، والمناقشة في العلم، والأدب إلى أن يحين وقت صلاة الظهر، فنتفرق لتأدية الفريضة الواجبة في مسجد أبي.

وبعد تناول وجبة الغذاء مع والدي ظهراً يأتي لي ثلة من الشباب يدرسون على يدي، وبعد استيقاظ والدي من النوم أذهب لأدرس على يده، وبعد أن أنهي الدرس على يده عصراً تعود تلك الكوكبة من الشباب الأدباء إلى بيتي فنقضي الأمسية في مناقشة علمية، وأدبية، كما أوضحته في بعض الصفحات الماضية.

وهكذا دواليك كنت أتزود من معارف والدي - رحمه الله -، ومن آفاقه العلمية، والأدبية المتسعة الأرجاء، وعن مبادئ الإسلام، فيطرح عليَّ بعض المسائل العلمية، والتاريخية عندما ألتقي به قبل وجبة العشاء، وبعدها حتى تنتهي السهرة، ويذهب إلى غرفة نومه.

هكذا كنت أعيش معه، وقد أورق حب الحياة الزوجية في قلبي، وطفى حتى أغرق حب الفتاة الّتي أحببتها، فصرفت عن ذلك الحب الذي تحدثت عنه سابقاً، فهذا الحب أنساني حُبها ومحى رسم صورتها من قلبي، ولم يبقَ غير ظلال باهتة منها، قد تتحرك كما تتحرك النُسيمات فتتولد منها سيمفونيات شعرية على أجنحة الذكرى والشوق القديم في أصداء تتردد، وتسير مسار الزمن.

فقد ولت أيامُها مع أدراج الرياح ، غير أنني ربحت منه قصائد فيها زخمٌ عاطفيٌ يسكب في كؤوس تشرب منه قلوب العشاق ، ويمثله ديوان «شيء أسمه الحب» .

واستمريت في هذه الفترة أعيش تحت ظلال مدرسة والدي بكل ما فيها من نشاط علمي ، وفكري ، وبفضل ترغيبه لي ، ونشاطي للدرس والتدريس.

وإيضاحاً للحقيقة ، والأمانة التاريخية ، وخدمة للعلم ، أن الدرس والتدريس لا يؤخذ عليه مرتب ، ولهذه الظاهرة فقد أجرى لي والدي مرتبا شهريا ، وهذا المرتب هو مصرف جيبي لبعض الكماليات والمصروفات الجيبية ، كالعطر ، والصابون وما شابه ذلك ، وقدر هذا المرتب شهرياً : ثلاثة أريل ، وهي تساوي في هذا الوقت قرابة ثلاثة مائة ريال أو أكثر .

وأخذت عجلة الزمان تدور بنا دورتها السريعة ، وأنا أعيش في حياة لا أحس بحرها ولا قَرِها ، وقد رزقت طفلة أسميتُها بتول في شهر محرم عام ثلاثة وستين ، وعاشت ستة شهور ثم اختارها الله إلى جواره بتاريخ جمادى الآخر من العام نفسه ،لم تدنس بأوضار الحياة ، إنها وردةٌ نقيةٌ طاهرةٌ.





غروب

وأخذت عجلة الزمان تسرع في دورانها ، وفجـأة قلـب الزمـان مجنهُ ، فحلّت في سمائنا ، أو قل في سماء القطيف عامة نكبةٌ سـوداء تهز كيان القطيف هزاً عنيفاً .

ففي ليلة من ليالي الخريف طامسة الأنجـم ، مربـدة الأجـواء ، حالكة الظلام ، شعرت بضيق في نفسـي ، وفي آفـاق حيـاتي حتـى لم أشعر بهذه الحياة على ما بها من سعةٍ ، فقد كادت تضيـق بـي علـى رحبهـا ، وتكـاد تبتلعُنـي همومُهـا ؛ ولا أدري كيـف أحـسُ بهـذا الضيق الحرج ، ولم يكن أحد من عائلتي موعوكا ؟! .

والدي قبل لحظات تركته في بيته الثـاني الـذي يعيـشُ فيـه مـع زوجهِ الثانية ، ونحن لا نسكنُ معه في هذا البيـت بـل نسـكن معـه في البيت الآخر الذي به والدتُنا ، ولم تمـضِ غـير ثـوانٍ علـى مفـارقتي إياه ، فقد أتيت من عنده مع أخـي الشـيخ عبدالله ، ولم تكـن مـع والدي وعكة خطيرةً حتى تقلقني ولم يلمّ به مرض يخـافُ عليـه منـه ، إنما معه رشح – الذي نسميه في عصرنا : الزكام .

وقبل الخروج من عنده ، تجرأت على خلاف الحياة الّتي درجت عليها معـه ، فطلبـت منـه أن أحضـر لـه طبيبـاً فأجـابني بهـدوءٍ ،

وطمأنينة تغمران وجهه الوضاء : يا بني لستُ في حاجة إلى الطبيب. فأعدت عليه الطلب بإلحاح، فعندها قال: «يا بني الخيار لك»، فخرجت أعدو بسرعة كسرعة الريح مع أخي الشيخ عبدالله، وكان حاملاً بيده الفانوس، لأن الطريقَ لا تحملُ الإضاءة.

فسرنا لا نلوي على شيء، فلم نَحْصَلْ على الطبيب في مقر سكناهُ بالمستشفى، وهذا الطبيب يسمّى بشير، يُعَدّ من الأطباء الماهرين في ذلك الوقت، وهو هندي الجنسية والهنود لهم أطوار، وأحوال يُؤثرُ فيها عليهم الفلفل.

لم يكن ذلك الوقت، الوقت الرسمي للمستشفى؛ لأن ذهابنا له في الليل، ولم يكن - آنذاك - في المستشفى دوام إسعافي، أو ما يسمى الطوارئ، أو طبيب مناوب، أو مقيم يتلقونَ الحوادث والإصابات، إنما الطبيب يشبه كاتباً يؤدي وظيفة في ساعات معينة في الصباح، وبانتهائها ينتهي عمله، ويغلق المستشفى.

وبعد البحث عنه، وجدناه عند صديقٍ له، وهو مدير جمرك القطيف، وكانا يلعبان لعبة الشطرنج، فتقدمت له شارحاً حالة والدي الصحية، وطلبت منه الذهاب معي لفحصه، وعلاجه.

لم يأخذ الطبيب هذا الطلب جديا، واستخف بالحالة المرضية، وأجاب الطبيب: إنها حالة زكام، وهي لا تؤثر على صاحبها بشيء - وهي من الطبيب تعليلات واهية، لما يكتنفُ وراء ذلك إرادة الله ولا راد لإرادته.

وقد تدخل مدير الجمرك - احمد زهران - لما يحمل من حبٍ وتقديرٍ لأبي، فأخذ يعنف الطبيب بشيراً، ويلومه على تقاعسه عن

الذهاب إلى الإمام الخنيزي ، فأبدى الطبيب معاذيره حيث ليس لديه أجهزة الفحص لوجودها في غرفة مقفلة عليها ، والمفتاح عند الصيدلي يدعى محمد علي ، وهو هندي.

والغريب في هذا الأمر أن هذا الطبيب يُكبر الوالد ، ويُعظمُ قدره ، ولا يتخلف عن طلباته ، غير أن هناك سِرًّا خفيًّا وراء الغيب.

ولهذا الطبيب قصة تشابه هذه القصة مع أمير القطيف ، مشاري بن ماضي ، حيث أصيب الأمير بنوبة قلبية ، فجاءه رسوله ، وطلب منه الذهاب لإنقاذه ، فأبدى أسلوباً ليس من أساليب الأطباء الإنسانيين حيث قال : سأنهي دور الإستلام للمستشفى ، وأذهب لعلاجه ، وبانتهاء استلامه للمستشفى انتهت حياة الأمير ، وذلك في شهر شوال عام الثاني والستين بعد الثلاثمائة والألف هجرية على مهاجرها أفضل الصلاة والسلام.

وعلى ضوء هذا الأسلوب ، عدت أدراجي - أنا وأخي - صفر اليدين ، والحسرة تعصر قلبي ، وأنا أجهل السر الذي يُخبؤه القدر في تلك الليلة.

وبعد هنيهةٍ قضيتُها وأخي مع والدنا في مكتبته ، وكأنها ساعات الوداع الرهيبة ، وكان يطيل التأمل في أسرار الله ، وقدرته ، وهو يحدثنا حتى انصرفت أنا ، وأخي من عنده إلى بيتنا ، وكان يملك مكتبتين في كل بيت واحدة ، قليلتي المثيل في عصره في القطيف بما تضم من ذخائر من كتب قيِّمةٍ ، وهي تجمع بين الجديد ، والقديم.

وعندما أويت إلى فراشي ، خشن ملمسه عليَّ ، حاولت أن أنام في تلك الليلة فلم يلمّ بجفنيَّ النوم وتداعبهما أصابعه ، غير أن أصابع اليقظة تغلبت على أصابعِ النعاس ، فلم أنم ، وألقيت بنفسي من على السرير إلى الأرض على السجاد الخشن ليرهقني التعبُ فأنام ، ولكن عقارب الساعة تمر في محيط من الحزن الرهيب ، وتعصر القلب وتلقي علي أفق حياتي ليلاً مبطناً بأسرار رهيبة مغلفة وراء الغيوب لا يعلمها إلا الله.

وبينما أنا غرقان في تيار هذه الهواجس ، فإذا بطرقات عنيفة من البوابة الرئيسية لمدخل البيت ، إذ لا جرس ولا هاتف ولا كهرباء في ذلك الزمان ، وكانت هذه الطرقات في وقت متأخر من هزيع الليل ، ولعلها الساعة السادسة أو الساعة السابعة بالتوقيت الغروبي ليلة الأربعاء الحادي والعشرين من شهرذي القعدة عام الثلاثة والستين بعد الثلاثمائة والألف هجرية.

فترددت هذه الطرقات العنيفة المزعجة ، ففزعت ، وأنا مذعورٌ على صدى هذه الطرقات الّتي تصورت في أصدائها أطياف شر قادم ، فأشرفت من كوة غرفة نومي فشاهدت ابن عمي عبد الباقي بن عبدالله الخنيزي ، ومعه المرحوم عبد الرؤوف ابن أخي الشيخ حسن فهتفت بهما : ما الخبر ؟... ما أتى بكما في هذا الوقت المتأخر من الليل ؟ ، فأجاباني : لا شيء عندنا ، إنما أخوك حسن يدعوك فان لديه ضيوفاً ، فأعدت لهما علامة الاستفهام :

هل هذا الوقت وقت ضيوف ، وهل يعقل أن أخي يدعوني لضيوف في هذا الوقت المتأخر من الليل ؟!.... وعصر قلبي ألم

ففاضت الدموع ثم نطقتُ عن غير قصد : هل أصيب أبي بسوء؟ ماذا ؟ أجيبا .

فبدت الحيرةُ في عينيهما ، والدهشة على أساريرهما ، فتلعثما وقالا : لا - بنبرة تتقطع - ، وأردفا : أسرع معنا للذهاب. فأسرعت ، وما سمع أخي الشيخ عبدالله هذه المحاورة المؤلمة حتى هب معي يسرع كما أسرع كالبرق ، غير أنَّني استبقت الباب الرئيسي ففتحتهُ ، وإذا بأسراب من النساء حفاةٍ يبكون ، تتقدمهم ملوك بنت محفوظ الغانم زوج الخال حسن عبدالله الراشد الغانم ، جئن ليقدمن التعازي للوالدة ، ويواسينها في مصابها الأليم في فقيد الإسلام ، والمسلمين الإمام الخنيزي .

وخرجت الشارع ، فإذا هو يموج بالجماهير وهم يبكون حيارى ، فأيقنت بالأمر الواقع المر الذي لا مرد له ، فمضينا نشق الشارع ، فعرفت أن الفادح المرير قد وقع ونفذت إرادةُ الله ، فمضينا نسير فيه ببطء لكثافة الجمهور، ونخطو في الطريق المملوء بالكآبة ، والحزن ، وكأن أشباح الحزن تكاد تبتلعنُي كلما خطوت خطوة حتى وصلت إلى بيت والدي ، وكان جمهور كثير في الصالون الذي هو أمام المكتبة ، أو هو ممر لها ، ويُسمى: - باللهجة القطيفية - (ليوان) ولعلها كلمة أعجمية ، تعني كلمة ايوان .

وبرغم ما كنت فيه من موجات الحزن ، وتياراتها المتقاذفة بي ، المتدفقة على عيني ، وقلبي نفذ من خلالها أصداء صوتٍ تتقطع نبراتهُ أوتاراً حزينة باكية ، وقد شدني إليه من بين الجمهور قلبيَ

الحزين، لأن الحزينَ يألف الحزين، شدني إلى صوت ذي نبرات حزينة ينشج نشيج المثكولات في أبيات حزينة هو الأستاذ الملا علي بن حسن الطويل، وكان إلى جنبه العلامة الشيخ محمد صالح المبارك، وأثار عاطفتي، ونبهها من بين الجمهور الذين يبكون، وأنا مار لأدخل إلى غرفة مكتبة أبي فوجدته فيها مُسجًى حيث اختاره الله بين عقول العلماء، وأفكارها الَّتي لا تموت (أي الكتب).

فيا هول المصاب الذي نزل على هذه البلاد، وما أثقل تلك الليلة بما فيها من أهوال؟!... لا يكاد يبين صبحُها فإنه قطعةٌ منها، إنه صباح مرير مظلم حتى سمعت الجماهير كلٌ منهم يغالط الثاني فيقول: لا تقل قد مات أبو الحسن فإنه لم يمت، لعله غرق في سُباتٍ من النوم، أتركوه ربما نفض عنه النوم العميق فاستيقظ فحدثنا أحاديثه العذبة، وتعاليمه الدينية.

وهذه الظاهرة الّتي انعكست في إحساس الجماهير، لم تغفل عنها الشعراء فسجلوها في قصائدهم في رثاء الإمام أبي الحسن الخنيزي، حيث قال المرحوم الشاعر محمد سعيد الجشي:

لا تقولوا الشيخ أودى فُجأة ... فقلوب الناس لم يبرد لظاها

إنما الخط ثوت في لحدها ... ويلُها لما تبدت في عماها

وفي موجات من الحزن، والدموع رفع الجثمان الطاهر من غرفة مكتبته ليُجرى عليه مراسيمُ الموتى - وهو التغسيل، وتلاوة كتاب الله عليه - حتى يُشيع صباحاً حسب المراسيم الإسلامية.

وكان رحيلهُ في ليلة الأربعاء الواحد والعشرين من شهرذي القعدة عام ثلاثة وستين بعد الثلاثمائة والألف هجرية، الموافق السادس من نوفمبر عام أربع وأربعين بعد التسعمائة والألف ميلادية.

ولهول الحزن، ووقعه على نفوس الجماهير في تلك الليلة لم تنم، وبقيت ساهرة تحيط بالحسينية الّتي يُسجى فيها الجثمان لتتزود بالنظرات منه، وتُلقي عليه لحظات الوداع، فما بعد اليوم من رؤية له، وعند الصباح حان تشييعه إلى مثواه الأخير.

وقد روى لي أخي الشيخ حسن لوعة الحزن، والتأثير، حيث قال: إنني ذهبت لدائرة البرق، لأبرق بنبأ هذا الفادح الممض إلى أخي العلامة الشيخ عبدالحميد، وما رجعت إلا وقد بدأت مراسيم التشييع، فاستغربت لذلك، فقال لي العلامة السيد ماجد العوامي :إنني أمرت بمراسيم التشييع مخافة وعطفاً مني على الجمهور أن يصاب بما لا يحمد عقباه، لما انتابهم من تأثير المصاب، وسيطرته على ألبابهم وشعورهم، فما أدري ماذا يصنعون بأنفسهم لو أخرت مراسيم التشييع ؟!... ويالها من ساعات باكية مؤلمة!.

وقد بدأ موكب التشييع من حسينية الخنيزي بفريق الزريب بالقلعة حيث الجثمان مُسجى فيها لإلقاء النظرة الأخيرة عليه من الجمهور، فلا ترى إلا موجات بشريه تغص بها الشوارع، وحمل السرير الذي يضم الجثمان الطاهر، فكان السعيد الذي يصل إليه فيمس قوائمه، أو جوانبه، وقلوبهم تسيل دما بعد جف الدموع، وكلهم ولدٌ فاقدٌ أباهُ!.

وللكتل البشرية سار النعش في موجات من الحزن يسيرُ رويداً رويداً على أطراف الأصابع ، وخلفه مواكب من الحزن والعزاء في حلقات يحملون أعلاماً سوداء ، ويتركون قسما منها يرفرف على السرير الذي يضم الجثمان كأنها تشير، وترمز له بالتحية الوداعية .

فكان لهذا التشييع مظاهر لوعة الحزن المفجعة في أعظم مظاهرها ، فإن المصور مهما أوتي من فن لا يستطيع أن يصور مناظر هذا التشييع المفجع ، وكذلك البليغ مهما أُوتِيَ من بلاغة ينكفئ يراعه عن وصف هذا الألم الذي عبرت عنه الجماهير في عواطفها الصادقة من قلوبٍ حراء تكاد أن تنفجر، ويتمنون كل منهم أن يكون فداءً لهذا الإمام، ويقيه بجسمه مكان جسمه في قبره ، كما أغلقت الدوائر الرسمية بالقطيف مكاتبها ساعة التشييع .

وعندما وصل السرير إلى مقبرة الحباكة أقيمت عليه صلاة الأموات ، وأم الجماهير المصلين العلامة السيد ماجد العوامي .

ولهول الصدمة الّتي أثرت في نفس السيد ماجد ، وانعكست على مخائل وَجْهِهِ، غالبه البكاء فأخذت تخنقه العبرات فيغص بها فيترك بعض الفقرات من الصلاة لهول الحزن الذي غلب عليه ، فأخذ العلامة الشيخ محمد علي الخنيزي يسدده.

وعندما انتهت الصلاة رفع الجثمان الطاهر ليرقد في مقره الأخير، وهو يسار به الهوينى حتى أنزل في مثواه الأخير فأخذت الخطباء ، والشعراء تؤبنه ، وترى الجماهير مقلةً دامعة ، وقلباً دامياً ، لا يكادون يفيقون مما اعتراهم... أهم في حلم أم يقظة ؟!... أمات الشيخ أبو الحسن؟!... لا .... لم يمت .... إنه قد مات :

إستبينوه ربما كان رَيباً من محبٍ أو فريةٍ من حسودِ

بل أذيعوه يرجف الخط والشرق بهولٍ كهول يوم الوعيدِ

كذلك الأشخاصُ يخادعون أنفسهم في موت أعِزَائهم، وأحبائهم يفزعون عند أول الصدمة بالتكذيب، وبعدها يفيقون على الواقع المرير.

وبعد نفض أكفنا من ترابه... كيف تتصور عودتنا وهو لم يكن معنا ؟!... وكان يملأ ذلك الفراغ الذي ملأه ردحاً من الزمن.... إنني لا أطيق، ولا أقدر على تصوير هذا الجانب الذي ترك قطعاً من ظلام في سماء القطيف لم يتركه أحد مثلما ترك أقول هذه الجمل للحقيقة، والتاريخ.

وعندما عدنا إلى مأتم التأبين حيث أقيم العزاء خمسة أيام للرجال، وسبعة للنساء، وهذه الظاهرة من مظاهر العزاء والحزن اللذين يجسدان، ويصوران جذوة الحزن الّتي تضطرم في القلوب، فأخذ الشعر، والنثر يصور ألَمَ مأتم التأبين، وما فيه من صور باكية.

وبعد أربعين يوماً مرّت على وفاته أقيمت له ذكرى الأربعين، وهي أول ذكرى أربعين تقام لميتٍ في القطيف؛ كما نُعي في الصحف الأجنبية كالغري والهاتف النجفيتين، ولعله أول قطيفي يُنعى على صعيد الصحافة، فجسد الشعراء والكتاب في هذه الذكرى شخصية الإمام الخنيزي، والفراغ الذي تركه، ولم يملأه أحد حتى اليوم.

فقد عبر عنه من بين الشعراء، الشاعر خالد محمد الفرج في قصيدته «العين الباكية»:

ابكــــوا بدمـــــع أو نجيـــــعِ شـــيخاً يعـــز علـــى الجميـــعِ

وتصــــورو البــــدر اختفـــى في غـــامض الليـــل المريـــع

وكأنــــــه روح الحيـــــاة مضـــت عـــن الجســـم الصريـــع

واستمر الشاعر في قصيدته، فوصف ما شهده من مناظر الحـزن ليوم التشييع، وكيف غص بهم الفضاء ؟!... كمـا ضـاق لحد مـن ضجيع .... والشاعر خالد الفرج حين أشار إلـى كلمـة شـيخ يعـز على الجميع يقصـد بهـا، أن فقـد الإمـام خسـارةُ علـى الفريقـين الشيعة، والسنة.

وخـالد الفـرج هـو الشـاعر الـذي سـاهم، وأبـدى وطنيتـه كمواطنـي هـذه البـلاد، وأبّـن علماءهـا، وأعتـبر نفسـه كـأحد القطيفيين يشاركهم في الأفراح، والأتراح.

ولسنا بصـدد القصـائد الّتـي صـورت هـذا الحـدث الجلـل، وتحدثت عن تلك الشخصية المثالية، فالقصائد موجـودة في ذكـرى الإمام الخنيزي، غير أننا نشير إلى القصيدة العصماء الّتـي كتبهـا فضيلة الأستاذ العلامة ابن المتوفـى: الشـيخ عبدالحميـد، عندمـا جاءه البريد يحمل له نعيَ والدهِ في النجف الأشرف:

يـا خـطُ للصـبر الجميـل ألا أفزعـي نفـذ القضـاء وحـم مـالم يدفـع

غزت الخطوب السود ربعك وانبرى ريـبُ المنـون يغـول كُـلَ سميـدع

ولعـت بـك الأحـداث حتـى إنهـا تركتـك دار مصـائب وتفجـع

جفـت أزاهـيرُ المُنـىَ وغديرُهـا ما بعـد يومـك مـن رجـا أو مطمـع

والقصيدة طويلة؛ يصور كاتبها، ما ألم بالقطيف من مصاب لرحيل شمِسها عن أُفقها، وهل بعد الشمس إلا الليل ؟!....

والقصيدة توجد في الذكرى الّتي قام بتأليفها الأستاذ الشيخ عبدالله، وقد أشرنا لها من قبل ولأنها حوت سيرة الإمام وما قيل فيه.

فهذا الحدث الجلل، تأثيره على المجتمع القطيفي تأثيراً عميقاً، وقد استمر تأثير مصابه إلى عام أو أكثر مر على وفاته، حتى أن الخطباء إذا استعصت الدموع عليهم في المآتم الحسينية لوحوا باسمه، فتسكب العيون دموعها، حتى كتب شاعرنا الكبير العلامة الخطي الخنيزي هذا المضمون، وصوره، ورسمه في حرف متحرك:

كلما استعصت الدموع عليهم لوحوا باسمه ففاضت نجيعا

هذه مناظر الحزن الّتي تصور حزن الجماهير، ومن مناظرها المؤلمة المفجعة، ما تجسد في مسجدهِ الراجحية الذي يُقيم فيه صلاة الجماعة، ولهول المصاب أغلق هذا المسجد منذ اختاره الله حتى ليلة العاشر من محرم عام أربعة وستين بعد الثلاثمائة والألف هجرية، أي قرابة خمسون يوماً مرت على وفاته.

وكان في تلك الليلة مشهد تفجع وألم وبكاء لما انتاب الجماهير من فراغ لشخصية الإمام في ذلك المسجد، فهي توزع النظرات الحائرة بالدموع المتدفقة فيها القلوب على زوايا المسجد، وتطيل النظرات إلى محرابه، ومكانه الذي يلقي منه التعاليم الإسلامية، وإرشاداته الخُلقية، فتزداد آلاماً وحسرة، فكأنك لا تكاد تصدق إلا وكأن الجثمان مُسجى في هذا المسجد بين الجماهير، وكأنها لم تمضِ على موته هذه المدة الزمنية.

فقد رأينا الأديب عبدالعظيم محمد أبو السعود المتوفى في شهر صفر عام ستة بعد الأربعمائة والألف هجرية، الموافق أكتوبر عام ستة وثمانين بعد التسعمائة والألف ميلادي من بين هذه الجماهير أخذته الحسرة والبكاء، فأخرجته عن إحساسه فوضع يده في رقبته ليخنق نفسهُ، وهو يقول: لا خير في الحياة بعدك يا أبا الحسن.

فحانت لفتة من أخي الشيخ حسن فنادى بالجماهير بكلمات تتدفق فيها ظل الحنان، أن ينقذوا هذا الشخص فالتفوا عليه وانتزعوا يده برفق من رقبته، وسقوه الماء، ومسحوا عنه دموع الألم، وأخرجوه من هذا المسجد.

ولم يستطع الخطيب الشيخ ميرزا حسين البريكي أن يؤدي ما أنيط به من خطابة للبكاء، وصراخ الجماهير، فاقتضب أسلوب الخطابة في جمل تعبيريه حزينة عما ألم بهذه الربوع من رحيل الإمام الخنيزي، وختم مجلسه، وطلب من الجمهور الخروج، وإغلاق المسجد حتى تسكن قلوبهم وتهدأ من المصاب الأليم، ويألفون هذا الفراغ - هذا منظرٌ عشت فصوله.

أما بالنسبة لتأثيره الشخصي عليَّ، فلا أستطيع أن أُصَورهُ، لأنني كنت لا أحس بحرارة العيش، ولا قره، ولا بمسؤوليتِهِ الّتي ترتبت عليه، وإذا بي أفاجئ بمصابٍ، كأنما ألقت بي ريحه من القمة للسفح، أو من جنانٍ فيئة الظلال إلى الصحراء الملتهبة، لا شخص يحنو عليَّ، ويضمد جراحي، ويظللني، ويضيءُ لي دروب الحياة المدلهمة، ولا يخفف عني وهج العيش، ويذلل الصعاب.

مات والدي ، وكان بيتاه اللذان يعيش فيهما يغصان بالناس من فقرائهم وأقربائه ، يأكلون على مائدته الوفيرة كعائلته دون تفريق ، وما تكاد تمر بضعة أيام معدودة على وفاته ، فإذا أنت لا ترى في البيتين من أولئك أحداً ، لأن تلك الحياة الّتي تحمل الرخاء ، وتنبت العيش الوريق ، وتمد تلك المائدة السخية بدون منٍّ ولا أذى - تحقيقاً للآية الكريمة - :

﴿ولا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى﴾

فقد انطوت بموت صاحبِها ، وانحسر ظُل جنَانِها إلى صحراء يموج فيها السراب تحت وهج الشمس.

وكان والدي - رحمه الله - يعاملهم معاملة فريدة حيث لا يقبل منهم خدمة له أو لأفراد عائلته خشية أن يكون إنفاقه عليهم جزاء لخدمَتهم ، وهو يقصد بها وجه الله فقط ، ويطلب منه الجزاء على ذلك لاغير .

وما قلته هنا تعضده قصة على مشهد ومسمع ، فقد أحضرت والدتي السيد حمزة السيد هاشم العوامي المتوفى في يوم الأربعاء السادس عشر من شهر شوال عام السادس عشر بعد الأربعمائة والألف هجرية ، الموافق السادس من شهر مارس عام ستة وتسعين بعد التسعمائة والألف ميلادي - ، مع أخته نجيبة وهو يخطو للخامسة عشر من العمر وهي في العاشرة - وهذا تاريخ لسنه تقريبي وليس بالواقعي - وكان مجيئه مع أخته عام الثالثة والأربعين بعد الثلاثمائة والألف هجرية - كما روته لي والدتي - لتخفف عن والده وأمه ما يلقونه من شظف العيش ، ويعيشان على مائدة الوالد .

فأخته توفاها الله ، أما السيد حمزة فبقي يدير بعض أعمال أبي حتى نمت شخصيته وأمانته ، فصعد إلى مكانة مكنته أن يكون عند أبي رئيساً وأميناً يدير الشؤون المالية لأبي ، والمتصرف في الحياة الداخلية ، والخارجية كما يُعطى أجرة أوراق الضمان للنخيل الّتي تتضمنُها الفلاحون ، ويتقاسمها هو والأخ الشيخ حسن ، ويتحصل السيد حمزة على بعض الهدايا من الفلاحين كبعض قلات التمر ، وعصير التمر المعروف بالدبس - ولم يكن لي فيها نصيب .

وهذه المرتبة تُعطي الإنسان نوعاً من الرفعة أو الكبرياء ، فيغتر ببعض ما يرتفع به ، والقضية الّتي شاهدتها : حيث كان للسيد باقر ابن السيد حمزة معز، فجاء السيد حمزة يوماً البيت وفوجئ من زوجه بخبر عدم وجود المعز ، فجند من كان يعيش في هذا البيت على مائدة أبي للبحث عن هذا المعز ، وأبي عندما يعود يتفقد هؤلاء الذين تظلهم سماء بيته فلم يجد منهم أحداً ، وبعد مسائلته لهم أنبئوه الخبر ، فأصدر أمره لهم بحزم وشدة بعدم طاعة أي أحد في البيت : ولو بُعث - أبي - الحاج حسن الخنيزي ، وعنف السيد حمزة العوامي على فعلته ، وقال له : إنما نطعمهم لوجه الله ، فكيف بك أن تكلفهم خدمة ليست مناطة بهم ، ولا هي من مسؤوليتهم .

وكان أبي لا يفرق في معاملته البيتية في المعيشة ، والكسوة ، بين عائلته ومن تضمهم سماء بيته ، فكلهم يعيشون على صعيد متساوي .

فقد ألم بابن السيد حمزة الدكتور باقر - الذي هو اليوم طبيب أخصائي بالأطفال يعمل بمستشفى الملك فهد التابع لجامعة الملك فيصل بمدينة الخبر - مرض عويص ، فهبت شفقة أبي وأريحيته ،

وعطفه المتدفق ، أن يرسل باقراً مع أمه وخاله مهدي حميد جواد إلى مدينة البحرين للعلاج .

وفي ذلك الوقت لا يوجد مستشفى بالقطيف أو بالمنطقة على مستوى العلاج ، إنما يوجد في القطيف فقط مستوصف به طبيب وصيدلي يعيشان على أبسط رعاية طبية وعلمية.

ولهذه الأسباب قرر والدي إرساله إلى مدينة البحرين ، وكان في ذلك الوقت لا يملك نقوداً ، تمد تكاليف هذه السفرة ، لِبُعد وقت حلول جذاذ النخل حيثُ لا يحل إلا في الصيف .

فطلب من أخي الشيخ حسن أن يبيع تمراً معلقاً في نخيله ، أي قبل الجذاذ ، فأجابه الأخ : يا أبي إنَّ ظروفك الاقتصادية لا تمكنُك فأنت معذور، لعدم قدرتك فلا ترهق نفسك فوق طاقتها ؛ فكان جواب أبي في أحرف تمتد من محيط الرسالة النبوية : ليس لك فرار من التنفيذ ، قلت لك اعمل غداً ما أمرتُك به ، ولا تنسَ هذه الأضواء الّتي تنبعثُ من كلمات مصابيح الهُدى اللهم وفقني لصالح الأعمال ، والصواب في الفعال ، وهذا العمل من الصواب في الفعال ، لأنه إنقاذ نفس .

وشاهدتُ مشهد هذه القصة وأنا أخطو في السابعة عشر من عمري ، وبعد سفرهم بأيام طلبتُ من أبي أن أسافر معهم إلى مدينة البحرين ، فوافق على ذلك ، ووقوع تاريخ هذه القصة وأحداثها في شهر رجب الأصب عام الثاني والستين بعد الثلاثمائة والألف هجري .

فالتقيت هناك بثلة من الأدباء ، من ضمنهم السيد رضي الموسوي ، وحسن جواد الجشي ، والأستاذ إبراهيم العريض ،

وقدموا لي دعوة إلى زورة نادي العروبة في أحد الأمسيات، ودار بيني وبينهم مناقشات علمية، وأدبية، وقد اختلفت معهم في أكثر الآراء، - واختلاف الرأي لا يفسد للود قضية، - كما يقول الشاعر أحمد شوقي.

وليت أخي الشيخ حسناً طال به العمر، وبقي إلى عام تسعة وثمانين بعد الثلاثمائة والألف لشكر الله، وأباه حيث أن الدكتور باقراً أصبح صهراً له حيث تزوج حفيدته فاطمة عبدالواحد، ولكنه لا يعلم الغيب، حيث لا يعلمه إلا الله، وتغيب عنا الأسرار، ومصالح العباد الّتي تجريها حكمة الخالق القدير.

ولهذه المعاملة الخُلقية الّتي لا توجد إلا على ندرة، قال لي عبد الجليل الزهيري - المتوفى عام أربعة بعد الأربعمائة والألف هجرية، وهو يرسم هذه الفكرة، ويصورها، فقد عاشها تجربة واقعية حيث مات أبوه، وعاش تحت كنف والدي منذ عصر الطفولة، حتى زوجه أبي - : إن بعض الناس يتمنون أن يموت آباؤهم، ويعيشون تحت ظل الإمام أبي الحسن الخنيزي، وعلى مائدته السمحة الوفيرة.

وأكد هذه المقالة الأستاذ الشاعر محمد سعيد الجشي، وغيره، ممن يعتمد عليهم في القول، والثقة، كما أكد والده المرحوم الحاج أحمد الجشي المتوفى في شهر شعبان عام تسعةِ وستين بعد الثلاثمائة، والألف هجرية هذه المقالة؛ حيث روى لي قصة تجربة ومشاهدة له حيث قال: إن لي أختاً ولها نخل لا يُغطي ربعه نفقاتها، فذهبتُ إلى والدك أستأذنه في بيعه للإنفاق عليها،

فقال لي : لاتبع هذا النخل ، وتخير بين أمرين ، إما أن تأتي أُختك لتأكل على مائدتي في بيتي ، أو أَصِلَ الطعام لها في بيتها .

وأردف المرحوم الحاج أحمد الجشي : خجلت من هذا الجواب الخير ، فلم أبع النخل وصرت أصرف عليها من جيبي الخاص ، وهذه القضية أخبرني بها بعد موت أبي .

وهناك صفحاتٌ ماضية منها الحياة الزراعية في القطيف ، وأسلوب المعيشة في دنيا القطيفيين عامّة ، وأسلوبُ لحياة أبي خاصة في إدارة بيته وعائلته ، نفتح منها بعض الصفحاتِ لنقرأ كتاب الماضي : فقد كانت الزراعة في القطيف في الشتاء على قحط ، وندرة ، فلا ترى من أنواع هذه الخضار ولا الفواكه شيئاً ، الّتي توجد على وفر في هذا اليوم في جميع فصول السنة .

ولعوامل هذا القحط فقد كانت بعض البيوت تدخر من يوم صيفها الرَخي إلى يوم شتائها القاسي .

فقد رأيت عملية تقوم بها والدتي في بيتنا في فصل الصيف ، حيث تقوم بتجفيف بعض الخضراوات تحت ضوء الشمس كالبامية ، وأنواعاً أخرى من الخضار، وبعد تجفيفها تخزنها في أواني لاستعمالها في فصل الشتاء القاحط ، حيث لا يوجد ما يوضع مع الطهي ، واللحم إلا بعض من عصير الطماطم معبئةً في علب تَّنَكِيَة ، وبمرور يومين على فتحها تؤولُ إلى الخراب ، إذ لا مبردة من الأجهزة الحديثة تحفظها فمصيرها للقمامة .

والمواصلات لم تكن على عهد السرعة الّتي هي اليوم كلمحات الضوء ، وليس هناك أساليب تبريد تحملها واسطات النقل ، حتى

تتمكن الشعوب من الاتصال ببعضها وتزويدها، فترتبط كأنها حلقة واحدة كما هي اليوم، فلا فواكه، ولا خضار تَرِدُ من الخارج.

وبعد تكوين شركة أرامكوا ، بدأ انفتاحُ على نواحـي، وهـذه صفحة تتعلق بحياة أبي، أحب أن أتحدثَ عنها ، حيث بـدأ أفـراد من عمال أرامكو مثل السيد شبر، وأخيه السيد حسن ابنـي هاشـم اللذين يعرفان سابقاً بالجرار - واليوم بالصناع - وغيرهما يتحفانه بهدية، وما هي الهدية؟... قطع من الثلج في صيـف ملتهـب تخفـف أوام الصدي فيعتبرها أثمن هدية، فحينما تصل إلى بيته يأخذ منها بعضاً، والباقي يوزعه علي أرحامه وفي طليعتهم الزعيم ابـن أخيـه الشيخ علي - أبي عبدالكريم الخنيزي.

كما شاهدتُ منه منظراً حنوناً ، وهو عندما يـأتون لـه ببعـض الفواكه الغير موجودة من مدينة البحرين، كالبرتقال، فتعتبر تحفـة من التحف يوزع أكثرها على الأسلوب الذي ذكرناه، فيبقـي منهـا شيئًا ضئيلاً فتوزع على عائلته في البيتين مع الخدم الحبـة الواحـدة من البرتقال إلى عدة شرائح تقسم هذه الشرائح متساوية.

أما الصفحة الّتي تتعلق بالحياة العامـة، فهـي الأزمـة الخانقـة الّتي تعم أرضية شعب القطيف، حيث رأيت بنفسي بعـض الأفـراد يرتدون الخيش بدل الثياب، وينـامون في المسـجد المسـمى بمسجد الوالي، وهذه التسمية عثرت عليهـا في سـجلات البلديـة لمشـروع إزالة القلعة، وموقعه وسط القلعة حاضرة القطيف قريبـاً مـن غرفـة نومي، لا يفصل بينهما إلا طريق ضَيِّقَةٌ، وهو يقعُ في الجهة الغربيـة مقابل البوابة الرئيسية لحسينية النهاش.

وفي هذا المسجد الذي لا تزيدُ مساحته عن ثلاثة أمتار طولاً ، وعرضاً ، يأوون إليه طبقة من النساء الفقيرات يتكدسن بعضهنَّ على بعض هروباً من قرصات الشتاء القار، ويتغطين بما فيه من فراش ، وهي قطع من مديد وخوص ، وهما مأخوذان مما تنبته الأرض من أسل ، وحبال ، وخوصٍ من النخل ، مفروش بهما أرضيته ، فتنبعثُ منه أنات متفجعة من قلوب العذارى ، تفطر قلب الصخر الأصم ، وهنَّ يرتدين ثياباً ممزقة بالية ، لا تكاد تستر أجسادهنَّ لولا الرداء الذي تلتف به تلك الفتاة ، فإذ أمالت الريحُ الرداء ظهر ما تحته من جسمها كفخذيها ، أو ساقيها ، من تلك الثياب البالية المتمزقة .

لقد رأيت هذه الحياة في مظاهرها المؤلمة ، ومشاهدها المفجعة ، غير أن الإنسان لا يشكر ربه وهو كما وصفه خالقه :

﴿ **إذا مسه الخير منوعا ، وإذا مسه الشر جزوعا** ﴾

لقد رأيتُ هذه الحياة الاقتصادية الخانقة الّتي تدمي القلب ، ومن قصصها أن بعض الأشخاص إذا مات عندهم شخص لا يقدرون على ابتياع قطعة من قماش لتكفينه ، لأنهم يعيشون على كف مجاعة، غرثى البطون ، عاريات الجسوم ، فماذا يعملون ، فيلجئون للمُحسنين ، وقد رأيتهم بعيني يأتون إلى والدي فيبتاع لهم قطع الأكفان عن طريق الحاج محمد صالح ياسين النهاش ، وهذه الأزمة الإقتصادية لعلها بدأت من عام خمسين بعد الثلاثمائة والألف هجرية حتى عام اثنين وستين للهجرة حين توزيع الأطعمة بالبطاقات بعد وقوع الحرب العالمية الثانية حيث وقعت عام ثمانية

وثلاثين ميلادي ، فبلغت عام الأثنين والأربعين ميلادي منتهى شدتها كأنها جو دامسٌ ولا ضوء ولا هواء فيه .

ومن القصص المؤلمة في شكلها الظاهري ، إذا أراد شخص أن يتزوج ، ويكتب كتابه - أي يعقد على خطيبته - جاء مع شاهدين ، ووالد الزوج ، والزوجة ، ووكيلهم فلا يغادرون بعد العقد البيت لما بهم من جوع ، وهذه فرصة ذهبية لكون مائدة الغذاء على الأبواب ، فيجرون العقد ، ويأكلون ما كان مطهياً ، ومعدوداً للعائلة ، ويذهبون .

فيبتاع أبي للعائلة أقراص خبزٍ من السوق ، إذ لا توجد مطاعم أو جزارون - بائعو اللحوم - ، لأن ربيع السوق ، وبيعَها ، وشراؤها منذ الصباح حتى الزوال - أي وقت صلاة الظهر - ، فتنطوي بعض العائلة على غضب ينكمش ظلهُ في نفسها دون أن يسري خبرُها لأبي .

هكذا كنا ، ولهذه العوامل لم تَقبل الطلبة على دراسة العلم الديني ، فهم يفرون من هذه الدراسة لما تحيطها من جوانبها الأربع أشباح الفقر .

فالعالم الديني يعيش على شظف ، وفقرٍ منتقعين ، بعكس هذا العصر ، فقد أخذ بعض الشباب يتجهون إلى الدراسة الدينية لما فيها من ربيع خصب ، وحياة نعيم ، وأكثرُ ما يدخل إلى باب هذه الدراسة الذين لم يحالفهم التوفيق في المدارس العصرية الجديدة ، أو في نواحي الحياة العملية ، وقولي أكثرهم لوجود مَن بهم من تفوق في الحياة الدراسية ، ونجح في الحياة العملية ، وضحى بها من أجل الدراسة الحوزوية .

و وصفي نابع من تجربتي، ومُعايشتي لهـذه الحياة، ودراستي للعلم الديني فعشتها ليلاً مبطناً بالفقر، ومضبباً بالمآسي بعـد فقـد أبي رَدحاً من الزمن، ولكنني اجتزت هذا البحـر بـدون أن أدنس ديني أو شرفي حتى نزلت إلى ميدان العمل، وقد أشرت إلـى هـذه الصفحات في هذا الكتاب.

ونعود إلى وصف حياتي بعد فقد أبـي، فقـد أحسست بهـذا الضباب الذي لبد آفاق حياتي، وبطنها بالحزن، كطالب علم عنده عائلة تتكون من زوج، وأم، وأختين، وأخ، وخادمة مـع ابنتهـا، ما عدا أخي الشيخ عبدالله فهو يرعى شُؤونَهُ بنفسه، وإن كنت قـد ساعدتُه، ووجهته، ورعيته في الأعوام الأولى عندما أُصبنـا بفقـد والدنا، وهناك فصل يدور من رواية كان لها أبعاد شعور لما يديـره في فواصلها أبي.

ففي ليلة مـن ليـالي شـهر شـوال عـام الثلاثـة والستين بعـد الثلاثمائة والألف هجرية على مهاجرها أفضـل الصـلاة والسـلام، وفي مسـجده، ونحـن حلقـة حولـه كمـا عودنـا علـى هـذه الحيـاة المستمرة، فألقى علينا بيتاً من الشعر وطلب منا إجازته، أي نكتب شعراً يناسبه معنىً، ووزناً، ورويا، والبيت الذي ألقاه علينـا ابـن الساعة وهو:

كـل بعـد سـوى المقـابر قـربٌ — وفـراق بغـير مـوت لقـاءُ

وهذا الطلب موجه لي، وللشاعر محمد سعيد المسلم، وأمهلنا بعض الدقائق فلم نبث ببنت شفةٍ، وأردف قائلا لقد كتبـت عليـه بيتاً، وأنشده:

وبقــاءٌ علــى الضــلالِ فنــاءٌ وفنــاءٌ علــى الرشــادِ بقــاءُ

لم نعرف ما وراء الفواصل، والحروف، وماذا يشير الوالد بهذه الحروف، إنما هي إشارة بعيدة المرمى، ونُذر لغروب شمسه من أفــق هذه الحياة، فلم نفهم، ولم نقرأ اللغز الـذي وراء هـذه الأحـرف، فبين هذه الأبيات، وموته فاصل زمني يقارب الأربعين يوماً.

و فاصلة أُخرى تتعلق بهذا الفصل، رؤية رآها أبي، وقصتهــا علينا زوجه بنت الحاج بيات أبي السعود بعد وفاتهِ، والرؤية كمــا روتها: حُلم رآه كأنما هو جالسٌ فوق منبر، وارتفع هذا المنبر عالياً بين السماء والأرض، والجماهير تطــوف حولـه، وتـردف زوجـهُ لم يفسر لها هذا الحلم رغم إلحاحها عليه، وعند تفسيرها لهذه الرؤيا بما تراه هي لم يوافقها عليه، وهذه الرؤيا قبيل وفاته – هــذه إشــارة في أحرف جسدنا فيها واقعاً، ورؤيا، وحلما.

و فاصلةٌ ثالثة من هذا الفصل تشير إلى طمأنينــة أبـي لرحيلـه القريب عن هذه الدنيا، حيث كـان يُلقـي علـيَّ البحـث في كتـاب معالم الأصول في مكتبته ببيتنا، وكان معنا ابن العم عبدالله مهـدي الخنيزي، فدخل أخـي رسـول وكـان عمـره أربعـة أعـوام، فوجـه والدي سؤالاً إلى ابن العم – المشار إليــه – هـل يتحـدث رسـول فيصف درسي لأخيــه، ويذكـر هـذا المنظـر ؟!... فلـم نفهـم لهـذا اللغز، ولكنه إشارة إلى انطواء حياته من هذا الكون الفاني.

فأعود، وأتحدث عن آثار ممضة عصفت بـي بعـد وفـاة أبـي، فبعد أن مضت على وفاة والدنا خمســة أشـهر مـن الزمـن، نعيـش برعاية أخينا الأكبر الشيخ حسن الخنيزي – رحمه اللـه –، وهـذه

الخمسة شهور تعد بخمسة وعشرين عاماً من الألم الّتي تنشرُ على صفحات أيامها الألم الذي لا يطوى، وزاد الألم ألماً حيث فوجئت من أخي الأكبر حسن بانتكاسة ممضة، فقد قال أخي لي - بنبرة تدل عن عدم المسؤولية والالتزام.

لم يبقَ لك من ميراث أبيك إلا ريالان، فعليك أن تُديرَ حياتكَ، وحياة عائلتك بنفسك، لستُ مسؤولاً عنك.

فعندها اسودت الدنيا في عيني، وتصورت نفسي كأنني تائه في صحراء لا ماء فيها، ولا زرع، ولا دليل يهُديني إلى الطريق، كل شيء أشباح من الليل تتمدد في عيني، وفي بيتي، وفي طريقي، فتنفستُ في جو هذا البيت:

حلمٌ وانطوى وقد هدأ السامر وانفض كل عرس وعيد

وبرغم هذه المخاوف، والأشباح، تناولت الريالين من يد أخي، وسرت في حيرة إلى بيتي لجهلي بممارسة أساليب العمل في ميدان الحياة، ولم أعرف تجاربها، ولم أتذوق مرها قبل موت أبي، وأردت أن أُعالج هذه الآلام التي تعقبها في كل يوم ألم جديد، يولّده ألمٌ من ألم، بماذا أخففها؟!...... سأدخل إلى محراب آلهة الشعر فأسكب هذه الآلام أوتاراً باكية - فهي أعادت لي موت أبي من جديد - فلعل هذه الأوتار تخفف من هذا الألم وتمسح بعض الجراح وأتنفس في جو بعيد عن بني الإنسان، فقد ظهرت في سماء حياتي تلاحقني أشباح أربعة عقد لتكمل حلقات الشقاء، أو السعادة، وهذه العقد هي موت والدي، وإصابتي بعيني، وعبء العائلة، وأزمة اقتصادية خانقة، فهذه أربعةُ عُقدٍ بطنت سماء

حياتي ، وأناخت بكلكلها على أجواء بيتي ، وما أصدق هذا البيت :

ولد الشاعر والبؤس معا فهما خلان لا يفترقا

وتضاعفت هواجس الحزن ، والتفكير بين الأمس ، واليوم ، إذا لا نرى ما نراه أمس فأين الوفود ؟! .... أين الجماهير ؟!....... ألا أحدٌ يضمد جراحنا ، ويمسح دمعتنا ؟!.

لقد انفض كل شيء من بيتنا ، ولم أَرَ في هذه الأزمة من ينبس لي بكلمة حنانٍ، أو يمسحُ هذه الجروح - وأخي يناولني الريالين - غير شخص واحد هو المرحوم الأستاذ/ علي بن حسن أبي السعود - المولود في عام واحد وعشرين بعد الثلاثمائة والألف هجرية ، المتوفى في شهر ربيع الأول عام أربعة وسبعين بعد الثلاثمائة والألف هجرية.

وكان شخصية من الشخصيات الوطنية الّتي بذلت حياَتها ، وجهودها وكل ما يملك من طاقات عقلية في إسعاد وطنه ، وراحته ، وكان من المعجبين، والمقدرين للإمام أبي الحسن الراحل ، ولهذه الاعتبارات ، قال : أقرضك ثلاثمائة ريال على أن تعيدها لي في فصل الصيف عندما يحل جذاذ النخل . فأجبته بحروف منكسرة، مبطنة بدمعة خرساء لا تهمي ولا تغور: لا أريد أن أقترض منك هذا المبلغ ، لما يحتويه ظرفي المهزوز الهزيل فلا أستطيعُ السداد ، فيكون وفائي الكذب والخجل .

ولابد أن نشرح العوامل الّتي دفعت الأستاذ علي ابن حسن أبي السعود إلى هذا الموقف النبيل ، فهو امتدادُ لإعجابه ،

وإجلاله، وإعزازه، ووفاء منه للراحل أبي، فطالما نهل، وتزود من مدرسته العلمية، وحتى روى لي قصة غريبة تشبه الخيال، أو الذهول بعد وفاة الوالد ببضعة أشهر لا تزيد على الثلاثة.

فقد قال لي إنني في هذا المساء غرقت في ذهول حيث لبست ملابسي، وارتديت الكوفية والعقال، وخرجت لا ألوي على شيء حتى أتيت إلى مجلس الإمام الخنيزي الذي كان يستقبل فيه - مساءً - الجماهير، ويقضي فيه في فصل القضاء بين الناس، فرأيته موصد الأبواب، وهنا تسمرت عند بابه، ووقفت بضع دقائق وأنا أفكر في نفسي: لماذا لم يجلس هذا المساء الإمام الخنيزي؟! وماذا به؟!.

وجهت علامة استفهام بهذا المعنى إلى بعض المارة بالطريق، فكان الجواب صدمة عنيفة على نفسي، فيها حروف شحنات من اليقظة لتنبيه نائمٍ يغط في سُباتٍ عميق: أبا حسن كيف تسأل هذا السؤال، وقد توفي الشيخ قبل بضعة أشهرٍ؟!.

فأفقت من هذا السُبات العميق على الواقع المرير، فهذه القصة إن دلت على شيء، فإنما تدل على الحب الذي يعيش في قلب هذا الرجل للإمام أبي الحسن الخنيزي حتى يخرجه عن واقعه إلى عالم الأمنيات، والمغالطات للنفس، وامتداد لهذا الإجلال، والإكبار، ووفاء للراحل أراد أن يقرضني المبلغ الذي تحدثت عنه، وقد جسد هذا الحب في قصيدته التأبينية الباكية، ولم يكن شاعرا يوماً ما ونروي منها بيتاً:

يا ليتني أزمعتُ قبلك رحلة كي لا أرى الزلزال والبُركانا

وقد روى لي هذه القصة بمسمع مني، والأخوان في الساعة التّي رجع فيها من مجلس الوالد إلى بيتنا، ولو لم يقُصها بنفسهِ لما كدتُ أصدق هذا الذهول.

وعلي أبو السعود هو شخصيةٌ وطنية يشار إليها بالبنان، فهو أديب، ومجادل بارع، ودلق اللسان، فصيح منطيق، وبه نهم لقراءة الكتب، يحفظ قطعاً من التاريخ الغابر، والحاضر، فهو سمير المجالس والكتاب.

فكان يدعونا، ونحن أبناؤه في مساء كل خميس - كاتب هذه الخيوط، والشاعران محمد سعيد المسلم، وعبدالواحد بن الأخ الشيخ حسن الخنيزي - فيقرأ علينا شذراتٍ من مقالاته في دفتر مخطوط لديه، ويطلب منا الرأي حول ذلك، ولا أعرف بعد موته أين مضت هذه الآثار.

كما أن قراءته للكُتبِ لا يرتبط بها مكان، فيقرأ الكُتب وهو يتمرحض - والمرحاض على صورة عادية متعبة، ولم يكن على الأسلوب الجديد كرسياً مريحاً، وسراجه ضوء الفانوس باهة الضوء ينبعث بلونٍ أحمر ضئيل، وقد أعطينا عنه صورةً في الصفحات السابقة؛ وكان يستعيرُ الكتب من والدي فقد استعار الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني مجلداً بعد مجلد حتى أنهاه عن آخره.

فلأعود إلى واقع حياتي، حيث فضلت أن أبقى في حيرتي، والحياة تتضبب أمامي، ويبطنها المستقبل المجهول الذي أرى من زوايا اليوم غده المؤلم الباكي.

وقد كتبت قصيدةً صورت فيها ، وجسدت فيها أشباح أزمات الحياة ، فكان لها تأثير وقع في كل نفس ، وطافت أصداؤها في عالم الفكر والأدب لواقعها النابعِ من معاناة وتجربة نفسية عشتها في وهج الواقع المرير، واكتويت بألمها .

وأنت تقرأ مقاطع هذه القصيدة تنقلك إلى عالم مشاهد تعيش في أجوائِهِ ، وهي بعنوان الغد الباكي في ديوان النغم الجريح ، ونذكر منها مقطعاً :

أرى من زوايا حياتي غدي	فأبصره روضة ذاويهْ
توقف عنها معين الحياة	وغارت جداولها الشاديهْ
ومد الخريف بها كفه	و قصّف أفنانها الزاهيهْ
تساقط منها رجاً ضاحكاً	كحلم الربيع على الرابيهْ

وهذه الأزمة الخانقة مرّت في أجوائها رواية مؤلمة أروي بعض فصولها :

كنت مع أخي العلامة الشيخ عبد الحميد الخنيزي في مكتبتنا في بيتنا في «الخلوة» بالدور العلوي ، وكان اليوم يوماً أيوماً صائفاً ملتهباً ، ينضج الأكباد قبل الجلود ، وكنا نقرأ كتاب «إيران فوق بركان» .

وهذا الكتاب للصحفي هيكل ، يتحدث عن الأزمة السياسية - أزمة النفط - التي أثارتها أمريكا ، وأشعلت نارها - وكان بطلاها السياسيين الدكتور مصدق ، وسماحة آية الله الكاشاني .

إن الحديث في هذا الكتاب حديث شيق ، وقد غرقنا في أجوائه المحمومة ، كجونا الصيفي إذ لم يكن لدينا أجهزة كهربائية ، تخفف من لهيب الجو.

وعندما كنا مأخوذين بما نقرأ ، انبعثت صرخات ، فيها ألمٌ وحزن يتدفقان ، فأفقت على هذه الصرخات ، وانطلقت مذعوراً إلى محل هذه الأصوات المؤلمة .

فوجدت إبنتي فردوس ، التي لم تكن تبلغ العامين من العمر ممدة لاحراك بها ؛ وكانت أمها وعمتها زينب وعمها رسول يبكون ويصرخون ، فحسبتها فارقت الحياة .

لم أبحث عن المرض الذي ألم بها للإرتباك والحيرة اللذين إكتنفاني ، فانطلقت كالريح ، لا ألوي على شيء ؛ لأحضر لها الطبيب.

وكان طبيب المستشفى - آنذاك - الدكتور نصار ، وكان بيني وبينه ضباب من سوء التفاهم ، فهتفتُ به ، وهو جالس على كرسيه في بهو أمام المستشفى :

قم أيُّه الدكتور بسرعة ، قبل أن تنتهي إبنتي من الحياة .

فأراد الدكتور أن يزيل هذا الضباب ، فأبدى تقديراً واهتماماً ، فانطلق معي كالبرق إلى البيت ؛ وبعد فحصه لها قال : لاتزال على قيد الحياة .

وكان علاج أطبائنا في ذلك الوقت : الحقنة ؛ فأعطاها أربع حقن ، وفي الرابعة ، بكت ثمّ صمتت ؛ وقد قامت الأخت زينب في أثناء إحضاري الطبيب بوضع الثلج على رأسها ، فأمر الطبيب بإحضار ثلج لها ، ووضعه على جسمها ورأسها .

كان الكيلو من الثلج بثلاثة أو أربعة ريالات، ولم يكن في جيبي شيء، وأنا في وسط هذه الأزمة الخانقة - أكاد أختنق بضبابها - خرجت وأنا أحمل الثلاجة، لأبتاع الثلج وأنا أردد قول الصحفي الإنكليزي - عندما قابل سماحة آية الله الكاشاني، وكانت هذه المقابلة بعد جهد، سمحت له على شرط، أن يسمع ما يقوله له أولاً آية الله الكاشاني - فكان الصحفي يردد هذه الكلمات: ساعدني يارب، ساعدوني أيها الناس.

فابتعت الثلج ديناً، وبقيت البنت فردوس في غيبوبة حتى الساعة الثامنة مساءً، وهنا لم يهدأ لي بال، ولم تستقر لي عين حتى أحضرت سيارة أجرة، ولا تسل عن ثمن الأجرة، حيث لا توجد سيارات إلا على قلة وندرة.

فقد استأجرتها من القطيف إلى مستشفى الظهران بأربعين ريالاً، كيف أدفعها، وأنا لا أملك شيئاً ؟.. ولكن الظرف الملح، الذي يفرض إنقاذ روح، لابد أن أتجشم الصعاب؛ وامتطينا تلك الصعاب وقلت له: سأدفع لك ما تطلب.

ذهبنا لمستشفى الظهران، وحين صرنا في المستشفى، وكان مكَيَّفاً تكييفاً مركزياً، وحينما لامست جسمها دنيا هذه البرودة إنتعشت، وأعادت لها صحوة الحياة، وأفاقت من غشوتها، وأخذت تبتسم، وتصفق كأنها لم تمرّ بهذه الإلمامة الخانقة.

وأعطيت العلاج، ولم تحتج إلى أن تنوم في المستشفى، وعدنا إلى البيت، واكتشفت - بعد ذلك - السر في هذه الإصابة: هو أن أمها أعطتها حبة من الكينا، وذهبت بها للإستحمام في الحمام

الشعبي الأرتوازي ، وكان الجو متلبداً بقطع اللهيب الصائفة ، وكان الحمام مكتظاً بأنفاس النساء ، فأصابها ما مرّ بها من صورة ماوصفناه .

هذه من ذيول حياتي الإقتصادية الخانقة التي لم تقف في طريقي ولم أتركها تتغلب عليّ وتفتك بعائلتي ؛ وإنما وقفت أصارعها ، وأصارع الحياة حتى تغلبت عليها ، وهذا بمدد من ربي - له الشكروا لفضل - ؛ أما ثمن سيارة الأجرة فقد اقترضته ، وهذه الأزمة تاريخها عام التاسع والستين بعد الثلاثمائة والألف للهجرة.

وبرغم الأزمات - الثالوث الغير مقدس - أخذت أشق عباب الحياة في طوفانِها الهائج ، وتحت عواصفها الغضباء ، وأشواكها الدامية ، وبرغم هذه الصعاب واصلتُ حلقة الدرس والتدريس ، ولكن حياتي اليوم غير حياة الأمس .

وبرغم هذه التّيارات الجارفة الّتي تجتاحُ بموجها كل من يقفُ أمامها سرت في طريقي ، فأدرِسُ ، وأُدرِس ، وتعقد الندوات العلمية ، والأدبية كأمسها المخضوضر في مناقشتها العلمية والأدبية ، وبعد أن تنفضّ تلك الندوات ، وأعود إلى بيتي أحس بإحساس وظمأ إلى حروف الكتاب لا أستطيع أن أرتوي منه ، وأقرأه إلا بواسطة ، وعندما تعز الواسطة يثور الألم في نفسي ، فأدخل إلى محراب الشعر فأخفف من ويلاتها ، فأصوغه قصيدة تظل ثابتة في حافظتي حتى أتحصل على من يكتبها .

وهنا أخذ يطاردني في حياتي الثالوث - الغير المقدس - بأشباحِ الثلاثة ، موت أبي الذي تركني مُعيلاً ولا وارد لي مادياً

إلا الدرس، والتدريس وهما لا يدران نفعاً مادياً عليَّ إذ لا يتقاضى الأستاذ على الدرس أجوراً - ابتغاء الأجر من الله - والأزمة الاقتصادية، وإصابتي بعيني، فهذه الأشباح الثلاثة انعكست صورها ألماً، وشكوى مريرة، يجسدها الشعر في ديوان «النغم الجريح» ومن إسمِهِ يرسم لك هذه الفترة من حياتي البائسة الباكية بما فيها من عزم، وأمل وثّاب، حيث اعتمدت على الواحد القهار، ومن اعتمد عليه ما ضل، وما خاب.

وفي هذه الفترة بعد وفاة والدي عندما أجتمع بزملائي، فأتوقُ للرغبات الّتي حققها بعض الزملاء، فأرتد أمامها مكبوتاً، وأعود أدراجي كسيف البال، ذبيح الرغبات، فألجأ إلى الشعر لأخفف عن هذه الآهات الجريحة، وتصور ملامح الرغبات الذبيحة هذه القطعة:

رغبات نَحرتُها بِمدى البؤس ... وحبرت من دماها كتابي

والشباب الضحوك بطنه اليأس ... فماتت أحلامُه في الشبابِ

هذان البيتان من قصيدة في ديوان النغم الجريح تصور ظِلاً من واقع حياتي، أو أنشد:

ولد الشاعر والبؤس معا ... فهما خلان لا يفترقا

ولكن برغم هذه الأشباح الثلاثة البغيضة، شققت عباب الحياة بزورقي، وعبرت في طوفانِها إلى الشاطئ بعناية من الله، وبفضل من ربي الكريم الذي أحسن لي، وأنعم، وتفضل.

ولابد من إشارة هي فصل من فصول هذه الفترة، عندما رفضت الاقتراض من الأستاذ علي حسن أبي السعود، وسمعت زوجي بهذا الرفض قدمت لي حُلِيَّها الذهبية لأبيعها، وأنفقها على حاجيات البيت - وهي لا تعلم أنني غداً سأعوضها عنها بما هو أفضل وأحسن - فَبِعتُها فبلغ ثمنها ثلاثمائة ريال - الرقم الذي قاله الأستاذ علي حسن أبو السعود - وبفضل من المولى، أعدتُ المُعار لها بعد أن نزلت إلى ميدان العمل بضعفيه.

فبقيت أواصل الحلقة الّتي بَدأتُها، ورسمها لي أبي، فإنني أدرسُ، وأُدَرس، وأكتب الشعر، والمقالات النثرية.

ولابد هنا من إشارة تتعلق ببعض صفحاتٍ من هذه الحياة الّتي أكتب حروفها، ونمر بتاريخها، ونتحدثُ عن ما وقع بين دفتيها من أنباء وأخبار نرويها في عصر والدي الإمام أبي الحسن الخنيزي.

فمنها أن أبي هو الوحيد في عصره الذي أرسل على نفقته لدراسة العلم الديني للنجف الأشرف، ابنه العلامة الشيخ عبدالحميد، برغم ما يعانيه أبي من ضيق في محيط معيشتهِ الاقتصادية، ولو امتد به الأجل لأرسل أبناءه كلهم، وأبناء أبنائه لدراسة العلم بالنجف كما صرح بذلك في حياته.

وبعد وفاة أبيه أقفل الشيخ عبدالحميد راجعاً فكانت عودته فتحاً أدبياً، وحركة فكرية، زودتها بألوان من الصور الجديدة، لكونه أول واضعِ حجرٍ في هيكل الأدب القطيفي الجديد.

وإن هذه الحركة الفكرية الأدبية الّتي تمتد بذورها العلمية إلى أول باذرها الإمام أبي الحسن الخنيزي، وربط أسسها بالمبادئ

الإسلامية ، نشطت حركتها بعد الفتور الذي أصابها بوفاة الإمام أبي الحسن الخنيزي .

وبعودة العلامة الشيخ عبدالحميد ، أعاد الروح لهمود الحركة الأدبية ، فكان له الدور في المجال الفكري ، والتعليمي ، فزادني نشاطاً في دراستي ، وفي كتابة الشعر ، حيث فتح لي آفاقاً من البيان الفكري ، وزودني بصور في حياتي الشعرية ، فسرت في طريقي برغم الأزمات المادية الّتي مرت بي فترة طويلة من الزمن .

وبرغم إصابتي بعيني الّتي لا تسمح لي بأن اشرب من جدول حرف الكتاب ، وسلساله العذب بدون واسطة ، وبرغم ما أُلقي على عاتقي من عائلة تحتاج إلى رعايتين ، مادية ، ومعنوية ، خلفت والدي فيها ، وكنت المسؤول عنها ، وظل النادي السيار يتنسم الهواء ، ويعيش تحت أشعة الشمس في جلسات متنقلة بين بيتي وبيت أخي الشيخ عبدالحميد وأكثرها مساء وليلاً في بيتي .

وأخذ هذا النادي الفكري يشق طريقه إلى أمهات الصحف العربية الكبار ، فنشرت في مجلة الأديب ، والعرفان ، والمعارف ، والألواح ، والنهج اللبنانيات ، ومجلة الكتاب المصرية محررها عادل الغضبان ، والرائد الكويتية ، والهاتف النجفية العراقية محررها جعفر الخليلي ، وصوت البحرين ، وفي الصحف السعودية ، كالمنهل ، وأخبار اليوم ، وغيرها من الصحف المحلية .

وبرغم ما أعانيه من الأزمات الثالوثية - موت أبي ، وإصابتي بعيني ، والأزمة الاقتصادية - ظلت حلقات هذا النادي السيار تزاول نشاطها إلى قرابة الثمانينيات ، وعندها بدأ ينفك عُقد سلك

حياته المنتظم، وحلقاته المرتبطة تنفك، واحدة تلو الأخرى، ولم يتَبقَّ إلا كاتب هذه الخيوط، وأخواه الأستاذان الشيخ عبدالحميد، والشيخ عبدالله.

فكانت تعقد الحلقات الفكرية مساءً في بيتنا، وضحىً في بيت العلامة الشيخ عبدالحميد، ولكنه قد ساء وضعي المادي، وطغت الأزمةُ إلى أقصى الحدود، وانتهت إلى أسوأ الحالات، حتى بلغ السيل الزبى، فكدت أغرق في طوفانها، لولا عناية الله ورحمته اللتانِ أنقذتاني من هذه الأزمة الحادة.

وأنا كالزورق في متيهٍ تتقاذفني أمواجُ صراعِ فقرٍ لم أرَ في هذه الحالكة المتيهيةِ غير شخص حاول أن يأخذ بيدي، ويشد أجنحتي إلى الصعود، الحاج عبدالله نصر الله المولود في عام الثاني عشر بعد الثلاثمائة والألف هجرية، والمتوفى يوم الثامن عشر من شهر ذي الحجة عام أربعة وسبعين بعد الثلاثمائة والألف هجرية وهو أحد شخصيات القطيف، وكان في آخر أيامه زعيماً عند الدولة والشعب، بعد وفاة جدي عبدالله الراشد، يفيض كرما يصرف ما تغله بساتينه من ريع في طرق الكرم والخير، وقد قال لي بالحرف: إن والدك أعدك لتكون عالماً من رجال الدين، فأنا لا أحبذ لك ترك الدراسة، ونزولك لميدان العمل، وأضمد هذه الجراح بحيث أعطيك أعمالاً عباديةً، وأضاعف لك الأجور، وأميزك على غيرك، فكانت هذه الجمل سداً وقفت أمامي في نزولي للعمل، واستمراريتي في طريق الدراسة.

غير أن هذا العمل لم يُغطِ بعض الحاجيات الإقتصادية، ولم يوقف المد الخانق، فترددت، وتهت في آفاق من الحيرة، والشكوك، وأخذت منه هذه الأعمال بأضعاف الأجور الّتي وَفاها، وصدق في قوله.

وفي صحوة على الواقع وجدت هذه الأعمال تشبه المخمصة الّتي تبيح للجائع ما يسد جوعته، وحمل تبعاتها غداً يوم القيامة أكثر بكثيرٍ من نفعها، ولا تغطي الحاجيات الّتي أشرت لها، وصار في نفسي صراعُ هواجسٍ تُجاذبني إلى الاستمرارية في أفق الدراسة، أو النزول إلى ميدان العمل، وبعد هذا الصراع الطويل أوصلني إلى شاطئ السلامة.

وهنا أترك الحياة الدراسية، وبالتحديد في اليوم الرابع من شهر ربيع الآخر عام أربعة وسبعين بعد الثلاثمائة والألف هجرية، لأضع كتب الدراسة على الرفوف، لينسج الزمنُ عليها غِبَاره، كما ينسج العنكبوت على كهف مهجور، ونزلت لميدان العمل، ولكنه ما هذا العمل بعد ردح طويل من الزمن قضيته في حياة علمية بين درس، وتدريس ؟!..... ولكن رغيف المعدة فرض عليَّ النزول من الذروة الدراسية المعنوية، إلى الحياة المادية.

فاخترت ما يناسبني مما اكتسبته من الحياة العلمية المحاماة، لأكونَ أداة في سبيل الحق، اخترته لأسير في هذا الاتجاه الخير الذي إذا استعمل لإنصاف المظلوم، وإخراج حقه من الظالم له، كان من خير الأعمالِ، وأشرفها، فقد سرت على منهاج خططته بنفسي، وعلى منهجية إسلامية، ففضلت ترك الدراسة لأعيش حُراً من عرق الجبين، وما تجنيه يدي من زهر يملأ معطفي بالعطر، أو شوك يجرح يداي.

فالعمل شرف وجهاد في حياة البشر ، لا ذل السؤال والخمول ، وفضلتُ أن لا أعيش عبئاً ثقيل الظل والخطى على كاهل هذا المجتمع الذي يموج بالصور المتناقضة ، الذي لا يعيش بين « سوابيطه » المظلمة ، وسراديبه المتعفنة ، إلا من هو دجالٌ ماكرٌ كلاعب الحبال ، ذو شخصية مزدوجة .

والمحاماة هي أداة العمل الّتي تناسبني من تخطيط حياتي العلمية وبرمجتها ، وأول نقطة خططتها للعمل أن لا أقبل قضية إلا بعد درسها ، وانطباقها على القواعد الشرعية بحيث تضمن لي النجاح ، والظفر بالحق لصاحب الحق .

والنقطة الثانية الّتي انطلقت منها ، هي فاتحة أول قضية قبلتُها في دعوى ميراثية كسبتُها ، فكانت مفتاحَ خيرٍ لبابِ حياةٍ جديدةٍ ، فقد فتح الله عليَّ أبواب الرزق من سعة فضله إنه لذو فضل عظيم.

وثنيت بقضية أخرى ، وهذه الدعوى في محكمة مدينة الدمام ، وكان لهذه القضية صدىً مفرح في أعماقِ قلبي ، ولا تسلني عن الفرحة الّتي انتابتني عندما سلمني صاحب القضية بعض أتعابي مقدما مائتيْ ريال ، كانت من السكة الفضية.

لم أكد أصدق أن جيبي يحتوي على مثل هذا المبلغ لأن عيني لم ترَ مثل هذا المبلغ ، ولم تمسسه أناملي إلا من فصل الصيف إلى الصيف فهو حلم الفقير حيث فيه جذاذ النخل ، وهي باقي نخيلات ورثتها من أبي لا تقوم بأودي ، بل لا تسد لقمة الشبع لأن والدي باع أكثر أملاكه الّتي ورثها من أبيه في حياته ، وأنفقها في سبيل الله ، فأبيع ما يقدمه لي الفلاح ، وأقوم بسداد بعض الديون الّتي

اقترضتها من بائع الأقمشة طالب محمد خميس، فهو يقرضني ما تحتاجه العائلة من ملابس، ولا يطالبني، ولو بإشارة حتى أسدد له من نفسي ما اقترضته منه.

وبائع الأطعمة عبدالله الخليفة يقرضني ما أحتاجه من أطعمة، ولا يطالبني حتى أسدد له ما اقترضته منه - فجزاهما الله خيراً، وغفر الله لهما - فهما الدعامتان اللّتان تتركز عليهما حياة بيتي المعيشية في فصل الشتاء، وباقي البقية من ثمن الجذاذ أنفقها على بعض الشؤون البيتيةِ.

ولهذه العوامل الحادة الّتي تحاصرني اضطرتني أن أبيع أكثر هذه النخيلات، لأنفقها على لقمة العيش لإشباع معدة هذه العائلة، وهذه العملية قبل نزولي لميدان العمل ولم يتبقَ من تلك النخيلات غير جزء بسيط ثلث في بستان يسمى العمارة، واقع في سيحة قرية الخويلدية من قرى القطيف.

وهكذا دواليك منذ اختار الله أبي حتى اللحظة الحاسمة في حياتي الاقتصادية، وهي نقطة العمل الّتي اخترتها، فانطلقت منها.

وعندما اختار الله والدي - رحمه الله -، أصبحت مرتبطاً بمسؤولية عائلية مكونة من زوجة، ووالدة، وأخ، وأختين، وخادم مع إبنتها، فهذه المسؤولية العائلية - قبل نزولي إلى العمل - أثقلت كاهلي، وناءت بجهدي، وتراكم الضباب الذي ليس عندي رياح تبخره، فازداد عدد العائلة، حيث رزُقتُ ولداً أنثى أسميتها: فوزية، ولد بها في التاسع عشر من رمضان عام أربعة

وستين بعد الثلاثمائة والألف هجرية ، الموافق السابع والعشرين من أغسطس عام خمسة وأربعين بعد التسعمائة والألف ميلادي .

وفي يوم الثامن عشر من شهر رجب الأصب عام سبعة وستين بعد الثلاثمائة والألف هجرية ، الموافق السابع والعشرين من شهر مايو عام ثمانية وأربعين بعد التسعمائة والألف ميلادي، رزقت ولداً أنثى أسميتها : فردوس ، كما رزقت ولداً أنثى أسميتها : وداد ، إلا أن يد الزمان امتدت لها وهي في كمها لم تتفتح لضوء الشمس ، ولم تتجاوز الشهر السادس من عمرها ، فطويت صفحات حياتها ، ولله الأسرار والمشيئة .

وتكونت لي أسرة كبيرة كنت سعيداً بها ، بالرغم مما أعانيه من شظف العيش ، ومرارة المعاناة ، وارتفع رصيد الأسرة المباركة ، حيث رزقني الله ولداً ذكراً ، هو أول ولد ذكر جاءني إلي بيتي الفقير في ذلك الظرف - الغني بفضل الله ، ودين الإسلام - في الثامن والعشرين من صفر عام واحد وسبعين بعد الثلاثمائة والألف هجرية فأسميته عليّاً ، وأنعم الله عليَّ بنعمه الّتي لا تحصى ، حيث رزقني بولد ذكر أسميته : أديباً في يوم الجمعة الموافق الخامس من شهر شعبان العظيم من عام الثالث والسبعين بعد الثلاثمائة والألف هجرية ، وبمناسبة كتابتي في مجلة الأديب اللبنانية أسميته بهذا الإسم ، وسوف نعطي عنهم لمحة موجزة في الصفحات القادمة .

وعندها ثقل عليَّ عبئ المسؤولية لحاجاتها الملحة ، والضرورية ، والغذائية ، لأنني كنت في ذلك الوقت عندما تكونت هذه العائلة المباركة ، لم أصارع الأعمال ، وأنزل إلى ميدانها ، بل

كنتُ محلقاً في سماء الدرس، والتدريس، وآفاق الشعر، فالحاجة الملحة، وصوت الخبز الذي ينادي به أطفالي، دعاني للنزول إلى ميدان العمل الحر الذي بفضل الله، ورحمته كفاني ذل السؤال والحاجةَ إلى الناس منذ اختار الله والدي، حتى اللحظة الّتي نزلت فيها لميدان العمل.

واستمريت في الحياة العملية أشق طريقي، وأبني الأنقاض المنهارة الّتي دارت عليها عجلات الفقر، فكنت أعيش في غرفة فيها سرير خشبي متفكك الأوصال، ولولا مسكة له من بعض المسامير لهوى بنا ساجدا إلى الأرض مع وسادتنا في هدأة الليل عندما يداعبُ أجفاننا الكرى.

فبدأتُ أصلح ما أفسده الزمن حتى تبدلت الحياة رأساً على عقب، حيث مَنّ الله بنعمه، وفضله، فأبدلت السجاد المتهلهل إلى سجاد فاخر، وكان مصباحي من الفوانيس القديمة الّتي تسرج بالكيروسين (الجاز) وهناك مصباح آخر يضاء بالكيروسين، يتكون أسفله من زجاج عليه زجاجة شفافة تضيء من أعلاه، ومن جوانبها الأربع، وله صحن لماع تجمع ظلاله الأنوار كي تعطيها دفعة أمواج في الإنارة، فتساعد على القراءة، والكتابة، وتسمى باللهجة الشعبية القطيفية «لاله» وقد أشرت لهذا المصباح في قصيدتي بين يدي العاصفة عندما قلت:

ضوء النور في سماها وفيها   موقد النار مُلهب الجمرات

وهذا الموقد يشبه إناء مبنيًا من الإسمنت والحصى، ويقوم على أربع أرجل، وفي وسطه مساحة ضيقة منخفضة كَحِفرة، ويوضع

فيها الفحم ويشعل فيه النار حتى يحمر الفحم، ويتحول إلى جمر ملتهب.

وهنا تحلو السهرة وندور كالحلقة حوله، وعندما وصفت هذه القصيدة الغرفة كانت متهلهلة الأثاث، والسجاد، والسرير، ومصباحها اللاله كما وصفناه.

وبوصف دقيق مختصر، إنها غرفة فقيرٍ يعيش على البساطة، ولكن الشعر لا يرتبط بمادة، أو بحدود، أو بزمن، فنحن ندور حول هذا الموقد بنفوس طاهرة بريئة، لأن الحياة كانت بسيطة غير معقدة، فاستبدلت المصباح الزجاجي، والفانوس، بمصباح جديد يوقد بالكيروسين، ويعبئ بتيار هوائي، ويسمى باللهجة الشعبية القطيفية (تريك) وهي كلمة إنجليزية غيرعربية، ونسميه باللغة الفصحى المشعل، لأنه يشتعل فيه الضوء، ويبثه، ويرسل منه شعلاً ضوئية في المحيط الذي يوجد فيه، فارقاً بينه، وبين «اللالة»، والفانوس، وإذا انخفض منه التّيار الهوائي احتاج إلى تعبئة هوائية عن طريق اليد.

وبدل الموقد الفحمي مدفأة بالجاز لأن الكهرباء لم تصل تيارها للبلاد، إلا في عام ثلاثة وثمانين بعد الثلاثمائة والألف هجرية، وفي الطبخ استبدلنا طباخاً حديثاً وقوده الكيروسين عوضاً عن سعف النخل، وما تنتجه من كرب، وتله، وحطمنا الأثافي الّتي تجلس فوقها قدور الطهي الّتي تسمى في اللهجة الشعبية القطيفية «المناصب»، وهي تأخذ من حجر صلب، وتوضع فوق دكة تخصص للطهي يسمى باللهجة الشعبية «تنور»، أو مطبخ.

وهكذا أخذت الحياة تتبدل، وتتطور، وتبدأ صفحات مشرقة جديدة في حياتي لم أمر بها منذ أن توفى الله والدي - رحمه الله.

«فإن الرغبات الّتي تموت قبل أن تَستَهل، لا ترث» كما يقول الفقهاء، عاد بعضها يولد سليما، ويستهل ويرث.

لقد تبدل كل شيء في حياتي، في لباسي، وفي حياة الأسرة، في مأكلها، ومشربها، رممت المسكن الصغير في بيت سكناي الذي أسكنه مع إخواني، الموروث من والدنا - رحمه الله - وكان هذا البيت أفقاً رحباً مضيافاً للجماهير، والضيوف منذ سكنه والدنا المرحوم الإمام الخنيزي، وفيه مجلسه الذي هو آفاق للعلم، والفكر، والأدب، ومجمع للعلماء صبحاً وعصراً وليلاً.

وبدأت الحياة الإقتصادية تنمو، وتتحسن، لإستمراريتي ونشاطي في ميدان العمل (المحاماة)، وكسبت القضايا الّتي ترافعت فيها لتخطيطي العملي، لأنني لا أقبل قضية إلا بعد دراستها وتطبيقها على القواعد الشرعية حسب معرفتي بتلك القواعد.

ودارت عجلات الزمن دورتها اللولبية، وأخذ عام إثر عام، وأنا لا أزال أكتب الشعر، والنثر، وأقرأ الكتب عندما تسنح لي الفرصة، وتتهيأ لي الواسطة للقراءة، أو كتابة المقالات النثرية.

أما القصائد الشعرية فعندما أحس بالمعاناة، أو التجارب النفسية يهبط عليَّ الشعر متفاعلاً تفاعلاً نفسياً، فأكتب القصيدة، وتبقى محفوظة في ذاكرتي حتى يهيئ الله لي من يكتبها.

لم أفقد من حياتي غير الدراسة، الّتي لم أستطع أن أجمع بينها، وبين العمل لأن أوقاتها تتناقض مع أوقات العمل لكون

تحديدها في يد الأساتذة، أما التدريس فتحديد أوقاته في يدي، ولهذه الأسباب لم أغلق باب التدريس، فكان مفتوحاً على مصراعيه فدخلت منه ثلة من الشباب لأقوم بتدريسها، وكلما طلب مني بعض الشباب درس اللغة العربية بمعناها العام كالقواعد والبلاغة، أو دراسة بعض الكتب الفقهية، كالشرائع تقبلت طلبهم، ورحبت بالتدريس لهم.

هكذا سرت في الحياة الّتي خططتُها لنفسي بمدد من خالقي، ورازقي المنعم عليّ - وما أكثر نعمه على عبيده، فشكراً له - ولم أزل أسامر آلهة الشعر حتى تولدت عندي مجموعة من أعمالي الشعرية.

وحانت فرصة ذهبية ففي عام الحادي والثمانين بعد الثلاثمائة والألف، كان أخي الفاضل الشيخ عبدالله لديه مشروع سفر إلى لبنان فاغتنمت هذه الفرصة المواتية الثمينة، كي أعطيه أول مجموعة شعرية تنتفض لتحطم القمقم لتعيش تحت ضوء الشمس، وكيف لا تكون فرصة ذهبية لأنه سيتولى الأشراف على طبعها أديبٌ، وعنده فن أصول الكتابة، واللغة، والطبع، فرحب بذلك أي ترحيب، وسُرّ بذلك سروراً كبيراً.

وهذه المجموعة تمثل حياتي البائسة الّتي عشتها فترةً أنزف فيها جراح الرغبات، وأطوي على ليل مؤلم مر، لم أطلب يد العون من أقربائي، أو إخواني، وحتى الذين أعيش معهم على صعيد واحد، وتظلنا ظلال سماء، فلم أضمر حسدا لجيراني، ولم أعاملهم بعد أن منَّ الله عليَّ بمثل ما عاملوني به، وهذا من كرم الله، عندما إلتحقت بميدان العمل الحر.

وهـذه الفـترة المؤلمـة انعكسـت أوتـاراً باكيـة في ديـوان «النغـم الجريـح» مطبوعـات دار الحيـاة ١٣٨١هـ - ١٩٦١م، وكـان اسـمه سابقا الأغـاريد، وهـذا الاسـم لا ينطبـق علـى المسـمى الـذي بـين دفتيه.

وقد سافر أخي بهذا الديوان، وهـو يحمـل أسـم الأغـاريد، وبعد سفر الأخ كنت مطرقاً كمثل السـاهم في بحـر مـن الحـيرة، أو أقرأ في كتاب الطبيعة الحافل بالصور، والعبر، وإذا بمثـل الخيـال، أو كالطيف يهمس في أذنـي بصـوت نـاعم كهمـس النسـيم في أُذُن الفجر، أسم الديوان «النغم الجريح»، أسم ينطبق على المسمى، له أبعاد تدل على طبيعة القصائد من معاناة تصورها، ونزيـف آلام تَحُسها في أجـراس موسـيقية، وفي النصـوص الّتـي تتعـامل معهـا عندما تقرؤها.

فكان لزاما عليَّ أن أرسل برقية مسـتعجلة علـى عنـوان أخـي ببيروت، لإبدال الاسم بالاسم الجديد، وتم ذلك.

ولم يفت الأخ هذه الظاهرة الّتي اكتنفت حياة هـذا الديـوان، فقد أشار لها في كتابه نسيم، وزوبعة المطبـوع عـام ١٣٩٧هجريـة، ١٩٧٧ميلاديـة، منشـورات مكتبـة الأنجلـو المصريـة، في صفحـة (٢٣١) عندما كتب عنه دراسة تحت عنوان «مع أخي في ديوانه».

وبرغم بسمات الزمن، وهي على ندرة، مـازلت أحمـل جـراح الليالي، والأيام على يدي، وفي مقلتـي، وبرغـم نزيزهـا لم تفصـل بيني، وبين الشعر، والنثر، واسـتلهام المعـاني في محـاريب الفـن، وأسرج مصباحي لتسير على ضوئه الأجيال.

وهذه الجراحات ونزيزها ، كونت لـي ربيعـاً خصبـاً ، أورق في حياتي الأدبية ، ومدها بألوان الفن بما فيها من معنى الفـن ، حتـى كونت لي مجموعة من الشعر أسميتُها «شيء أسمه الحب» طبعـت في مصر منشورات مكتبة الإنجلو المصرية عام ١٣٩٦هجريـة ١٩٧٦ ، فكان للديوانين «النغم الجريح» ، «وشيء أسمه الحب» ، أبعـاد في دنيا الأدب ، والفكر .

ولا أريـد أن أذكـر في هـذه اللمحـة الأدبـاء ، والكتـاب ، والصحـف ، والإذاعـات الّتـي تنـاولت هذيـن الديوانـين بـالبحث ، والتحليل ، والإعجاب ، فقد أشارت لبعض هؤلاء الأدباء ، والكتاب بأسمائهم البنت فردوس في مقدمة ديـوان «مدينـة الـدراري» ، كمـا أشار لهم الدكتور حسام سعيد سلمان العبدالهـادي الحبيـب عندمـا كتب مقدمةً لديـوان «كـانوا علـى الـدرب»، ولمحـةٌ مقتضبـة الّتـي أشارت لبعض خطوط حياة الشـاعر في ديـوان «شـمس بـلا أفـق» ، الذي أعطت عنه حرفاً موجزاً ، وتلميحاً مُقتضباً .

ولم أزل برغم الظروف القاسية الّتي نشرت علـى عينـي الضبـاب ، وحالت بيني ، وبين الرشف من سلسال حروف الكتاب ، قراءة وكتابة ، برغم هذه الصعاب الّتي وقفت سداً في طريقي ، بقيت أقرأ بواسطة مـن يقرأ لي ، ومن أُملي عليه فيكتب لي كأبنائي ، والأسباط .

أما هذا الكتاب ، فكان القسط الوافـر في تلقـي الإمـلاء مـن حروفه السبطة هند أتمنى لها مستقبلًا سعيداً .

وما انفككت أسرج شموعي لتضيء في محراب الزمن ، وفي دنيا التاريخ ، وأنا أحترق كما تحترق الذبالة ، فكونـت مجموعـة شـعرية

تحتوي على صور، وقصص من واقع الحياة أسميته «من أغاني الشباب»، غير أن هذا الاسم لم أهضمه، وصار يراودني طيف الخيال، وخواطر نفسية، وكأنما صدى صوت من سماء عبقر يهمس بأذني، ويردد هذا الاسم «شمس بلا أفق» فكان الاسم شبه المبتكر الذي ينطبق على المسمى، وولدت هذه الهاجسة وأنا في مسير إلى مدينة الدمام مع الأديب حسن علي محمد صالح الزاير، فأخبرته بهذه الخاطرة، فأكبرها.

وحسن علي من الأدباء الذواقين للشعر، وهو سجلٌ وذكرى حافظة لألوان الشعر، وصوره، وأزهاره، ويكتب المقالات النثرية، وعنده نَهمةٌ لقراءة الكتب، والقصص، ويعد من الأدباء الذواقين - المولود كما قال لي في عام سبعة وستين بعد الثلاثمائة والألف هجرية -.

أما الديوان بما فيه من محتويات فأتركه للنقاد، وقد كان له الصدى في الحياة الفكرية، والأدبية، حيث كتب عنه بعض الأساتذة كما أذيع عنه عدة حلقات وأبحاث من إذاعة الرياض، وإذاعة جدة السعوديتين، ولا يفوتني أن أشير إلى شيء أسمه الحب، فإنه يمجد المرأة بما فيها من معانٍ روحية، وجمال طبيعي.

ولم أزل أدور مع دورة الأرض بعون من الله، ومدد منه، برغم الظروف الّتي قلصت روادَ بيتي الذين يقرأون، ويكتبون لي حيث الحافظون قليلون، وكان انفضاضهم عن الفكر، والعلم، ونزولهم إلى الحياة المادية الزاخرة الهائجة كالبحر الغاضب الذي غرق الناس في تياره إلى شحمة آذانهم، ويصدق علينا قول الإمام علي عليه السلام:

« الدنيا كالبحر كلما شربوا منه زادتهم ظمأ »

ولهـذه العوامـل المادية، إنفصلت الكوكبة عن الحياة الروحية، والفكرية، وكان النادي السيار الذي أثرى الحياة الفكرية لازال حياً في الأفكار، برغم انطوائه في تلافيف الزمن، وقد أشرت إلى هذا النادي الذي أطلقت عليه هذا الاسم في فصل الحياة الأدبية.

ولكنني برغم هذا، وذاك، ظللت أعزف ألحان الحياة بحلوها، ومرها، وأصور فجرها، وليلها، لوحةً يرسمها قلبي تتجسد صوراً ناطقة بالأسى والفرح، وتضمد جراح البشرية، حتى تكونت منها رؤيةٌ فنيةٌ «لمدينة الدراري» مجموعة شعرية، «وكانوا على الدرب» مجموعة شعرية أخرى.

فقد نفضت عنهما يد الزمن غبار الرفوف، لتعيشا تحت ضوء الشمس فمدينة الدراري، منشورات مطابع الرضا بالدمام بالمملكة العربية السعودية بتاريخ ١٤١٤ هجرية، الموافق ديسمبر عام ١٩٩٣ ميلادية، «وكانوا على الدرب» منشورات مؤسسة البلاغ بلبنان بتاريخ ١٤١٦ هجرية، ١٩٩٥ ميلادية.

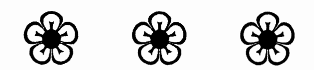
وبرغم هذه الظروف القاسية فقد هيأ الله لي من يُلقي سمعه إليَّ، ويحمل يراعه لأملي عليه ما تجود به عليَّ آلهة الفن، وهذا دليل حسي على فضل ربي ونعمته عليَّ، إذ سخر لنا هذا الكون، وما فيه لنشكر خالقنا - وقليل من عبادي الشكور - وما تزال أفضال ربي تغمرني، وتغرقني بجميلهِ، ولطفهِ، ورحمته... وما كتابة هذا الكتاب برغم العوامل والظروف القاسية الّتي تحد من حركتي الفكرية وتقيدها - إلا من فضله!.

وبرغم كل هذا ، مضيت أسير في كتابة هذا الكتاب ، ولم أتخلَّ عن آلهة الشعر ، حيث كونت لي مجموعة شعرية أسميتها « أضواء من الشمس » وصرت على حيرة وتردد في هذا الاسم ، فكانت إشراقةً من سماء عبقر لتلهمني ، فأبدل أسم « أضواء من الشمس » ، بإسم شاعري « أجراس حزينة » ، كما تولدت لي من آفاق الشعر نواة مجموعة شعرية أسميتها : « تهاويل عبقر » .

وهناك خطان يزوداني ، وأسير عليهما : كتابة الشعر والنثر ، أحدهما أيسر لي من الآخر – وهو خط الشعر – فإن كتابة الشعر لا تسنح السوانح به في كل وقت ، إنما يولد ، ويهبط من سمائه عند التفاعلات النفسية ، وبعبارة أوضح الشعر إلهامٌ من الخالق إلى عبده فكأنك تشعر بطيف يُقرؤك ، فعندما تولد القصيدة في مخيلتي أحفظها في قلب الذكرى حتى ألتقي ببعض الأبناء ، أو الأخوة لأقرأها عليهم فيكتبونها .

أما كتابة النثر فلا يتأتى لي صياغته ولا تجود به عليَّ آلهة النثر إلا حينما يكون شخص حاضر أمامي ، يتلقى وكله آذان صاغية لما أقوله فيدونه على الورق ، قبل أن يفر ويضيع .

لذلك كان فن الشعر أسهل عليَّ من فن النثر ، من أجل هذه الظاهرة المريرة الّتي تعيش في محيط حياتي ، وتتجسدُ قصائد باكية شاكية ، ونزيف جراح يسيل ألماً في آفاق الشعر .





دمعة على أبي

دمعةٌ عليك يا أبي، لا ككل الدموع، وزفرة عليك يا أبي، لا ككل الزفرات، إنك لم تمت، إنما غاب جَسدُكَ المادي عن هذه الحياة المادية، لقد زرعت النجوم في سماء القطيف، وأنبت في دروبها الزهر، والياسمين، وتفجرتَ معين جداول من العلم تسقي العقول الظامئة، وتحيي يبيس ما ذبل من عقول تبلدت على حيرة العتمة، فتُلقي لها أشعتك ليسير على ضوئها السائرون، على ضوء هدي الإسلام، والرسالة المحمدية، وأهل بيته الأطهار.

إنك لم تمت ما دمت أسرجت حرفك شموعاً في كتب معطاءة، كربيع مخضوضرٍ، مخصوصب بالعطاء، تظَلُّ منارة للعقول، وتشير لما سكبته في مدادها من روحك وعقلك، وضحيت بأوقاتك، وراحتك، وكل ما تملكه من طاقات في سبيل إسعاد القطيف، وإرشادها إلى سبيل الحق.

إنك - يا أبي - لم تمت، وإنما مات جسدك، وغابَ عن هذه الحياة، لم تمت يا أبي إنما هي نقلةٌ من دار شقاءٍ إلى دارِ سعادةٍ ونعيم، وخلود دائم.

هكذا نُقلة الأتقياء الذين يخافون الله، ويطبقون أوامِره، وينتهون عن زواجره.

أما حياتك العلمية فلا تزال تمد الأحياء بنميرها العذب، وطاقاتها الحية، فنم هنيئاً لك في الحياة، وفي الأخرى عند ربك جزاء لما قدمته من أعمال صالحة، فرحمك الله، وطيب مثواك، وجعل الجنة لك مقراً، ومقاماً.





لمحة عن حياتي البيئية وحياة أسرتي الخاصة

تحدثت في الصفحات الماضية عن تركي الدراسة، ونزولي إلى ميدان العمل، كما فرضت عليَّ الحياةُ، والظروفُ على رغمٍ منّي، وذلك في شهر ربيع الآخر عام أربعة وسبعين بعد الثلاثمائة والألف هجرية، الموافق أربعة وخمسين بعد التسعمائة والألف ميلادي.

وكانت عائلتي تتكون من زوج، ووالدة، وأربعة أولاد ذكرين وهما: علي، وأديب، وانثيين وهما: فوزية، وفردوس، وأخٍ وهو رسول، وأختين: زينب، وبهية، وخادم مع إبنتها، كل هذه العائلة الصغيرة، أو الكبيرة كنت مسؤولاً عنها، وعن حاجتِها الغذائية الضرورية الملحة الّتي اضطرتني وفرضت عليَّ النزول لميدان العمل.

ولا زال ربي يمدني بنعمه، وإحدى نعمه البنين، حيث رزقت مولوداً أسميته وديعاً، ولد به في مستشفى أرامكوا في يوم الرابع عشر من شهر رمضان المبارك عام خمسة وسبعين بعد الثلاثمائة والألف هجرية، وكانت ولادته في مطلعِ حياتي العملية، وكنت حينئذ أسير في ميدان العمل لأضمد جراح الليالي، وأنشئ أبنائي نشأة إسلامية صالحة.

فبدأت في تعليم البنتين فوزية، وفردوس، ولا توجد في ذلك الظرف مدرسة لتعليم البنات، فأدخلتهم الكتاب عند معلمة على غرار كتاتيب البلدة الذي ينحصرُ تعليم المرأة - في ذلك الوقت - على كتاب الله، وكتابي سيرة الرسول الأعظم - صلى الله عليه وآله - حتى وفاته، ومقتل سيد الشهداء أبي عبدالله الحسين - عليه السلام - (هو الكتاب المسمى بالفخري للطريحي).

ولتطور الحياة في دنيا المرأة، ولهذه العوامل الّتي تعطي المرأة حياةً علميةً تواكب العصر الجديد، نمت فكرة بيني وبين ثلة من ذوي الفكر أن نقوم بطلب إلى حكومتنا الجليلة، ونشرح فيه الحاجة الملحة الّتي يتطلبها هذا العصر الجديد إلى تعليم بناتنا، فدارت بيننا وبين الحكومة مخابرة نطلب فيها فتح مدارس لتعليم البنات، فكان الجواب من المرحوم الملك

سعود بن عبد العزيز آل سعود، عدم الموافقة لمعرفته بأن الظرف الاجتماعي غير صالح لتعليم المرأة.. فلما رأى الصلاح وافق على ذلك قرابة عام أربعة وسبعين بعد الثلاثمائة والألف هجرية، ثم عقب بخطاب لجلالته موقع من المواطنين بتاريخ ١٨/٢/١٣٧٤هـ، يشرح وجهة نظر تعليم المرأة وأن يكون في الأطر الاسلامية، كما نرفق الوثيقة المشار إليها.

وهنا حانت لنا فكرة أُخرى، نخرج منها لطريقِ تعليم البنات، فوصلنا إلى هدفٍ مع ثلة من الشباب: أن نجمع بعض المال ونسلمه للمرحوم حسن صالح الجشي - المتوفى في شهر الحج عام واحد وتسعين بعد الثلاثمائة والألف هجرية، بصفته تاجراً كثير الزورات إلى بيروت، وغيرها، ويأتي بمربيات رسميات تقوم بالتعليم، غير أن حسناً لم ينفذ هذا التخطيط، وأعاد لذوي الاشتراك اشتراكهم.

وبعدها اختمرت فكرة - بعد أن نوقشت على صعيد أفق متبصر للحقيقة مع مجموعة من الشباب المفكر - لإنشاء مدرسة أهلية على حسابنا تفتح أبوابَها لتعليم بناتِنا ، فقمنا وحملنا على أعناقِنا هذا الجهد الشاق في ذلك الوقت ، وتكونت هذه الثلة من : كاتب هذه الخيوط ، والسيد على السيد باقر العوامي ، والسيد حسن العوامي ، وحسن صالح الجشي ، والشيخ عبدالله الخنيزي ، وبدأنا بتنفيذ هذا الحلم السعيد بعد أن عقدنا اتفاقاً مع مساعد صيدلي يُدعى وليداً : أن تقومَ زوجهُ وداد - أردنية الجنسية - بتعليم بناتنا على أن نوجد لها مقراً للتعليم ، وعلى كل طالبة شهرياً عشرة ريالات مع مقعد خشبي ، و « رحلة » للكتابة. واتفقنا على ذلك ، فتولت التعليم زوجه على منهج المدارس الأردنية ، فأدخلت البنتين فوزية ، وفردوس في هذه المدرسة الأهلية الّتي سعيت أنا وزملائي من أجل إيجادها .

وفتحت المدرسة بتاريخ عام ١٣٧٨هجرية تقريباً ، فأوجدنا مقراً للمدرسة ، وهو حسينية العلامة السيد ماجد العوامي ، واستمر التعليم في هذا المقر قرابة أسبوع أو أسبوعين ، وعندما نُمِي هذا الخبر - في أسلاك قولٍ تلاكُ بأحاديث مشوهة نقلت - إلى المرحوم السيد باقر بن السيد علي العوامي - أحد فضلاء طلبة القطيف ، المولود عام ثلاثة بعد الثلاثمائة والألف هجرية ، والمتوفى عام ثمانين بعد الثلاثمائة والألف هجرية - فغضب من أجل هذا الحدث الجديد الذي لم يعايشه ، ولم يرتضِهِ ، ولم يوافق على تعليم المرأة ، فأخرجهم قسراً من الحسينية ، وأغلق أبوابها لأنه لا يرضيه هذا التعليم.

فطار خبر هذا الإغلاق إلى أخي الشيخ حسن - وكان تعليم المرأة يعد في ذلك الظرف من الغرائب، والعجائب، وينظرُ إليه باشمئزاز، وانتقاص، وعلى الرغم من ذلك، تلقى أخي هذا النبأ بصدر رحب وأفق واسع - ، فطلب نقل مقرها إلى حسينية الخنيزي المعروفة بحسينية «الزريب»، واستمر التعليم في هذا المقر فترة زمنية.

غير أنه لكثرة الطالبات، وتعدد بعض الفصول، وإن كانت هذه المدرسةُ الحديثة في شكلها الحقيقي لا تزيدُ على فصلٍ أو فصلينِ، إلا أن المعلمة وداد صعب عليها وحدها إدارة هذه المدرسة فاستقالت، وانفض عقد الطالبات، وبقي بعضهن يرغبنَ في مواصلة مسيرة التعليم، وهنَّ الروائد السابقات اللاتي حملنا أول شهادة إبتدائية في القطيف، فكان علينا البحث عن مُدرسةٍ أُخرى، ومقر آخر، فتعاقدنا مع عبد الستار، أن تقوم زوجه نظيرة بتعليم ما بقي من الطالبات، وهنَّ ست طالبات، وكان مقر التعليم في حي الشريعة قرابة سوق القطيف، في بيت الغُمغام، ورسوم التعليم مع الرحلة، والمقعد الخشبي، كما كانت لم تتغير.

واستمر التعليم برهة من الزمن، وعندما استقالت زوجة عبد الستار عن التعليم ولرغبة الطالبات الملحة للدراسة - قمنا بالبحث عن مقر للمدرسة، فتعاقدنا مع عطوه، وعبد الحفيظ على أن تقوم زوجاهما صفية، ونهى بالتعليم، وكان مقر المدرسة في بيت عبدالله بن عيسى القفاص بحي باب الشمال، يبعد بضعة أمتار عن سور القلعة، وهو يقع غربها، فأدارت التعليم هاتان المعلمتان، لتكون

الفائدة على تحصيل محسوس ، ورسوم التعليم كما كانت لم تتبدل كما أشرنا لها في الدورين التعليميين .

وفي عام واحد وثمانين بعد الثلاثمائة والألف هجرية ، فتح محمد العثمان مدرسة متكاملة المنهجية ، وأوجد بها ما تحتاجه من معلمات ، وكان مَقَرُها بناية مهدي القطري ، تقع في غرب حاضرة القلعة عند بوابتها الرئيسية المعروفة بباب الشمال ، الّتي أزيلت مع سورها ، وارتفع أجور التعليم لكل طالبة شهريا إلى خمسة وعشرين ريالاً مع المقعد الخشبي ، و « رحلة » للكتابة .

وفي النصف الثاني من عام الفتح للتعليم ، دفعت الرئاسة العامة لمدارس البنات تكلفة نصف العام ، وفي العام الثاني تبنتها الرئاسة العامة لمدارس البنات ، فكانت أول مدرسة رسمية حكومية لتعليم البنات تفتح في القطيف عام ١٣٨٢ هجرية ، وبعدها أخذت الدولة على عاتقها تعليم المرأة ، وعممت فتح المدارس في القطيف ، وقراها من ابتدائي ، ومتوسط ، وثانوي.

كما فتحت قسماً خاصاً لتعليم المرأة بجامعة الملك سعود بالرياض ، وكلية في مدينة الدمام تسمى كلية تعليم البنات ، ومضت تشق طريقها .

وتكملة لهذه اللمحة ، وتأكيداً لرغبة الدولة في مواصلة المسيرة التعليمية للمرأة ، فبعد فتح المدارس ، وتعميمها ، وُجد من يرفع عقيرته ، وينكر هذه المسيرة كما روى لي بعض صفحاتها علي الصقير ، أول مندوب لرئاسة مدارس البنات للمنطقة الشرقية .

ومن الصدف أن تمر هذه القصة الإعتراضية حيث كان الصقير في زيارة مع الرئيس العام لمدارس البنات لجلالة الملك المرحوم

سعود في قصره بالناصرة في الرياض، فدخل عليه أبناءُ القصيم، وقدموا اعتراضاً على تعليم المرأة.

فكان جواب الملك لهم مختصراً حاسماً : أنتم غير مجبورين على تعليم بناتكم، ولكن ستمضي هذه المسيرة التعليمية. وإلتفت جلالة الملك للرئيس العام لمدارس البنات، وأمره بفتح المدارس، وتعميمها في القطيف، والإحساء، والدمام، وفي جميع مدن المملكة، وقراها، كما روى لي هذه القصة علي الصقير- المندوب المشار إليه، وهذا العزم الطموح أظهرعلى أن حكومَتنا مصممةٌ على تعليم المرأة في الأطر الإسلامية وقد تم ذلك.

فعممت فتح المدارس في القطيف، وقراها، وبرغم اعتراض المعترضين على مسيرة تعليم المرأة، ولكن الدولة لم تعبأ بهم، وسارت في طريقها حتى تخرجن من هذه المدارس الرائدات الأوائل.

ومن أول مدرسة إبتدائية بالقطيف نذكر أسماء الرائدات الحاملات للشهادة الابتدائية وهنَّ:

فردوس بنت كاتب هذه الخيوط، بتول بنت الأستاذ السيد حسن العوامي، وداد بنت الأستاذ علي حسن أبو السعود، سعاد بنت أحمد حسن المصطفى، ووجيهة بنت أحمد البيات، ومنيرة بنت عبدالله منصور الجشي.

هذه أسماء الرائدات الحاملات أول مشعل من التعليم الجديد، وتمردن على قيود الكتاتيب القديمة البالية.

وبعد تخرجهنَّ من دور الابتدائي عام أربعة وثمانين بعد الثلاثمائة والألف هجرية - على مهاجرها أفضل الصلاة والسلام

- فتح لهنَّ معهد معلمات بمدرستهنَّ ، عام الخامس والثمانين بعد الثلاثمائة والألف هجرية ، واستمر المعهد عاماً دراسيًّا ، إلا أن الرئاسة أغلقته بعد العام في وجوههنَّ .

فرفعنا برقية إلى المغفور له جلالة الملك فيصل ، نطلبُ فيها إعادة المعهد ، ونشكوا الرئاسة في إغلاقه ، فجاء الجواب من جلالة الملك برقاً باسم كاتب هذه الخيوط ، والأستاذ / السيد حسن العوامي ، يأمرنا بمراجعة الرئاسة العامة لمدارس البنات ، ومضمون النص الملكي ما معناه : - قد عمدنا الرئاسة بما يلزم ، - أي بإعادة المعهد ، إلا أن الرئاسة عملت معنا طريقةً دبلوماسية ، ففتحت مدرسة متوسطة ، أو إعدادية ، كما يعبر عنها في مناهج بعض الدول ، عام السادس والثمانين بعد الثلاثمائة والألف هجرية ، بدلَ إعادتها معهد المعلمات .

وسأعود من هذه المسيرة التاريخية إلى محيط حياتي الذاتية ، وما يكتنفه من صعاب جسيمة ، فبرغم العوامل ، والظروف المملوءة بالجهد والعمل ، مازلت أخصص وقتاً أختلسهُ من حياتي عندما أعود من عملي ، وأنفضُ أتعابي ، لتعليم الأبناء ، وتثقيفهم بالمبادئ الإسلامية ، والمعارف المحمدية ، والحياة الفكرية ، وقطعاً من التاريخ ، ولوناً من الشعر والأدب ، فالأب هو مسؤولٌ عن توجيه أبنائِهِ توجيهاً سليماً ، وعن الأسس التربوية الّتي تنشئ الأبناء على الفضيلة والكرامة ، وتبعدهم عن الرذيلة والانحطاط ، فكنت أسايرهم من أول نقطة بدأوها إلى آخر نقطة في حياة التعليم ، لا فرق بين الذكر ، والأنثى .

وبين الأب والابن رباط دقيق، يمتزج بينهما امتزاج الدم في العروق، وهذا الربط الأبوي الذي فيه الابن قطعة من الأب، يحلو لنا أن نستشهد بتصويرٍ واقعيٍ دقيقٍ، فقد صور الإمام علي هذه العلاقة، والرابط العاطفي الذي يشد الأب بولده في كلمات دقيقة رائعة مختصرة مفيدة في قمة الأداء الفني، والتعبير الذي لا يصل إليها بليغ مهما أوتي من البلاغة، فإنه أعظم تصوير لهذه العلاقة، والرابطة، حيث قال الإمام علي عليه السلام:

«بُنيَ حسن وجدتك بعضي، بل وجدتك كُلي حتى كأن الموت لو أتاك أتاني»

ما أصدقها من جملة رائعة، تمثل الواقع الملموس، لأنها حروفُ نَدَّت من أبلغ منطقٍ، وأعظم تعبيرٍ ينحسر عنه جميع بيان البشر، فهو النسخة الكاملة بعد الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - وما يمثل الإمام علي إلا الواقع، وقد استمد الشاعر العربي قبسة من بعض ضوء مضمون هذا التعبير العظيم:

وإنما أبناؤنا بيننا	**أكبادُنا تمشي على الأرض**
لوهبت الريحُ على بعضها	**لامتنعت عيني عن الغمضِ**

أقتبس الشاعر هذا المعنى من كلمة الإمام، وضمنه بيتيه فوفِقَ، غير أنه انحدر وأسفّ ولم يقترب طيرانه حول أفق كلمات الإمام، وكاد يختنقُ لعدم الأكسجين الذي لم يجده في جوه، حيث لايُحلِّق إلى هذا الجو التعبيري، ولا إلى هذا التصوير، وليس فيه

الأداء الفني الذي تصوره كلمة الإمام، فهي كلمات متحركة تدور في الحياة كالشمس في الأفق.

تصور معي: حتى كأن الموت لو أتاك أتاني!..... كيف تجد هذا التصوير الناطق في بلاغة، وإيجاز، وإبداع؟!..... فأين الشاعر في بيتيه من هذه المعاني الّتي تفتح ألف باب من معاني اللغة والبلاغة؟!... فبين هذه الكلمات، وبيتي الشاعر قمة، وسفح، وكفى بالمتكلم وهو عليٌّ صاحب نهج البلاغة، وأفصح من نطق بالضاد بعد رسول الله.

لنرجع القهقرى إلى المحيط الذي دخلنا منه.

كنت مع أبنائي في تربيتهم أراقبهم كربان السفينة يخشى على سفينته من الرياح العاتية، ولم أتخلَّ عن هذه المسؤولية حتى بعد نضوجهم العقلي، وتزويجهم، فإنني لا زلت كالشمعة تحترق لتضيء لهم الدروب، وما في آفاق الحياة من مدلهمات، واضعاً لهم تجاربي كمثل واقعي للسير عليه.

وسواء رضيت الناس بهذه السيرة في التربية أو غضبت، فإنني أعتبر الوالدَ مسؤولاً عن أبنائه منذ فجرهم الأول - أي ميلادهم - حتى نهاية حياة الأب أو حياتهم.

وهذه التربية للأبناء اقتبستها من معلمي الأول، والدي الإمام أبي الحسن الخنيزي، حيث نشأني على هذا المنهج.

ولو تحدثنا عن عناصر الحياة التربوية فإنها جديرةٌ بإعطائنا عنها صورة مقتضبة في إطارٍ ملون بالصور، والظلال.

فالعناصر التي تنشأ عليها النفوس في دور الطفولة واليفاعة والشباب، هي عناصرُ خُلقية بها أسرارٌ تمتد جذورها من المُربي إلى

المربى، فالتعاليمُ الخُلقية كمكارم الأخلاق، والتحلي بضبط النفس في مسيرة هذه الحياة، وغرس بذور المباديء الإسلامية في آفاق نفس الطفل، وتعهدها بالسقي والرعاية لها دورٌ خطيرٌ في نفس الطفل تنمو معه كما ينمو الغصن المخضوضر في روضته حتى يكتسي بالورق الأخضر، ويعطي ثمره النافع في الحياة.

إن علماء التربية وضعوا اسساً لعلم التربية، وقاموا بدراساتٍ، وبحوثٍ غطوا بها مساحاتٍ من الكتب كلها تدور في مدار محيط الخُلق، وما يترتب عليه في دنيا هذا الفتى، أو بكلمةٍ أوسع: الكائن الحي الذي لولا الأخلاقُ، والعقلُ لكان أدنى من الوحش، فالخلقُ هو الذي رفعه وميزه عن هذه الطبقة الوحشية، وجعله إنساناً بمعنى الإنسانية.

وقد اختصر الإسلام هذه الناحية في كلمة موجزة يحتاج شرح معانيها إلى أسفارٍ وهى تدور في حرفٍ مدار الشمس في الآفاق تحت معنى يفسره حرفُ الإستقامة، إن كلمة الإستقامة تعني مفهوماً كلياً، إن هذا الشخص مستقيمٌ، أي مكتمل العناصر التربوية إلا ما شذّ وندر، فإننا لا نستطيع أن نصف أي إنسان بالكمال المطلق لأن الكمال المطلق لخالقنا، ولكن الإنسان يتفاوت في جنسه البشري من شخصٍ لآخر، ولكن كلمة الإستقامة تعطي مجموعة عناصر تربوية، هي من صفات الكُلي لهذا الفرد.

وهذه اللمحة جاءت حيث كنتُ أتحدث وأصور محيط الأبناء وإن كانت هذه اللمحة وقعت كجملة إعتراضية، ولكنها حشوٌ

مُجَمل كما يقول البلغاء لذلك نعود فنتحدث عن مسؤولية الأب عن أبنائه، فيجدر بي أن أعطي لمحة موجزة عن أبنائي وفاء لتربيتهم، ولأنهم جزء لا يتجزأ من حياتي.

فنبدأ بأول ولد أنثى رُزقته، وكان فاتحة الأبناء وهي بتول، قد ولد بها في عام الثالث والستين بعد الثلاثمائة والألف هجرية، وماتت وعمرها ستة شهور قبل أن يختار الله أبي.

ثم رزقت ولداً أنثى أسميتها فوزية، ولد بها في التاسع عشر من شهر رمضان المبارك عام أربعة وستين بعد الثلاثمائة والألف هجرية، الموافق السابع والعشرين من شهر أغسطس عام الخامس والأربعين بعد التسعمائة والألف ميلادية، وهي أكبر الأولاد بعد رحيلِ أختها بتول، وقد علمتُها، وأدخلتُها الكتاكيب الذي كان يسيرُ على غرار الكتاتيب النسائية للبلدة، حيث أن المعلمة تعلم كتاب الله، وكتابي سيرة الرسول - صلى الله عليه وآله -، وسيرة أبي الأحرار الحسين بن علي، فلا خط، ولا حساب، ولا رياضة، فهو مقصور على هذه المنهجية.

وعندما فُتِحَت أول مدرسة أهلية، كانت إحدى الرائدات بها، وبعد فتح مدارس الدولة أدخلتها مدارسها، غير إنها تعلقت بزميلة لها لا تحب العلم فشجعتها على ترك الدراسة، فلم تواصلها، وقطعت شوطها، وهي في الصف السادس الابتدائي، برغم تهديدي بقطع مرتبها إذا لم تواصل دراستها، ولم يفد بها التهديد حيث أنها أيقنت بأنني لا أقطعه، ولكنها تجيد القراءة في أي كتاب، وتستطيع أن تكتب ما تَحتَاجهُ.

وقد نظمت فيها قطعة شعرية حين زفافها على كامل سلمان العبدالهادي الحبيب بتاريخ الثاني والعشرين من شهر ربيع الآخر عام ثمانية وثمانين بعد الثلاثمائة والألف هجرية ، الموافق الثامن عشر من شهر يوليو عام ثمانية وستين بعد التسعمائة والألف ميلادية .

وقد أصبح أبناؤها بعد وفاة والدهم كامل الّتي وافته المنية في ربيع الشباب تحت رعايتي ، ورعاية عمهم سعيد سلمان العبدالهادي ، فكانوا نعم الأبناء وهم تحت أوامري ، وقد أشرنا إلى السبطة هند فيما قامت به من كتابة ، أما إخوانها هاني ، وعبدالهادي ، وفراس ، فلا يخرجون عما أطلبه منهم من خدمة أبناء لأبيهم ، ونذكر مقطعاً من القصيدة الّتي أشرت لها :

فوزُ ! ياحلمِي النديَّ الأماني !	أنت مثلُ الربيع في الأزمان !
أنت يافوزُ ! للجمالِ مثالٌ	عبقريُ البها ، دقيقُ المعاني
أنت ما أنت ؟ أنت معنىً من السحر	تجلى في صورة الإنسان
لكِ قلبٌ فيْ الطهرِ مثل نطاف المزن	يهمي على ذرى الأغصانِ

ثم رزقت بعدها ولدا أنثى أسميتها : فردوس ، المولود بها في الثامن عشر من رجب الأصب عام سبعة وستين بعد الثلاثمائة والألف هجرية ، الموافق السابع والعشرين من شهر مايو عام ثمانية وأربعين بعد التسعمائة والألف ميلادية ، وقد قمت بإدخالها ، وتعليمها في الكتّاب ، وهو على منهجية ما رسمناه ، وأشرنا إليه ، وشرحنا طبيعة التعليم فيهِ في الصفحات الّتي تحدثنا فيها عن أختها فوزية ، وربيتُها التربية المثالية .

وعندما فُتحت المدارس الأهلية، كانت إحدى روادها مع أختها، ولما فتحت الدولة المدارس الرسمية للبنات أدخلتُها مع أختها فوزية المدرسة، فكانت فردوس من الرواد الأوائل في القطيف، وأنهت مراحل التعليم الّتي كانت مفتوحة للبنات في ذلك الظرف، حتى أصبحت معلمة تعلم في مدارس الدولة الرسمية، وارتفعت مرتبتُها إلى مديرة مدرسة.

ولديها فطرةٌ سليمةٌ، وعقلٌ متفتحٌ ذكي، وتستطيع أن تكتب بعض المقالات الإنشائية، وقد كتبت مقدمة لديوان مدينة الدراري طبعت معهُ، وكانت تتبادل الرسائل - قبل زواجها - مع مثيلاتِها من الأديبات، وأنا فخور بهؤلاء الأبناء الذين يمثلون حياة الأدب، والأخلاق، وأدعو الله لهم بالتوفيق في الدنيا، والآخرة.

وقد قلت فيها قصيدة حين زفافها في ليلة الثاني والعشرين من شهر ربيع الآخر عام الثمانية والثمانين بعد الثلاثمائة والألف هجرية، الموافق الثامن عشر من شهر يوليو عام ثمانية وستين بعد التسعمائة والألف ميلادية على زوجها الأستاذ سعيد سلمان العبدالهادي الحبيب. نذكر منها مقطعاً:

فردوس ! ياجنة الأحلام والأدب	ووثبة من شباب جدّ ملتهب
فأنت في عقلك الصافي كمدرسة	تثقفين بنات الجيل بالكتب
وأنت رائدةٌ للعلم في بلد	نساؤها جامدات العقل كالخشب
فَتحتِ عقلك في علم ومعرفة	سقاك من كوبها الملآن خيرُ أب
فردوس ! يا روضة غناء زاهية	قد فتحتْ بشباب ناعم عذب

ثم رزقت ولداً ذكراً أسميته: علياً تبركاً باسم والدي، وإحياءً له، ولد به بمستشفى أرامكو في اليوم الثامن والعشرين من شهر صفر عام الواحد والسبعين بعد الثلاثمائة والألف هجرية، الموافق يوم الثامن والعشرين من شهر نوفمبر عام الواحد والخمسين بعد التسعمائة والألف ميلادية، وقد ربيتُه تربية إسلامية مثالية.

وعلي هو شعلة من الذكاء، ويمتاز بهدوءٍ، وصفاء كصفاء الفجر، وله أناقةٌ، وذوق شفافان، وطابعٌ يميزه بالنظافة فالنظافة من الإيمان.

فكانت أبواب التعليم في المدارس مفتوحة أمامه، فطوى مراحل التعليم الإبتدائي، والمتوسط، والثانوي، حتى التحق بجامعة الملك سعود بالرياض، واختار كلية التربية ليكون مربياً ينشئ الأجيال حتى تحصل على الشهادة الجامعية، وأصبح مدرساً للأسس التربوية في علم النفس.

وعندما بلغ مرحلة الزواج زوجتُه على الآنسة أفراح كريمة عبدالرسول صالح الجشي، في ليلة الثامن عشر من شعبان عام أربعمائة والألف هجرية.

وبعد زواجه بَعَثَته الدولة لشهادة الماجستير في علم النفس للولايات المتحدة، غير أنه ما كاد يلُقي مراسيه، ويستقر بها حتى حنَّ إلى حياته الجديدة، وطغى عنده الشوق إلى عروسه الحديث العهد الزواج بها، وخَلفها في وطنه فأقفل راجعاً على أجنحة من الشوق والحنين، ثم ارتفعت رتبته الوظيفية حتى صار مديراً للثانوية.

ثم رزقت ولداً ذكراً أسميته : أديباً ، ولد به في مستشفى أرامكوا في اليوم الخامس من شهر شعبان عام الثالث والسبعين بعد الثلاثمائة والألف هجرية ، الموافق يوم التاسع من شهر إبريل عام الرابع والخمسين بعد التسعمائة والألف ميلادية ، وهذه التسمية بمناسبة ما كنت أكتبه في مجلة الأديب ، وأنشر فيها .

وأديب كان شعلة من الفكر ، والذكاء ، ولا سيما في الرياضيات ، والعلوم الّتي تحتاج إلى رياضة من الفكر ، والعقل ، وتعمق ، فهو في هدوئه، وصفائه يشبه صفاء البدر في مياه النهر .

وقد ربيته تربية مثالية إسلامية ، فأدخلته المدرسة فاجتاز أدوار التعليم بكل نشاط ، وتفوق حتى وصل إلى المرحلة الجامعية ، فدخل جامعة الملك فهد للبترول والمعادن بالظهران التي أسست بتاريخ ١٣٨٣ ه - ١٩٦٣م وكانت في ذلك الظرف من أرقى الجامعات وحتى هذه الساعة مع فارق ، حيث كانت مراحل التدريس سابقاً كُلها باللغة الإنجليزية ، ولهذه الظاهرة كانت الدراسة فيها عميقة ، ودقيقة ، وشاقة.

فلهذه العوامل يتكبكب بعض الطلاب فلا يجتازون مراحلها ، لأن الطالب لسانه عربي ، ولا يجُودُ في لغةٍ غريبة عليه إلا بعد صعوبة ، فاجتاز أديب المرحلة التعليمية فيها حتى حصل على الشهادة الجامعية في قسم الفيزياء بتفوق على أقرانه.

وبعد تخرجه عين موظفاً في وزارة البترول ، وبعد فترة من عمله في الوزارة إرتأَتْ وزارة البترول لما يحمله من مؤهلات علمية وفكرية ، أن تبتعثه لإكمال دراستِهِ العُليا إلى أمريكا ، فحاز على

درجة الماجستير في هندسة البترول، وذلك عام واحد بعد الأربعمائة والألف هجرية، الموافق واحد وثمانين بعد التسعمائة والألف ميلادي.

وعندما بلغ مرحلة الزواج زوجته على الآنسة/ نادرة كريمة سعيد حسين السنان، في ليلة الثامن من شهر شوال عام ثلاثة بعد الأربعمائة والألف هجرية.

فعاد للولايات المتحدة ليواصل مشواره في الدراسة ليحوز على درجة الدكتوراه في علوم الأرض الفيزيائية «الجيوفيزياء»، وبعد إكماله شوطه الدراسي توقفت شهادة الدكتوراه على تقديم البحث المخصص من أساتذته لنيل شهادة الدكتوراه، ولم يقدمه حتى الآن، وتقع هذه الجامعة بالولايات المتحدة بولاية «بنسلفانيا»، ونحن نطالبه بتقديم هذا البحث ليحصل على درجة الدكتوراه، ولكن طموحه الوثاب أثار فيه حب العلم فالتحق بجامعة «هال» ببريطانيا لدراسة الدكتوراة في إدارة الأعمال في الإقتصاد البترولي وذلك في شهر فبراير عام الثامنة والتسعين بعد التسعمائة والألف ميلادي، كما نسج من بنت أفكاره مجموعتين خطيتين: نثرية «ألوانٌ من الكلم»، وشعرية «حروفٌ ملونة».

وقد رزقت ولداً ذكراً اسميته: وديعاً، ولد به في مستشفى أرامكوا، في اليوم الرابع عشر من شهر رمضان المبارك عام خمسة وسبعين بعد الثلاثمائة والألف هجرية، الموافق يوم الرابع والعشرين من شهر إبريل عام السادس والخمسين بعد التسعمائة والألف ميلادية. ووديع يتمتعُ بعقلية ذهنية تستوعبُ ما تمر عليه،

وتلتقط المناظر الفكرية ، كما تلتقط عدسة المصور المناظر الطبيعية ، ويتمتع بحلم وهو لا تثيره عواصف الغضب ، وقد ربيته تربية مثالية إسلامية ، أدخلته المدارس فاجتاز مراحل التعليم .

وبعد أن حاز على شهادة الثانوية العامة القسم العلمي ، ونمت عنده ميول تتعلق بدراسة الطب ، ورغبة نفسية تدفعه إلى هذه الحياة المليئة بالتعب ، ولمؤهلاته العلمية ، والفكرية الطموحة اختارته وزارة الصحة مع ثلة من المتخرجين من الثانوية لإبتعاثهم إلى الجامعة الأمريكية ببيروت في شهر رمضان المبارك عام خمسة وتسعين بعد الثلاثمائة والألف هجرية .

غير أن عوامل الحرب الأهلية المشتعلة لهباً تأكل ما تلقمه من البشر ، والقائمة على عدم الاستقرار ، والمتأرجحة على أجنحة الرصاص ، كل هذه العوامل دعت الدولة السعودية حفاظاً على أبنائها إلى قطع دراستهم ، وإعادتهم إلى أوطانهم.

وبعد عودتهم قررت الدولة إرسالهم إلى مدينة لندن المملكة المتحدة في شهر ذي القعدة عام خمسة وتسعين بعد الثلاثمائة والألف هجرية ، فكان وديع أحد المبتعثين لدراسة الطب البشري ، فدرس في جامعات بريطانيا ، وجامعات ايرلندا ، وكان يعي كل ما يدرسه بتأمل ، وتفوق حتى تخرج طبيباً عاماً من الجامعة الملكية للجراحين بإيرلندا ، وزاول نشاطه الطبي في مستشفيات بريطانيا ، وإيرلندا ، وبعدها أقفل راجعا إلى وطنه في شهر ذي القعدة عام ستة بعد الأربعمائة والألف هجرية ، الموافق ستة وثمانين بعد التسعمائة والألف ميلادية ، والتحق بالسلك الوظيفي بأرامكو،

يعمل طبيبا في مستشفاها ، وحين بلغ سن الزواج زوجته على الآنسة / أنهار كريمة عبدالرسول صالح الجشي ، وذلك ليلة السابع والعشرين من شعبان عام سبعة بعد الأربعمائة والألف هجرية ، الموافق عام سبعة وثمانين بعد التسعمائة والألف ميلادي ، وبذل في رسالته الطبية إخلاصاً وجهداً ، أعطياه مكانة مرموقة ، وأهله نبوغه ، ونشاطه ، وطموحه أن تبتعثه أرامكو إلى الولايات المتحدة الأمريكية من أجل أن يتخصص كطبيب أخصائي باطني ، فأرسلته للدراسة التمهيدية إلى ولاية «لويزيانا» عام ثمانية بعد الأربعمائة والألف هجرية ، وبعد اجتيازه المرحلة التمهيدية ، ونجاحه حتى يتخصص للدراسة التخصصية الباطنية ، عاد إلى وطنه.

وبعد عام أرسلته السعودية أرامكوا لدراسة التخصص للولايات المتحدة إلى ولاية «إنديانا» بمدينة «إنديا نابلس» عام تسعة بعد الأربعمائة والألف هجري ، وبعد ثلاثة أعوام قضاها في الدراسة التخصصية في الباطنية عاد يحمل شارة النجاح في الدور الذي أهل له ، حتى حاز على شهادة البورد الأمريكية للأمراض الباطنية ، أو الدكتوراه في بعض اللغات.

ولا يزال يمارس هذه الرسالة الإنسانية في مستشفى السعودية أرامكوا ، ولكن طموحه المشبوب وأمله المتوثب وشوقه التألقي لأخذ نواحٍ من العلم متطورة وتخصصات أخرى كل هذا دفعه أن تبتعثه شركة السعودية أرامكوا إلى ولاية تكساس مدينة هيوستن المشهورة بتقدمها التكنولوجي الطبي العلمي ليتخصص في الأمراض الروماتزميه فتم سفره في يوم السبت ٢٦/٧/١٩٩٧م

الموافق الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول عام الثامن عشر بعد الألف والربعمائة هجرية ، أسأل الله له التوفيق والنجاح في مهمته.

السادس من الأبناء أسميته : نبيهًا ، المولود في يوم التاسع والعشرين من شهر شوال عام السابع والسبعين بعد الثلاثمائة والألف هجرية ، الموافق اليوم الثامن عشر من شهر مايو عام الثامن والخمسين بعد التسعمائة والألف ميلادية ، ولد به في بيتي بعد أن أحضرت قابلة فنية مع ممرضة.

ونبيه كان مثالاً للعقل الواعي يحفظ في صغره كل ما يمر عليه ، ودرج في حياته على التعلق بي فكان كالظل لي لا يفارقني إلا أوقات النوم ، أو أيام الدراسة ، وقد ربيته تربية إسلامية مثاليه ، أدخلته المدارس فاجتاز مراحل التعليم بتفوق.

وبعد أن تخرج من الثانوية العامة القسم العلمي ، فرض عليه طموحه الإلتحاق بجامعة الملك عبد العزيز بجده ، وتخصص في الأعمال الإدارية ، فتخرج من الجامعة المذكورة يحمل شهادة في التنظيم الإداري ، بعد أن قدم بحثاً خاصًّا بالتنظيم الإداري ، والكمبيوتر ، وقدمه للجامعة فتحصل على الشهادة الجامعية ، وذلك عام ١٤٠٤/١٤٠٥ هجرية.

وبعد تخرجه إلتحق في سلك العمل الوظيفي في وزارة البرق والبريد قسم الهاتف .

ولما بلغ مرحلة الزواج زوجته على الآنسة/ نسرين بنت عمهِ كريمة الشيخ عبدالله الشيخ علي الخنيزي ، في شهر رمضان المبارك عام ستة بعد الأربعمائة والألف هجرية ، الموافق عام ستة وثمانين بعد التسعمائة والألف ميلادية .

وقد انتقل عمله من قسم الهاتف إلى دائرة البرق، ولم يزل طموحه يدفعه للإنتهال، والازدياد من العلم، حيث سجل في إحدى جامعات القاهرة، غير أن هناك عوامل ظرفية حالت بينه، وبين مواصلتهِ للدراسات العُليا، وكان مطيعاً لي وأسأل الله له التوفيق.

وتكملة لحياتهم فقد بذلت ما أملكه، واحترقت كالشمعة لأضيء دروبَهم، وهيأت لهم ظلال العيش الرغيد، والبيت الذي يظلهم، ويؤويهم، هم وما ينجبون من فلذات.

هذه لمحة مقتضبة عن أبنائي، أو قل عن فلذات قلبي بإيجاز لأنهم فصل من صميم حياتي، لا بل كياني.

كما بقي ولدان لم أذكرهما لأنهما توفاهما اللهُ، واحد منهما ولد أنثى وهي وداد، ولد بها في يوم الأحد العاشِر من شعبان عام تسعة وستين بعد الثلاثمائة والألف هجرية، وتوفيت في الخامس عشر من ربيع الثاني عام سبعين بعد الثلاثمائة والألف هجرية، ولها من العمر قرابة ثمانية شهور، لكن تذكر هنا لتكملة السلسلة ليكون الفصل مكتملاً.

و ولد ذكر أسميته: حسيناً، ولد في يوم الثالث من شهر صفر عام ثمانين بعد الثلاثمائة والألف هجرية، الموافق يوم الثامن والعشرين من شهر يوليو عام ستين بعد التسعمائة والألف ميلادية، وقد أمضى من العمر سبع سنوات، أو قرابة الثمان يجرر أذيال المرض.

وقضى هذه الأعوام كلها في الآلام حتى نمى عنده الألم والتبرم رغبةً في مفارقة الحياة، وهو لا يزال بُرعماً وسراً مكنوناً في عالم الصغر، لأنه كان شعلة من الذكاء، ولم يؤثر على عقله هذا المرض الطويل، وإن أثر على جسمه النحيف الشاحب، فقد كان يتمتع

بقوة ذاكرة، وعقل مشبوب، يحمل فكراً كفكر رجل يعي مضامين هذه الحياة، ومرّ بصورها المتناقضة.

وعاش طيلة هذه الفترة من حياته دواؤهُ الدم، يُغَذى به عن طريق وريده، وهذه التغذية بالدم لابد أن تكون من فصيلة دمه، وإذا لم يُعطَ هذه الكمية يذبل كما تذبل الشمعة، وينطفأ كما تنطفأ.

ومن قوة عقله، وذكائه اللذين يصبرانه، ويخففان مأساته، ويرشدانه إلى بعيد المرمى في هذه الحياة المحفوفة بالألم فتنبعثُ من أعماقهِ كلماتٍ تحمل التبرم، فقال لي يوماً وأنا أدخله المستشفى لتنويمه: يا أبتي إنك ترهق نفسك، وتجهدها في سبيل إعطائي هذه الكمية من الدم، وإذا لم يكن الدم مدده من ربي فلا فائدة منه، وإنني أودُّ أن أموتَ خيراً لي من هذه الحياة.

لقد ترجمت مضمون كلامه، ولم أسلبه معناه للدلالة على قدرة الله وإظهارها، لعلها تعتبرُ هذه البشرية، فأنت ترى طفلاً مهزوزاً بالمرض أتى على جميع حركاته فأسكنها، وهذا المرض هو الثلسيميا، الذي لم يؤثر على نبوغ عقله، وتفكيره السليم حتى اختاره الله إلى جواره في الساعة الخامسة والنصف بالتوقيت الغروبي ليلة الأربعاء الموافق الثاني عشر من شوال عام ثمانية وثمانين بعد الثلاثمائة والألف هجرية، مساء الثلاثاء الموافق واحد وثلاثين من شهر ديسمبر عام ثمانية وستين بعد التسعمائة والألف ميلادية.

والدليل على قدرة الله ما يحمله هذا الطفل المهزوز الجسم المحطم الأركان، فهو يتمتع بصفات عقلية غريبة، ومن غرائبها ما رواه لي عنه مدير شرطة منطقة القطيف، عبدالله المغلوث، حيث

كان مراجعاً مع زوجه مستشفى أرامكوا بالظهران، فعلم أن ابني حسيناً منوم بالمستشفى، ولما يتمتع به هذا الضابط من أخلاق رفيعة، وتقدير لي زاره، وأخذ يداعبه ليخفف آلامَهُ فطرح عليه علامة استفهام، وهو يضاحكه ليختبره بعد أن قدم له سؤالاً عن اسمه، واسم أبيه، ونسبه، وهو يجيبه على أسئلته، وشوكة الدم في وريده، ولما رأى صبره، وعقله، طرح عليه نكتةَ عبث، وهزل، أيُنا أجمل أنا أم زوجي ؟ .

فرد حسين على نكتته، وعبثه بضحكة تماثلها ، وفيها مجاملة، أنت أجمل منها ، فأفرخ روعه، وارتاح لهذا الجواب، ولإعجابه لهذا الرد الذكي قص مدير الشرطة عليَّ هذه القصة .

ومن عقليته، وعبقريته ما رأيته منه في آخر تنويمة له في المستشفى المركزي بمدينة الدمام، وقبل أن أجتاز معه البهو إلى غرفة تنويمه شبك على يدي بقوة، وما كاد أن يفك كفه من كفي، وهو كله صمت، ونظرات حائرة لعلها إشاراتُ لانطفاء الشمعة، وخمود أضواء هذا الفانوس في ساعة غروبه.

وكان - قبل - يوزع النظرات على المحاني عندما تمر بنا السيارة في طريقها للمستشفى، كما حانت منه إلتفاتة عميقة إلى دار الإذاعة الواقعة على مشارف سيهات بالقطيف .

وأكثر أيام حياته قضاها في المصحات تنام معه أمه برغم العوامل الظرفية والزمنية الّتي تكتنف محيط بيتي، لأن الأبناء في ذلك الوقت كلهم يدرسون في المدارس، وحتى وقت الإمتحانات لا تتركه والدتهُ، فنعيش في ظرف معصوصب، وجو قاتم .

وهذه التنويمة الختامية لم ترافقه فيها أمه ولله الأسرار ، حيث نومنا معه امرأة بأجر عن طريق ابن أختي السيد أحمد بن السيد سعيد العوامي الرجل المؤمن المتوفى في يوم الأول من شهر محرم عام اثنين بعد الأربعمائة والألف هجرية فكان حسين في هذه التنويمة منقبضاً منكمشاً على نفسه ، فأعزيت هذه الظاهرة للمرأة المرافقة الّتي لم يألفها ، ولم يستأنس لها .

وبرغم استعجالي لطلبِ تحضير الدم الذي هو زاد له ، يعيش به في حياته ،حيثُ دفعت ثمن السيارة للأتيان به على جناح السرعة ، وهو الدواء الوحيد له ، ولكن الدواء في هذه المرة لم يكن فيه الشفاء ، ففارق الحياة ، وشوكة الدم في وريده فلا حول ولا قوة إلا بالله ، وإنَّا للّه وإنَّا إليه راجعون وبعدها عرفت ما وراء السر من انقباض ، وانكماش ، إنها ساعة الرحيل الّتي لا مفر منها لهذه البشرية .

وكتبت فيه قصائد تُجسد حياته المؤلمة المهزوزة الثابتة خطاه فيها ، وكلها قد طبعت في ديوان كانوا على الدرب نذكر من بعض القصائد مقطعاً :

ذهبتَ إلى مصحّ في الصَّباح	وطيف الموت في كل النواحي
نظرت إلى سريرك في ذهولِ	تودعه بألفاظ فصاحِ
تقول : أبي ! وصوتك في خشوعِ	دنا أجلي وقد حان انتزاحي
ودَني لم يُفَض الختم عنه	ولم يطلع على الدنيا براح
وبرعم زهري الفواح لما	يُفتح جفنه نور الصباح
لبست الداء طول العمر بُرداً	موشى بالمآسي والمناحي
وكنت تعوم في صمت عميق	كأنك وسط ميدان الكفاحِ

هذه خطوط من حياة فلذات قلبي ، ونجومُ سماء بيتي الّتي أنجبتُها من زوج واحد ، وهي السيدة خاتون الشيخ محمد صالح المبارك ، لأنني لم اتزوج غيرها .

وهذه الفلذات نشّأتُها على خط الاستقامة منذ صِغَرِها بما ألقيه لها من دروس تربوية ، ومبادىء اسلامية وخُلقية ، فنما عندها خلقٌ كريمٌ حتى في طفولتها لا يصل لها العبث فتحطم دُماها كما يفعل الأطفال الآخرون ، ولا يقومون بأعمال صبيانية طائشة ، فيعبثون في البيت أمام الزائرين ، ويتحلون بحياء ، وخلق ، وهذه العناصر الخُلقية كان سببُها التعاليم المثالية والتوعية الحسية وذوبان طبقة الابوة ورهبتها حتى انصهرت وتحولت إلى صداقة وهتكت أستار العنجهية فصرت معهم كواحد منهم يتناقشون معي حول الأفكار العلمية ، وفي الأغراض الدنيوية ، وفي تخطيط حياتي الخاصة والعامة ، وعندما يصيب رأيهم الواقع أعمل به بدون إستنكافٍ أو تكبر ، وللقضاء على هذه الرهبة صرت امارس معهم بعض اللعب كلعبة التيلة ، وآونة حياة جدية فأضع لهم الجوائز في مسابقات خطية ، وشعرية ، وفكرية.

كما قاموا بتسجيل ، وتدوين ما ألهمنيه إياه ربي من شعر ، أو نثر ، إلا أن البنت فردوس كانت أكثر انصياعاً لي ، فكانت تمثل السكرتيرة في المطالعة ، والكتابة ، وحتى بعد زواجها ، وإلى كتابة هذه السطور ، وأعمالي الأدبية تشهد لها بذلك ، وإنها تمثل في حياتها الأبوية الأم ، والبنت حتى صارت تعرف كل أسراري ، وتحمل قلباً عاطفياً رقيقاً ، فهي تحب أباها ، وأمها ، وإخوانها ، وأبناءها ، وتتألم ، وتتأثر تأثراً عميقا بأي أثر يلمُ بأهلها وأقاربها .

ولم تقصر مشاركتها في نشاطي الأدبي، حتى جندت أبناءَها لأعمالي الأدبية فيما أكتبه من نثر، أو شعر، وغير ذلك، ولاسيما حسام فقد قام بقسط وافر في هذه الأعمال فيعدُ في الطليعة الأولى، ولا يزال ابناً باراً تحت أوامري.

وقد كتب مقدمةً لديوان «كانوا على الدرب» طبعت معه، وقد تخرج من كلية الطب في الثاني من ربيع الأول عام سبعة عشر بعد الأربعمائة والألف هجرية، الموافق السابع عشر من يوليو عام ستة وتسعين بعد التسعمائة والألف الميلادية، وحاز على شهادة البكلريوس في الطب والجراحة البشرية ويعمل في قسم جراحة المخ والأعصاب.

وبسام حيث كتب من هذا الكتاب فصولاً، وهو يدرس في جامعة البترول، والدكتورسائد الذي تخرج طبيبا من جامعة الملك سعود بالرياض ويتخصص في قسم الجراحة، فقد قام ببعض الأعمال غير كتابة الحرف، وهم أبناء الأستاذ/ سعيد سلمان العبدالهادي الحبيب أتمنى لهم جميعا التوفيق، فهم يمثلون مع إختهم غادة، وإخوانهم والدتهم في حبها، وعطفها لأبيها.

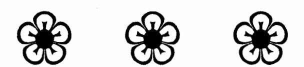
ووالدهم الأستاذ سعيد أسهم في الحياة الوطنية بالقطيف فقد أشتغل بمهنة التدريس مُدَرِّسًا في إحدى مدارس مدينة الخبر لمدة سنتين، ثم صار مديراً لمدرسة الجش، كما صار عضواً في لجنة التثمين للعقارات الّتي تقطعها بلدية القطيف لصالح المشاريع الحيوية، وعضوا في اللجنة الأهلية في مركز شئون الخدمة

الإجتماعية، وعضواً في المجلس البلدي، ورئيساً لنادي الترجي الرياضي[1].

ووالد الأستاذ سعيد هو: سلمان بن عبدالهادي، كان من أكبر زعماء القطيف، والشخصيات المنظورين بالكرم، والنجدة وقد توفاه الله في شهر شوال عام السابع والسبعين بعد الثلاثمائة والألف هجري.

كما فهمت من إبنه الأكبر علي: أنه باع ثلث ما يملك من نخيل على التاجر البحراني يوسف بن عبدالرحمن فخرو، ليقوم بالإنفاق على أهالي صفوى، الذين ذهبوا إلى البحرين في الأزمة الخانقة المعصوصبة، التي مرّت بسماء القطيف عامة، كما ذكر هذه القصة حمزة الحسن في كتابه.

هذه لمحة قصيرة أردت أن أكمل بها هذه الخيوط.

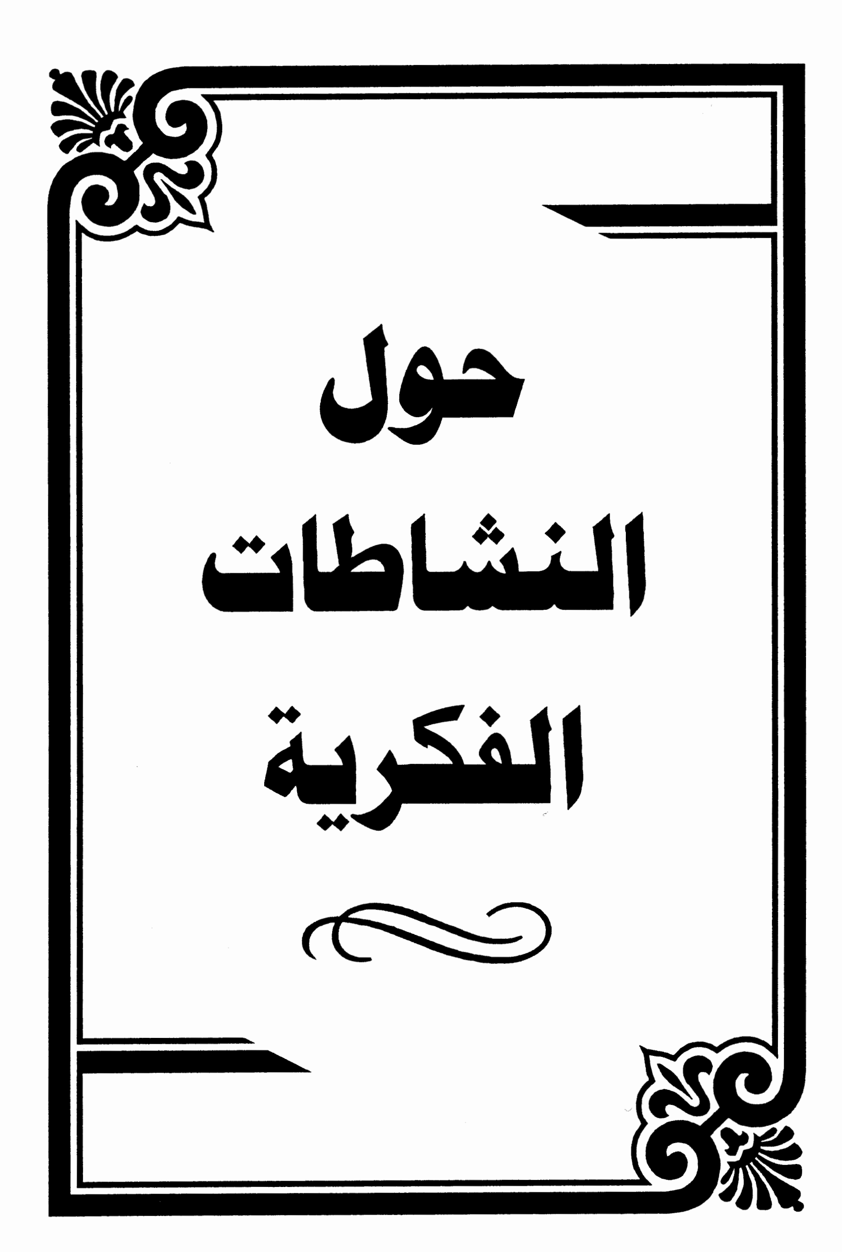


---

(١) أنشأ الأستاذ سعيد نادي الوحدة ثم الشباب ثم السلام، وقام ـ بعد ذلك ـ بضم السلام والشباب ليصبحا الخط، ثم أصبح رئيساً لنادي الشاطئ، وقام بجهود حثيثة حتى استطاع توحيد الناديين: الشاطئ و البدر، ليصبحا نادي الترجي بالأمر رقم ١/٣١٩٦ في ١٤٠١/١٠/٢٢ هـ.

* أول النوادي التي أنشأت في القطيف هي البدرو التآلف.

* أنشأ نادي الشاطئ بالأمر رقم: ٧٧٦ في ٣٠ /١٣٨٨/٧ هـ.



حول النشاطات الفكرية

فلنعد إلى الحياة الأدبية ، والنشاطات الفكرية ، فكان لـي بعض الأدوار مثلتها في الحياة الفكرية مضافاً إلى كتابتي الشعر ، والنثر في الصحف كمجلة الأديب ، والعرفان ، والألواح ، والنهج ، والمعارف اللبنانيات ، والكتاب المصرية ، وصحف أخرى سبق ذكرها .

فقد اشتركت في مناسبات ، واحتفالات دينية ، وأول احتفال ديني اشتركتُ فيه أقامه المرحوم عبدالله اخوان في حسينية الجشي بالقلعة ، بمناسبة يوم العشرين من شهر صفر ذكرى الإمام أبي عبدالله الحسين ، عام الخامس والستين بعد الثلاثمائة والألف هجري ، وهذا الاحتفال أُقيم على طريقة منهجية حديثة ، حيث يقف الخطيب أمام منصة مغلفة بقماش من السواد ، إذا كان الاحتفال يعبر عن صورة حزن ، أو بقماش أخضر ، إذا كان الاحتفال يعبر عن فرح وسرور.

فتتعاقب الخطباء أمام هذه المنصة المخصصة للملقين ، ولم يسبق قبل هذا الاحتفال احتفال على هذه المنهجية الجديدة في القطيف إلا ما سبقه من إحتفال لذكرى أربعين الإمام الخنيزي.

غير أنني لم يحالفني التوفيق في إلقاء القصيدة الّتي خصصتها في هذه المناسبة ، ولا في الشعر ذاته فأهملت القصيدة تضيع مع الأمس .

فإخفاقي في هذا الإلقاء، ولّد لي عقدة، وأطياف تجثُم، وتنتشر في دربي عندما أحاول أن أتقدم للإلقاء في محفل من المحافل الفكرية العامة، فأوقفتني هذه العقدة عن الإلقاء مدة طويلة.

ولكن شاء الله أن أتغلب عليها في مناسبة من المناسبات المرموقة المعدودة في احتفال أدبي عالمي، عندما دعيت للإشتراك في مؤتمر للشعر الخليجي، الّذي أقامته الرئاسة العامة لرعاية الشباب بالرياض في الفترة من الخامس عشر حتى الثاني والعشرين من شهر جمادى الآخر عام الثمانية بعد الأربعمائة والألف هجرية، الموافق في الفترة من ثلاثة فبراير حتى يوم العاشر منه عام ثمانية وثمانين بعد التسعمائة والألف ميلادية.

وقد جاء اشتراكي هذا بطلب من اللجنة الّتي تشرف على الاحتفال ويرأسها عبدالله شهيل ممثل رئاسة رعاية الشباب بالمملكة وكانت الدعوة لي خطياً تنص على أن أمثل المملكة في فاتحة الحفل، فقد صحبت معي سبطي الدكتور حسام سعيد سلمان الحبيب، وكتبت قصيدة تصف معالم التاريخ القديم، وصورهُ بهذه الربوع.

وعندما وصلتُ إلى مقر الضيافة للإحتفال وجدتُ المشتركين فيه من كبار أدُباء الأقطار العربية والخليج، فترددت في أن أقف وألقي قصيدتي بنفسي بسبب الأشباح والمخاوف، الّتي سبق لها أن تلبدت، وضببت طريق الإلقاء، فطلبت من بعض الزملاء أن يمثلوني في الإلقاء، فامتنعوا تهيباً من الموقف، فهنا فرض علي الموقف أن أنفضَ هذه الأشباح، وأبخر هذا الضباب بإرادة حديدية، وعزمٍ قوي والاختراع وليد التجربة، أو التجربة وليدة الاختراع.

وفي ضوء هذه المقالة خطوت بخطوات فيها شوط العزم والطموح، فوقفت عند المنصة، وألقيتُ قصيدتي، فكان لها وقعٌ في هذا الحفل، وإعجابٌ بالشعر والإلقاء من المحتفلين، فحزت على درجة تجعلني من الملقين المجيدين.

وقد بلغ هذا الاحتفال شوطاً في الفكر والأدب في قاعة احتفالات الملك فيصل، وفي بهو فندق قصر الرياض، حيث إقامة المؤتمرين به، فقد شهد البهو مناقشات فكريه تدور حول التاريخ والشعر، والأساليب الشعريةِ بين الحداثة، والقدم،والرومانسية، والكلاسيكية.

وتستمر هذه المناقشات في هذا البهو إلى هزيع متأخر من الليل، وكان أحدُ أقطابها الأستاذ خالد سعود الزيد من دولة الكويت، والأستاذ عبدالله إدريس، والأستاذ محمد رضا نصر الله، وكاتب هذه الخيوط، وما يماثل هؤلاء من المفكرين الذين تجدهم في كل زاوية يديرون الأحاديث الفكرية.

وإن هذا المهرجان الذي ترأسه سمو الأمير فيصل - الرئيس العام لرعاية الشباب - كان حافلاً بزخمٍ من الفكر والأدب، وكنت أحد ثلاثة شعراء[1] افتتحوا المهرجان في أول فاتحة جلساته، فكان للقصيدة الّتي ألقيتها بمناسبته صدى في الأوساط الفكرية، والأدبية.

ومن مضامين نشاط هذا المهرجان: إصدار صحيفة يومية تحمل بين دفتيها إنتاج هذا المهرجان، وأخبارهُ، وكل ما يدور في أروقته طيلة أيام الاحتفال.

---

(١) حيث ألقيت ثلاث قصائد في حفل الإفتتاح: قصيدة للشاعر محمد سعيد كاتب هذه الخيوط، وواحدة للشاعر السعودي حسين عرب، وأخرى للشاعر الكويتي محمد الفايز.

ومن النشاطات الفكرية: إشتراكي في مؤسسة خيرية هدفُها: رعاية الفقير، ومحو الأمية؛ فمن أعمالها: إنشاء مدرسة ليلية لمحو الأمية، ومكتبة لتثقيف الشباب، وتبني مشاريع الخير، والصرف على الطلاب الذين لا يستطيع آباؤهم تأمين ما يحتاجونه من أدوات مدرسية.

وهذا المشروع الحيوي أنشئ عام التاسع والستين، أو السبعين بعد الثلاثمائة والألف هجرية، وإتماماً لتمكينها من النشاط العلمي، رفع الأعضاء طلباً رسمياً إلى الدولة مبينة أهداف المشروع الخيري وروافده.

فجاء اعتراف الدولة بها رسمياً، وقدمت لها يد العون المادي والمعنوي، وتتكون أعضاؤها من كاتب هذه الخيوط، والأخ الشيخ عبدالله، وابن الأخ الشاعر عبدالواحد حسن الخنيزي، وعبدالجليل الزهيري، ومهدي بن علي حسن أحمد أبوالسعود، وعبدالله بن أحمد البيات.

غير أن عمرها لم يطل كعمر الورود - وإنه لقصير - حيث أنبرت ثلةٌ من الشباب فأنشأت جمعية خيرية أسمتها بلجنة تشجيع الطلاب.

فوقع بين المؤسستين شغبٌ طويل الذيول، وهنا اضطرت الدولة للقضاء على الخلاف بإغلاق المؤسستين، وتحويل ما تمتلكانه إلى مديرية التعليم.

ومن النشاطات الفكرية اشتراكي في مؤسسة فكرية أنشأها مركز الخدمة الاجتماعي، وأسماها: «اللجنة الثقافية» تابعة له بمبناه، وذلك عام الثالث والثمانين بعد الثلاثمائة والألف هجرية، وتعقد جلساتها في أروقته، فأبديت في هذه اللجنة نشاطاً فكرياً، وكانت تتألف من كاتب هذه الخيوط، والأستاذان: الأخ الشيخ عبدالله الخنيزي، والشاعر محمد سعيد الجشي.

وبعد فترة من الزمن استقلت من هذه اللجنة الثقافية رسمياً ، وذلك للأعمال التي تتزاحم معها ، ولا أستطيع التوفيق بينهما ، وبين مهنة المحاماة .

كما أن نشاطي الفكري لا يقتصر على الشعر فقط ، فقد كتبت عدة مقالات نثرية نشرت في أمهات الصحف ، كما أذاعت لي الإذاعة السعودية قصائدَ ، وأحاديثَ مسجلة بصوتي مرات عديدة .

وقد زارني في بيتي بالقلعة الأستاذ الشاعر طاهر الزمخشري مندوباً عن الإذاعة السعودية، وصحبته إلى محطة التسجيل بمدينة الظهران ، فسجل لي قصائد بصوتي منها : الغد الباكي ، من أنتِ ، بين يدي العاصفة ، وأذيعت بصوتي من راديو مكة المكرمة ، عام أثنين وسبعين بعد الثلاثمائة والألف هجرية ، وكان معي الشاعران عبدالواحد - ابن أخي - حسن الشيخ علي الخنيزي ، وعبدالله الشيخ علي الجشي .

وقد أقام لنا مأدبة غداء في قصر الضيافة السعودية أرامكو ، والتقينا هناك بالأستاذ عبدالله بلخير ، وكان سكرتيراً لولي العهد الملك سعود وبعدها صار عبدالله وزيراً للإعلام في عهد الملك سعود ، وجرت بينه وبين طاهر الزمخشري نكتة تاريخية قديمة حيث أنشد الأستاذ عبدالله بلخير بيت المتنبي من قصيدته الّتي يهجي بها كافور الإخشيدي :

لا تشتري العبد إلا والعصى معه ... إن العبيد لأنجاسٌ مناكيدُ

فأجابه الشاعر طاهر الزمخشري :

ما كنت أحسب أن أبقى إلى زمنٍ ... يسومني فيه عبدٌ وهو محمودُ

هذه نكتة أدبية قصد منها المداعبة والترويح .

ولم تقتصر هذه الزورات الفكرية بل أخذت تتكرر ، فزارني في بيتي بالقلعة بدر كريِّم ممثلاً عن الإذاعة السعودية في عام الثاني والثمانين بعد الثلاثمائة والألف هجرية - على مهاجرها أفضل الصلاة والسلام - وكان يحمل جهازاً حديثاً ، فسجل معي مقابلة ولم نحتاج إلى الانطلاق إلى مركز من مراكز التسجيل لأن العلم تطور بشكل وأسلوب لا يكاد أن يصدق ، لولا الرؤية الواقعية المحسوسة .

ولم تقتصر العناية ، ولا التنويه على إذاعتنا فقط بل عنيت بأعمالي الأدبية الفكرية الإذاعات العربية ، وغيرُها ، فقد قامت بدارساتٍ بثتها في حلقات إذاعية عن «النغم الجريح» ، «وشيء أسمه الحب» ، «وشمس بلا أفق» .

ومن الإذاعات الّتي خصصت لهذه الأعمال الأدبية ، محطة الأهواز ، فقد أذاعت حلقة عن النغم الجريح عام تسعين بعد الثلاثمائة والألف هجرية ، وإذاعة البحرين قدمت عدة حلقات عن الدواوين الثلاثة ، وإذاعة مكة المكرمة عام ١٣٧٢هـ ، أذاعت بعض القصائد أشرت لها في طبع ديوان «النغم الجريح»، وإذاعة جدة في شوال ١٤١٣هـ في مقابلة عن طريق الهاتف سجلتها على الهواء ، وبعد ساعة من التسجيل أذاعتها .

كما أذاعت إذاعة الكويت حلقة عن «النغم الجريح» ، وأذاعت في صباح يوم الأربعاء الواحد والعشرين من شهر شوال عام الثامن عشر بعد الأربعمائة والألف هجرية الموافق التاسع عشر من شهر فبراير عام الثامن والتسعين بعد التسعمائة والألف ميلادي حلقة عن كانوا على الدرب واختتمتها بقصيدةٍ على كف عفريت والتي مطلعها :

لململت أشلاء ذكرى الأمس بالهدب ورحت أجبل منها سيرة الحقب

وعدة حلقات أذاعتها إذاعة الرياض، وفي يوم الثاني عشر من شهر رجب الأصب عام السادس عشر بعد الأربعمائة والألف هجرية - على مهاجرها أفضل الصلاة والسلام - أذاعت إذاعة الرياض قصيدة تصف الربيع تحت عنوان «تحية الربيع» من ديوان «النغم الجريح».

وهذه الحلقات الإذاعية كلها تصور إعجاباً وإكباراً، لما تحتويه هذه الدواوين، وهذه الحلقات الإذاعية لا تزال تتكرر حتى يومنا هذا.

وفي مساء يوم الخميس الخامس من شهر جمادى الآخر عام السابع عشر بعد الأربعمائة والألف هجرية، الموافق السابع عشر من شهر اكتوبر عام السادس والتسعين بعد التسعمائة والألف، أذاعت محطة لندن العالمية المعروفة بهيئة الإذاعة البريطانية، في الساعة العاشرة وخمسة عشر دقيقة بتوقيت السعودية المحلي، حديثاً في برنامج رياض الشعر الذي يديره الأستاذ محمد سليمان، وكان هذا الحديث عن الدواوين الأربعة، النغم الجريح، شمس بلا أفق، مدينة الدراري، كانوا على الدرب، وبعد إعطاء موجز عن تاريخ الولادة للشاعر، وتحليل مقتضب عن شاعريتهِ، دار الحديثُ حول ديوان النغم الجريح، وألقى منه قصيدتين، واحدة تحت عنوان «في الحقل»، والثانية تحت عنوان «إذا»، وأثنى على شاعرية صاحب الدواوين المشار إليها، وأعيد هذا الحديث من الإذاعة نفسها من البرنامج ذاته مساء السبت يوم السابع من الشهر المذكور في يوم التاسع عشر من شهر اكتوبر من العام المشار إليه.

ولا أريد أن ألم بكل ما قيل حول هذه الأعمال الفكرية، بل أتركها إن سمحت الظروف لجمعها، وتسجيلها في كُتيب خاص بها، فقد ضاع مني جُلُها لإهمالي لها، أو لعلي ألحقُ ما تبقى منها كذيل في هذا الكتاب.

ولا يفوتني أن أتحدث عن بعض الأعمال الوطنية الّتي أسهمتُ فيها في خدمة الوطن، فقد اشتركت في ثلاث دورات للمجلس البلدي، واحدةٍ منها عن طريق الانتخاب الشعبي.

وكان يرأس اللجنة الانتخابية الأستاذ عبدالله بن علي اخوان مع مبارك بن ضيف أبو السعود، ودورتين بالتزكية، والتعيين.

وفي الدورات الثلاث انتخبُ نائباً لرئيس المجلس، وكنت الرئيس الحقيقي، والرحى الذي يدور عليها المجلس، وكان الأعضاء في الدورات الثلاث المشتركين معي نخبة من الرجال المفكرين، الذين أسهموا في تطوير الحياة القطيفية، كأحمد حسن سنبل، والشاعر عبدالواحد الخنيزي، والأستاذ سعيد سلمان العبدالهادي الحبيب، وعلي الشيخ حسين القديحي، وباقر أحمد الزاهر، وما يماثل هؤلاء.

وبرغم العوامل الزمنية، وما يكتنفها من أعمال وطنية تعترض المفكر، أو العالم، أو الأديب عندما يريد أن يجمع بين هذا وتلك قد لا يوفقُ في الجمع بينهما، وإن وفق فسوف يكون مُرهقاً، فقد يتغلب أحدهما على الآخر، ولكني بفضل اللهِ مررت بهذا الظرف العصيب واستطعت أن أجمع بين الأعمال المادية، والأدبية ولم تحد من الإنتاج الفكري حتى صرت في كل شهرٍ أكتبُ قصيدةً، وكأنني محررٌ لمجلة سيارة تصدر في كل شهر على موعدٍ مع قرائها.

غير أنني منذ عام ١٤١٠ هجرية لم تعد القصيدة مجلة سيارة تصدر في كل شهر، ولعل هذا ينبع عن عدم التفرغ والاشتغال بفضول العيش، فلم أعد أزاول القراءة، فأخلد إلى محراب الشعر - وإن كان الشعر لا يرتبط بوقت أو بحدود - ولكنه يحتاج إلى تهيئ فكري حتى تهبط ربةُ الشعر، وتحرك الغافي من قوافيها لأن الشعر هو مشتق من شعور الإنسان، فهو موهبة فطرية.

وهذه الموهبة تنميها وتصقلها الطبيعة، والأفكار الّتي يقرأها الشاعر في الكتب والدواوين، والطبيعة هي أعظم كتاب، وأبلغ فكر، وأعظم أستاذ، غير أن أوتار القافية لم تَجفُني، فأنا لا أزال أجس أعوادها، وأحرك أنغامها.

فتهبط بين الفينة والأخرى، الصور الشعرية، والقصائد المأساوية، والعاطفية، والوصفية، ومن يسبر أعمالي الشعرية، ويتنقلُ في صفحاتها، فتاريخُ النصوص تشيرُ له عن هذه الحياة المستمرة.

فالحياة حافلةٌ بالآلام، ومملوءةٌ بالآمال، وحياتي كحياة الناس فيها الحلو، والمر، إنما كما يقال: بعض الشر، أهون من بعض.

وبعبارة أوضح حياة بعض الناس أخف ألماً من غيرها، وتنعكس على كل شخص بما عانى في حياته الخاصة، فبعضٌ منا فقد الصحة، وهو غني الثروة، والغناء الحقيقي الكامل هو الإيمان بالله، وطاعتهُ الكنزُ الباقي، وكامل الذخر في الدنيا والآخرة، وتأتي بعدهما مرتبة الصحة والآمان، فهما نعمتان مجهولتان.

ونحب قبل أن نطوي هذه الصفحة أن ننشر صفحات من النشاط الفكري، وهي كثيرة أشرت لبعضها في هذه الخيوط، وبعضها ضاع مني مع الماضي البعيد، وما تستعيده الذاكرة وتسترجعه، سأسجله.

ومنها صفحةٌ جديدةٌ نُسجلها قبل أن يتراكم عليها نسجُ الزمن، وهي لقائي الجديد في مساء يوم الأربعاء الخامس عشر من صفر عام ستة عشر بعد الأربعمائة والألف هجرية، الموافق ميلادي الثالث عشر من شهر يوليو عام خمسة وتسعين بعد التسعمائة والألف، حيثُ زارني في بيتي بعد تحديد موعدٍ للزورة، الأستاذانِ: محمد القشعمي، وعبدالله آل حسين يمثلان مكتبة الملك فهد الوطنية، والأستاذ سعود الفرج.

فعقدتُ معهما ندوةً أدبية أدرناها على: معالم التاريخ، والشعر في جديده، وقديمه، ومبدأ ولادة فجر تعليم المرأة في القطيف على المناهج الجديدة في المدارس الرسمية، وعن حياة الكتاتيب، وتطورها، وأسلوب الحياة قبل اليوم، وكان الذي يدير الندوة، ويضع الأسئلة الأستاذ محمد القشعمي، والأستاذ سعود، وقد أُحضِر جهاز تلفاز ومصورتان سينمائيتان متحركتان، ويديرهما الشابان: عبدالله راشد بن عبدالله الغانم وزميلٌ له، فسجلا جميع النقاط الّتي مرت في هذه الندوة الأدبية.

ولم يقتصر الأستاذان على هذه الندوة، فقد عمما هذا النشاط الفكري إلى ثلة من أدباء القطيف، وفي طليعتهم العلامة الشيخ عبدالحميد الخنيزي الخطي، وهذا النشاط الفكري من صفحات تاريخ القطيف سجلاهُ في أشرطةٍ، وهذه خدمة منهما للعلم والأدب، فلهما الشكر على هذه الجهود، وآمل من الله إكثار مثليهما لتكرار هذه اللقاءات على صعيد مقابلات بأدباء القطيف، وعلمائها، ومفكريها.

وهناك مقابلة احتفظت بذكراها وصورةً منها ، ولم يعفها الزمنُ ، وهي مع أحد الأدباء الصحفيين الذي هو من ثمرة أفكاري ، وأحد طلابي الأستاذ الأديب فؤاد عبدالواحد نصر الله مندوب عن صحيفة اليوم ، ونشرها في العدد رقم ٥٤٠٤ بتاريخ ١٤ شعبان ١٤٠٨ هجرية ،الموافق واحد إبريل ١٩٨٨ ميلادية ، وقد أدارها على عدة نقاط من الأسئلة كلها تدور في محيط تاريخي ، وأدبي ، وما دامت هي منشورة فنحيل القارئ عليها .

كما أدار معي الأستاذ فؤاد حوار أسئلةٍ نشرت في مجلة اليمامة في العدد ١٤٦٩ للسنة السابعة والأربعون - السبت ٢٠ ربيع الآخر ١٤١٨هـ - الموافق ٢٣ أغسطس ١٩٩٧م ، وفيها بعض اللمحات التاريخية نحيل القاريء عليها إن أراد قراءتها .

وهناك عدة مقابلات من ضمنها مقابلة مع مندوب مجلة العربي الكويتية ، حيث أجراها معي في بيتي بالبستان ، بحضور ابن أخي الشاعر عبدالواحد الخنيزي عام سبعين بعد التسعمائة والألف ميلادي .

وكما أجريت معي مقابلة أخرى في هذا العام يوم الخامس عشر من جمادى الأولى عام السادس عشر بعد الأربعمائة والألف هجري ، أجراها معي في قصر الإمارة بالقطيف مندوب مجلة الدارة تصدر عن دارة الملك عبد العزيز بالرياض ، وهذه المقابلة محاورةٌ عن التاريخ ، ومعالمه ، وتطور الحياة في هذه المنطقة ، وسجلت في شريطٍ مسموع غير مرئي ، والتحاور والمقابلات تكررت في صورٍ كثيرةٍ ، ومن عدة أدباء في مختلف ألوان الأسئلة .

ومن النشاطات الفكرية الجديدة الندوة الأدبية الّتي مثلاها الأستاذان / إبراهيم بن أحمد الصقعوب - مذيع في إذاعة الرياض - ، وسعد محمد الجريس - مدير استوديوهات الإذاعة بالدمام - في مساء يوم الخميس ١/١٢ / ١٤١٦ هجرية ، الموافق ١٨ / ١٩٩٦/٤ ميلادية ، عقداها في زورة لي في مكتبتي ببيتي بحي الحسين بالقطيف .

وقد أدار معي هذه الندوة الأستاذ إبراهيم الّتي استغرقت مدة زمنية تقارب أربعين دقيقة أو تزيد ، وقد أدارها على معالم التاريخ القديم ، والحياة الاقتصادية في هذه الربوع ، والنشاط الفكري ، والأدبي ، وأيام الكتاتيب ، وكيف التطور الذي حدث ، ومواسم الغوص ، وكلها سجلت في شريط مسموع غير مرئي ، وكان في صحبتهم الأستاذ الصحفي فؤاد عبدالواحد نصر الله .

وبعضُ المقابلات ، والندوات الّتي عفى عليها الزمن فضاعت مني ، فلعل الذاكرة تستعيدُها فنسترجعها من تحت أنقاضها ، ويكتب لها الحياة .





الزمن والبشرية

إن جراحات الزمان لا تزال ولم يزل الزمن يفوّق سهامه إلى قلب البشرية ، وأنا واحد من البشر فقد تحدثت عن عملية جراحية ، أُجريت لي في عيني اليمنى ، وما أُحيط بها من ظروفٍ أدت إلى فشل العملية ، وفصلت أدوارها في الصفحات الماضية .

غير أن الزمن لا يزال يرمي بأحداثه البشرية ، فقد رميتُ من هذه الأحداث بجراحةٍ ، وهذه الجراحة تسمى فتقاً ، أصبت به في الجانب الأيمن.

والظروف الّتي سببت لي هذه الجراحة ، هي رحلة رحلتها في شهر شوال عام واحد وثمانين بعد الثلاثمائة والألف هجري مع أخوي العلامة الشيخ عبدالحميد ، والمرحوم الشيخ حسن ، في مهمة دينية وطنية.

وبينما تَطوي السيارةُ بنا الصحراء إلى مدينة الرياض ، فوجئِنا بكارثة كادت تودي بحياتنا لولا دفع الله ، ولم نشعر إلا بتقلب السيارة عدة مرات ، وكان الأخ حسن يضرب بكفه على فخذه ، وهو يردد كلمات تنبعث من حالة اليأس ، ومن أفق المنظر الذي أكتنف الحادث فيردد كلمات عامية : « حدقنا يا أماه » -

أي لم نتحصل على الغُنْم - ، فكان بدله العَطب ، ولكن رحمة الله الّتي وسعت كل شيء غمرتنا ، فكانت تشبه المعجزة .

وفي أثناء تدحرج السيارة من علٍ إلى الأسفل - كأن يداً من وراء الغيب - فتحت بوابة السيارة الأمامية ، فغاص في الرمال ، فأوقفها جالسة عن التدحرج .

والذي خفف آلامنا ، وضمد جراحنا ما لقيناه من أخلاق رجل تاجر محسن يسمى : الدنهوري وكيل شركة سيارات أوبل - حيث رفضنا الركوب في السيارة التي أُصِبنا فيها لعدم معرفة سائقها القيادة ، وسيرها بلا مصابيح في الليل .

فأوقف الدنهوري سيارته على مرأى الحادث يتساءل عن الخبر ، فشرحت له ما ألم بنا ، وعرضت عليه أن يسعفنا برغم المسافة الّتي قطعها قرابة نصف الطريق ، لأنه منطلق من مدينة الرياض إلى المنطقة الشرقية في مهمة تجارية له ، فرجوعه صعوبة عليه ، لكنه رحب ببسمة تنم عن خلق ، وحوّل اتجاهه من الشرقية إلى مدينة الرياض - وهكذا المحسنون الذين يجب أن نشكرهم ، ونشيد بذكرهم ، وهم قليلون .

ومن جراء هذا الإنقلاب ولّد لي هذه الجراحة في الجانب الأيمن ، ولم أشعر بها إلا بعد شهور عندما راجعت المستشفى ، وتم إجراء الفحوص الطبية ، فقرر الطبيب الجراح أن بي فتقاً صغيراً ولابد من العملية الجراحية قبل أن يتسع الخُرقُ على الراقع .

فأجريتُ العملية الجراحية في أواخر شهر ذي القعدة عام ١٣٨٢ هجرية في مستشفى العدامة بمدينة الدمام .

ويعد هذه العملية دارت عجلة الزمن ، ولم تقف هذه العمليات ، أو قل لم تقف سهام الزمن ، فالزمن يسير بسرعة هائلة على جسم البشر فيخدده كما تخدد الآلاتُ الطُرقَ ، فأصبت في جانبي الأيسر بما أصبت به في الجانب الأيمن ، ولكني قررت هذه المرة أن أقوم بتجربة أغير فيها اتجاه علاجي ، تخالف فيها المحلات الّتي أجريت فيها تلك العمليات الماضية ، فأجري العملية خارج المملكة.

فاخترت مدينة القاهرة ، وذهبتُ إليها ، وأجريتُ العملية الجراحية في مصحٍ خاصٍ يرأسه أستاذٌ متخصصٌ في الجراحة يعمل في جامعة القاهرة ، فأجريتُ هذه العملية الجراحية في مصحة عام ١٣٩٨ هجرية ، وطلبتُ منه تخصيص غرفةٍ لي ولزميلي علي حسن علي المرزوق ، بها مميزاتٌ كتكييف يغذى بالفريون ، لا كالمكيفات الصحراوية إلى غير ذلك من مميزات.

ولكن هذا المصح لم يكن يتمتع بالإخلاص ، والأمانة ، فمن يديرونه غير أمناء مخلصين ، وما عرفت عنهم إلا بعد التجربة ، وإجراء العملية.

وتشاء الصدف أن يمرض الطبيب الذي أجرى لي العملية ، فيصاب بانزلاق غضروفي ، فيتركني وزميلي علي حسن علي المرزوق الذي أجريت له العملية معي في ساعة واحدة ، قرابة عشرة أيام ، لم نَرَ له ظِلاً ، ولم يرسل طبيباً جرّاحاً يمثله حتى تتراكم الأجور للعملية ، والغرفة ، ويقصد من ذلك توفير الربح المادي.

ولهذه العوامل فشلت العملية ، ولم يُقَدَر لها النجاح ، ومن الصدف الجميلة وما أقلها في بعض الأحايين أن يعودني في هذا

المصح بالقاهرة الدكتور أحمد الوائلي ، والسيد المهندس محمد عزت مهدي ، والسيد حسين الضرغام .

ولم أكن أعرف الدكتور أحمد الوائلي شخصياً ولا أعرف المهندس محمد عزت مهدي ولا زميلهم الضرغام ، حيث لم ألتقِ بهم قبل هذه اللحظات ، فكانت فاتحةُ لقاء وتعارف ، وعلّقتُ على هذا اللقاء بكلمات : أأنت الدكتور الذي أسمع مواعظه وحكمه ؟ ، فأنا أعرفك معرفةً روحية ومعنوية ، قبل أن نلتقي أشباحاً متحركة.

فعلّق الدكتور- وهو يرتدي لباس طلاب الأزهر : ما مواعظ الوائلي وحكمه ، وما قيمتها في البشر ؟!... إن الأنبياء تعبت من إصلاح هذا الإنسان المتمرد على خالقه.

وبعد برهة مرت على إجراء العملية ، شعرت بعودة الداء إلى محله الذي أُجرِيت فيه العملية .

وما وقفت أسهم الزمان ، لأن البشر يعبّ من كؤوسها ، ولاسيما على الأدباء الذين يغرقون في التفكير ، وفي معاناة الحياة .

فعندما انتهت أزمتي المادية الخانقة ، أبدلتُ عنها بصورة حياةٍ ثقيلة الظلال ، تختلف مرارتها عن الحياة الأولى لأُمتَحَنَ فيها ، وأُبتلى لكوننا نعيشُ في دار ابتلاء ، وليست دار نعيم ، حتى يوفّي الله فيها الصابرين والشاكرين له ، وتكررت هذه الإصابات .

وفي إحدى مُراجعاتي لبعض الفحوص لمستشفى الملك فهد بالخبر ، وبعد الفحص قال لي الطبيب إنكَ مُصابٌ بحصواتٍ في الكِلى اليسرى ، ولابد لك من عملية جراحية ، وبعد تردد ، وقلق يساور نفسي ، وهواجس رجراجة وقفت في دربي ، ذهبت إلى

المستشفى العسكري بمدينة الرياض أطلب منه الفحص ، وإن كان لديه أسلوب متطور يعالج الحصوة بغير مبضع الجراح ، وبعد الفحص قرر الطبيب المختص ، أن هذه الحصوات لا تفت بالجهاز الموجود الفعلي بالمستشفى ، ولا يوجدُ لها دواءٌ إلا مبضع الجراح ، فعدت أدراجي إلى مدينة الخبر ، ونوّمت في مستشفى الملك فهد ، وأجريت العملية الجراحية في شهر جمادى الآخر عام الخامس بعد الأربعمائة والألف للهجرة ، الموافق ميلادي خمسة وثمانين بعد التسعمائة والألف هجرية ، وبفضل الله تكللت هذه العملية بالنجاح .

غير أنني لم أتخلص من هذه العمليات الجراحية ، فجراح الزمان تُدمي جراحي ، فما كدت أطوي خمس سنين من كتاب حياتي الجراحية الماضية ، شعرت بالتردد على الكنيف لكثرة الأبوال ، وبعد الفحص والتحليل ، شخّص الطبيبُ المختصِ بالمسالك ، التضخم في البروستاتة ، وقرر الطبيب الجراح أجراء عملية البروستاتة ؛ لأن تضخم البروستاتة هذه قد تسبب مستقبلاً بضغطها رجوع الأبوال على الكلى ، وهذه الأعراض قد تؤدي إلى الفشل الكلوي ، وبالتالي مفارقة الحياة .

فهنا انتابتني حيرة ، واضطراب ، حتى أصبحت كسارية تتقاذفها الأمواج والرياح ، وهذه الحيرة ولّدت في نفسي هواجس :

في أيِّ مستشفى أجري هذه العملية الصعبة الدقيقة الهينة ؟ أفي مستشفيات المملكة ؟ وهي كثيرة ، أم أذهب إلى الولايات المتحدة ؟ .

فبعد هذا التردد الطويل، ولما قاسيتُ من كثر الجراحات ساقتني الصدفة المريرة، وحظي بدون قصد مني إلى مصح تجاري يسمى: المواساة بمدينة الدمام.

مستشفى أهلي يملكه أخَوان، وزاده عدم عنايته ضعفاً على أُبَّاله، حيث لم يكن طبيبي المختص بالمسالك ذا خبرةٍ ومهارة تمكنه من أجراء مثل هذه العملية الدقيقة.

فَنوّمتُ في اليوم السابع من جمادى الأول العام الحادي عشر بعد الأربعمائة والألف للهجرة، الموافق في شهر نوفمبر عام التسعون بعد التسعمائة والألف ميلادي، وفي اليوم التالي له اجريت لي العملية الجراحية، ولولا عناية الله وفضله لكنت من ضحايا هذا المستشفى وفي خبر كان.

وكم لهذا المستشفى من ضحايا ؟!.... حتى كدت أصبح من المعوقين، وأصابني نزيف، وهبوط ضغط، وغيره.

وبقيت في ذلك المستشفى مدة أثنين وعشرين يوماً ألبس كيساً بلاستيكياً، لأن الأبوال تنزل لاإراديا، وأنا ألعَقُ هذه الحالة المريرة، واستمرت الحالة إلى بعد خروجي من هذا المصح بأشهر طويلة - الذي هو غير مصّحٍ.

وفزعت إلى الله - وهو الطبيب الشافي - ورجعت إلى المستشفى المركزي بالقطيف، ومن فضل ربي كان هناك طبيبٌ أخصائيٌ بالمسالك، وبعد فحصهِ لي أمر بالعلاج الطبيعي، فقلص بعضَ ما علقَ بي من هذه الحالة، وبقي منها قسم لا يستهان به من ذلك الداء.

ففزعت ثانية إلى الله ، وسافرت للمدينة المنورة لأدعو الله ، ورسوله في مسجده ، وعند قبره ، فتوسلتُ بالدعاء ، وبالرسول صلى الله عليه وآله إلى خالقنا ، ودعوت الله في مسجده بحرقة ، وإخلاص ، وفي هذا المسجد الطاهر العظيم الذي أسس على التقوى ، وكان فيه همسات الوحي ، وصلاة الرسول الأعظم ، وأهل بيته الأطهار ، وفيه مساربُ خفق جناح جبرائيل .

إن الدعوات هنا في هذا الصعيد الطاهر ، والابتهال إلى الله ، ما أَحرى بها أن يسمعها خالقُنا ، ويستجيب لداعيها .

فبعد هذه الدعوات استجاب لي فاطر السماوات والأرض ، وشفاني - إنه على كل شيء قدير - فكأنك ابتعتَ وصفة من إحدى الصيدليات ، وأخذت منها ملعقة للتداوي بها ، فكان فيها الشفاء العاجل ، وأي وصفة أكبر من الدعاء والابتهال إلى الله في مسجد رسوله ، وعند قبر سيد الخلق من الأولين ، والآخرين .

وهذا من ألطاف الله وفضله ، وفضل رسوله وأوليائه الّتي تَخفى أسراره على أكثر الناس .

وكان من المفروض أن أتحدث عن عملية جراحية وقعت قبل هاتين العمليتين ، غير أن عدم إلتزامي بالعامل الزمني ، خولني أن أقصّ هاتين العمليتين الجراحيتين قبل هذه العملية.

فقد أصبتُ في عيني اليسرى الوحيدة الّتي أبصر بها بصيصاً من الضوء ، وجثمَ عليها ، ونام فيها الماء الأزرق والأبيض.

وقد شخّصَ هذا الداءَ الطبيبُ الأخصائي بالعين في إحدى المراجعات في مستشفى أرامكوا ، فقرر إحالّتي إلى مستشفى الملك

خالد التخصصي للعيون بمدينة الرياض ، وقد رافقني في هذه الرحلة العلاجية إبني الدكتور وديع ، فزادني طمأنينة حيثُ يُرافقني طبيب .

وكان هذا المستشفى على مستوى رفيع في تخصصه ، وفي أدواته ، وأطبائه ؛ وهذه العملية أجريت في عيني اليسرى - الوحيدة لي - فأزيل منها الماء الأزرق في شهر شوال عام السابع بعد الأربعمائة والألف هجرية ، الموافق عام سبعة وثمانين بعد التسعمائة والألف ميلادية.

وكنتُ على جناحِ قلقٍ، واضطراب بين الإحجام والإقدام في إجراء العملية وعدمها ، والماء الأزرق إذا لم يُستأصل سيطيح بهذه البقية الباقية من الإبصار .

وبعد إجراء العملية في هذا المستشفى المذكور، صوناً لها قال الطبيب المختص : إن الماء الأزرق قد أثر على قنواتها ، وأعصابها ، وبفضل من المولى الكريم كُلِلَت هذه العملية بالنجاح حسب عمر الداء الذي عاش في محيطها .

فطلبت من الطبيب المختص إزالة الماء الأبيض ، وإجراء العملية القرنية ، فأجاب إنه لم يحن الوقت لإجراء هذه العملية ، وليس عندي ضمانٌ للنجاح ، وأنت تستطيع أن تنظر الصور المتحركة ، والثابتة ، واخوانك ، وأحبّاءَك .

ولو أسرعتُ بتنفيذ العملية قبل هذا الزمن ، وأخذتُ برأيٍ ابني الدكتور وديع لما كان الذي كان ، حيث طلب مني زورةً لبريطانيا ،لإجراء العملية في مستشفياتها ، والداءُ لَم يكبر.

فانبثق هذا الرجاء من رؤيته الواضحة، فللعامل الزمني دور تأثيري على قنوات العين، وبالتالي يخمدُ الإبصار، غير أنني تثاقلتُ، ولم أُلبِّ هذا الطلب:

ليت شباب بوع فاشتريت ؟! ليتُ! وهل ينفع شيءٌ ليتُ؟!

وعندما أتحدث عن هذه العمليات الجراحية في هذا الكتاب، لأنها فصل من كتاب حياتي، غير أنها لم تنعكس صوراً ناطقة في شعري، لأنها مأساةٌ غطت عليها مأساة العين الّتي أصبت بها في عالم الطفولة المبكر.

ولعل آثارَ ظاهرة العمليات الجراحية الّتي لم يجد لها القارئ أثراً في شعري للمأساة الكبرى، وهي: إصابتي بعيني الّتي تنفجر في كل آن، منجمُ براكينٍ ملتهبة، لأن هذه المأساة تتصل بصميمِ أعماقِ حياتي، وتتعلقُ بكيان ذاتي.

فهي مأساةٌ تُنسي كل مأساة، والجرحُ يُسكنه الجُرحُ الذي هو أشد ألماً منه ؟!، ولما للعين من دورٍ في حياة الشخص، فهي حياة المرء الّتي إذا أُصيبَ بها تعطلت حركةُ حياتهِ، وسكناتها ..... كيف يبصرُ، ويتحركُ، أو يقرأُ، أو يكتبُ إلا بهذه العدسةِ الصغيرةِ الّتي ينطوي فيها شكل العالم وأسرارُه؟!، وأنا أريد أن أقرأ، وأن أكتب ما تجود به عليَّ آلهة عبقر من شعر، أو نثر، وهذه المأساة تقف صخرة كأداء في طريقي، تتفجر ينبوع شعرٍ باكي.

ولم تكن للعمليات الجراحية تأثير في حياتي الفكرية، ولم تُثرِ في الشعروالأدب، وعدم تأثيرها لأنها لم تحدث شللاً في حركتي في عمل من الأعمال، للوصول إلى طريق نجاحها بفضل الله.

غير أن عملية البروستاتة كان لها انعكاسات سلبية في حياتي، وقد روينا فُصُولها قبل بضعة أحرف، ولكني شفيت منها بعون الله، وأدركتني رحمتهُ.

ويرغم ما أطلق على هذه المستشفى من اسم المواساة، فإن هذا الاسم لا ينطبق على مسمى، فهو مستشفى تجاري مادي.

وأبسط عناية فيه وأبلغُها، أن المريض يضغط على الجرس من على سريره، ولو كان في حالة محرجة أو خطيرة، لا يجد من يقف عند سريره ليضمد جراحه، أو ينقذه مما ألم به، وعليك أن تتحمل وحدك ما تعاني من ألم، وأوجاع.

فقد رفعت تقريراً عما يلاقيه مرضى سكان هذا المستشفى، فعكس عليَّ هذا التقرير رداً سلبياً من ممرضاتهِ، ولم توضع إدارة المستشفى خطة لحل هذا الإهمال.

فخرجت منه وأنا أحمل أعباء جراحات العملية، وعاد يصورها لي ذلك المستشفى التجاري طيوفاً مرعبة، حيث منذُ خرجتُ منه لم أراجعهُ، برغم ما كان لي من مواعيد، ومراجعات.

والدليل على أنه تجاري لا يهمه إلا المادة، والصحة على هامش الهامش، فقد أخذت تكلفة العملية الفاشلة مبلغاً قدره تسعة وثلاثون ألف ريال سعودي، وقد تحدثت عن عوامل الشفاء، وفصلتها سابقا، وإن هذه التكلفة الضخمة لو ذهبتُ من أجل هذا العلاج للولايات المتحدة، أو الدول الغربية، لما أنفقت هذا المبلغ.

وعندما شفاني الله لم يكن أحد الأسباب العملية الجراحية في هذا المستشفى فقد خرجت منه وهى تنزفُ نزيفاً في صورٍ متفجعة تحمل في طياتها الألم.

ولم يكن لها دورٌ في قصائدي للشفاء الذي غطى عليها، فالشفاء أنساني ويلات الجراحات، وما أعقبته، ومستشفى المواساة الذي هو غير مواساة، ولهذه الظاهرة لم أكتب فيه ولو بضعة أبيات تمثل أطياف هذه الجراحة من جراحات الليالي والأيام، لأن للشعر أسراراً، والحياة أسرار لا يعلم ما وراءها إلا علام الغيوب.

ولعل من الخير أن يفيض الله عليَّ القوافي مستقبلاً في هذه الظاهرة النفسية الّتي مرت بي ،أو لعل الفرحة الّتي أعقبت الشفاء، والشفاء من عند الله غمرت نفسي فأنستني هذه الجراحات فلم يعد لها أثر حتى تداعبني القوافي، وأن تستيقظ من نومها فتفتح أجفانها في جوٍ دامٍ بالجراح.

لعل هذا هو أقرب للسر كما عللته سابقا، فإن الفرح ينسي الحزن، والحلو ينسي المر، ولولا النسيان لما طاب لنا العيش، وما شعرنا بخمرة السرور والرفاهية، ولولا الأحداث المتناقضة في الحياة الّتي تتعاقب بأحزانها، وأفراحها، هي الّتي جعلت الحياة لذيذة الطعم.

وبرغم هذه المفارقات لن يخلد البشر، ولم يَبقَ، وسوف ينطوي هذا الجسد، ويلف وراء التراب، ليبعثه الله، فإن كان أطاع الله ورسوله، سيدخله الجنة، وإن أتبع هواه، وعصى الله ورسوله،

سيورده نار جهنم ، جزاء لأعمالِهِ ، فأسأل الله أن يعصمني في هـذه الحياة ، وينجيني من شرور الدنيا ، ويوفقنـي لمـا يحبـه ويرضـاه رب العالمين .

ولم أكـن فـردا متمـيزا إنمـا أنـا إنسـان كالأناسـي ، فحيـاتي كحياتهم تمـر بأجوائهـا الأفـراح والأتـراح ، وقلـت أن الأشـياء تتباين ، وتظهر بمفارقتها ، كما قال الشاعر العربي :

وبضدها تتباين الأشياءُ





التطور الحياتي

إن التطور الحياتي للفرد في حركتها في تطور الجديدين، إما إلى قمة تصاعدية، أو إلى وهدة سفحٍ تنازلية.

لكني بفضل الله أخذت حياتي في تطور صعودي من عام أربعة وسبعين بعد الثلاثمائة والألف للهجرة، حين تركت الدراسة العلمية، ونزلت لميدان العمل، وبقيت على مسار العمل، وقراءة الكتب الأدبية، والتاريخية، والعلمية، والتدريس، وكتابة الشعر، والاشتراك في الندوات الأدبية، والاحتفالات الدينية وأنا أسير في ميدان العمل، حتى انتعشت حياتي الاقتصادية.

وكنت لا أملك شبراً واحداً من هذه الأرض الواسعة سوى بعض أمتارٍ في بيت سكناي الذي ورثتُه من أبي وهو مشتركٌ بيني وبين إخواني.

وبعد أن بددتُ الضباب المكثف في أفق حياتي استطعت اليوم ابتياع أرض صغيرة لي من مخطط حي البستان غربي القلعة حاضرة القطيف من عبدالرسول حسن البيش، وشركائه، بثمنٍ قدره ستة آلاف ريال، ومائة ريال دلالة له.

وتم هذا الابتياع عام الثمانين بعد الثلاثمائة والألف هجرية، لأقيم على ظهرها بيتاً آوي إليه، وتظلني سماؤه.... فلا تسل عن الفرحة الّتي غمرتني!، إلا أن هذه الفرحة أعقبتها عواملُ زمنية أخرت البناء قرابة عامين.

وبعد فترة لملمت ذيول الحياة المتداعية، وجمعتُها فأقمتُ على تلك الأرضِ الّتي هي بحي البستان بيتاً حديثاً استغرق إنشاؤه مدة خمسِ سنوات لعوامل وظروف خانقة أخرت مشروع البناء على هذه القطعة من هذا المخطط في ذلك الوقت.

وقد بُني على فن يتناسب مع مخططات تلك البيوت الّتي بنيت في ذلك العصر، وكان هذا الحي من أرقى الأحياء في القطيف - آنذاك -، ويحسنهُ موقعهُ لقربه من القلعة، يفصل بينهما شارع.

وبعد شوطٍ من الأتعاب، وفترة من الزمن أُكمل هذا البيت، وكان نزولنا فيه ليلة مولد السيدة فاطمة سيدة نساء العالمين، ليلة العشرين من جمادى الآخر عام الخامسة والثمانين بعد الثلاثمائة والألف هجرية، الموافق العاشر من أكتوبر عام الخامسة والستين بعد التسعمائة والألف ميلادي.

وهنا سرت الفرحة في الوالدة، والزوج، والأبناء، فقد كادت الفرحةُ أن تخلق لهم جناحين يطيرون بهما من الغبطة، والسرور الذين غمرهما، وانعكس على أساريرهم ليلة النزول في هذا المنزل، أنحن نعيش في حلم أم يقظة ؟!.

ولا تسل عن الحياة الجديدة الّتي رفت ظلال نعيمها على هذه العائلة، وعلى ضوء ما جد، وتطور في حياتي، حيث قفزت، وتبدلت إلى حياة حافلة بالجد والنشاط.

وبعد فترة طويلة والتطور الشامل دعاني للبحث عن حياةٍ أفضل وسكنٍ أفضل، فابتعت قطعة أرضٍ في البحر غير اليابسة، أي في الماء غير مدفونة في مخطط خططته بلدية القطيف، وأنا أجهل حدودها، وموقعها، ومساحتها.

وما دمنا قد ذكرنا بلدية القطيف، فكان علينا لزاماً أن نُعْطِيَ عنها لمحة تاريخية - ولو مقتضبة - ومتى أسست؟.

فإن بلدية القطيف قد أسست، وأنشئت في عصر الحكم التركي، إلا أن تحديد تاريخ إنشائها لم نعثر عليه، غير أننا عثرنا على وثيقتين تاريخيتين موجهتين من لواء نجد إلى سعادة رئيس بلدية القطيف، وكان حين ذاك رئيسها علي بن منصور إخوان - أحد شخصيات القطيف، والمتوفى عام سنة وثلاثين بعد الثلاثمائة والألف هجرية، كما رواه لي الخال حسن عبدالله الراشد - وهاتان الوثيقتان الموجهتان له مؤرختان بعام، خمسة وعشرين بعد الثلاثمائة والألف هجرية، فهما يكشفان بأن البلدية أسست قبل هذا التاريخ بزمن[1].

---

(١) أن الملوك لهم نظرات، فعندما يحاولون فتح بلاد يرسلون طلائع تسبر القلوب و المشاعر، وقد قام المغفور له الملك عبدالعزيز بهذا الدور فأرسل عبدالرحمن بن سويلم فكان لعلي منصور اخوان الدور في تقليص الحكم التركي، الذي فقد القطيفيون الأمن في حكمهم والتمهيد لحكم الدولة السعودية التي أسسها ووحدها الملك عبد العزيز آل سعود، فقد روى لي خالي حسن الراشد الغانم ـ وكان سنداً في بعض الروايات التاريخية ـ عن أبيه عبدا لله بن راشد: أن والده شاهد عبدالرحمن بن سويلم يجيء في صورة متنكر في زي إعرابي، فيقيم بالبدراني غرب الجارودية ـ إحدى قرى القطيف ـ ثم ينقله رجال علي اخوان إلى قرية الخويلدية في بيت محمد الصحاف ثم إلى الدبابية بيت حسن اخوان، وبعد هذه المحطات إلى القلعة؛ ليجتمع بعلي اخوان.

وكـان للبلديـة دورٌ في مجـال النظافـة ، والصحـة ، ودليلنـا علـى تأسيس هذه البلدية ورئيسها في ذلك العصر هو فاتحة التوجيه الخطابي من الوثيقتين إلى الشخص المذكور نورد من هذه الوثيقة المشار إليهـا فاتحة التوجيه كما هي مرسومة فيها بـالحرف الواحـد : «إلـى جنـاب الأجل الأكرم الأشـم رئيـس بلديـة قضـاء القطيـف » ، فهـذا دليـل تاريخي على ما أوردناه عن قدم حضارة هذا البلد وحضارته العريقـة ، ودورها الموغل في الحضارة التاريخية القديمة في سبق الإعمار ما رواه لي إبن عمي الحاج عبدالحسين حسن علي الخنيزي المتوفـى في عـام سـبعة وثمانين بعد الثلاثمائة والألف هجريـة ، الـذي عـاصر حكـم الأتـراك وعايشه : أن حكومة الترك أوفدت لهـم مندوبـاً ، وجمعهـم في القـائم مقامية حسب التسمية لأنظمة الحكم الـتركي ، وبحـث معهـم مشـروعاً

ولم يعرف أحد الأسباب التي يـأتي مـن أجلهـا هـذا المتنكـر ، ومـا يـدور بينـه وبـين علـي اخوان ، وعندما قـامت الدولـة السعودية ، و رحبت القطيـف ، وهللـت للحكـم الجديـد ، كـان عبدالرحمن سويلم أول أمير للقطيـف ، فعندهـا عـرف الحـاج عبدا لله الراشـد بعـض الأسـرار الـتي كـانت تـدور بينـه وبـين اخـوان ، كمـا روى لي حسـن علـي المرزوق : أنــه في أيـام احتضـار الحكـم الـتركي ، جمـع الممثـل للحكـم الـتركي المسمـى :" قـائم مقـام " شـخصيات القطيـف وأعيانهـا مـن مدنهـا وقراهـا في " القـائم مقاميـة " ـ أي مركـز الحكـم ـ في القطيـف ، وأقـام علـى كـل شـخص حارسـاً في يـده بندقيـة ــ وقصـده الارهـاب والتخويـف ــ وطلـب منهـم المسـاعدة العسـكرية والإحالـة دون دخـول الملـك عبدالعزيـز ، فانبرى الزعيـم الشيـخ علـي ـ أبـو عبدالكريـم ــ الخنـيزي و قـال : إن مـدن القطيـف وقراهـا متبـاعدة ، ويحيطهـا نخيـل ، والشـعب ليـس لديـه قـدرة ، فـإذا كـانت الدولـة لا تستطيـع حمايـة نفسـها ، فكيـف بالشعـب ؟!. وعندهـا طلـب الـوالي الـتركي : أن يعطـى مـن الأهـالي مبرراً ،يقـابل بـه حكومتـه ، وعندهـا يخرج مـع ضبـاطـه وجنـوده عـن طريـق البحر إلى البحريـن ، فتولى الزعيـم الخنيزي صياغـة هـذه الوثيقـة ؛ ويضيـف الـراوي حسـن علـي المرزوق : أنـي معجـب بصيغـة هـذه الوثيقـة ، ولكـنّ مـرور الزمـن ، أنسـاني إياهـا ، لكـني أتذكـر أنـه لـو عـادت الأتـراك بعـد خروجهـا لا يكـون علـى أيّ قطيفـي محـذور أو مسـؤولية.

صحياً على أن تؤلف شركة تقوم بتنفيذ هذا المشروع الصحي وهو تصريف جميع الفضلات للقلعة حاضرة القطيف في قنوات فنية تصبُ في البحر لقربهِ منها ، غير أنَّهُ لم يتم هذا المشروع الحيوي ، وفاتهم أن تصريف الفضلات إلى البحر قد يأتي بنتائج سلبية ، وهي تلويث مياه البحر ، وبالتالي يؤثر على الثروة الحيوانية والبيئية .

ولم يَنْمُ لنا علم أن هذه البلدية استمرت ، أوعطلت ، وسنثبت صورتي هاتين الوثيقتين التاريخيتين في هذه الخيوط .

ولكن الرواة ومن ضمنهم الخال حسن عبدالله الراشد يقولون إنَّ البلدية عادت ، وأسست في عصر حكومتنا الجليلة عام خمسة وأربعين أو ستة وأربعين بعد الثلاثمائة والألف هجرية.

وكان يرأس المجلس البلدي والد والدتي الحاج عبدالله الراشد الغانم ، ومن أعضاء المجلس : عبدالله علي إخوان الذي أعطينا عنه لمحة في هذه الخيوط ومهدي بن أحمد الجشي أحد زعماء القطيف ، وشخصياتها .

وقد شغل مهدي الجشي بعد وفاة الجد عبدالله راشد الغانم الرئاسة للمجلس البلدي فترة طويلة من حياته لا يكاد ينفك عنها - المتوفى عام واحد وسبعين بعد الثلاثمائة والألف هجرية .

وأما مديرالبلدية فهو: الشاعر خالد محمد الفرج ، واستمرت هذه البلدية حتى يومنا هذا .

وقد عنيت البلدية الّتي كان مُدِيرها الأستاذ الشاعر خالد محمد الفرج بدور هام في النظافة ، وتشجير الطرق وقامت بفتح

شارع العياشي ، وتنوير الطرق الضيقة ، والمتسعة بحاضرة القطيف القلعة بمصابيح وهي الّتي تسمي فوانيس .

وهذه الفوانيس تعلقها البلدية في الجدر المرتفعة عن طريق سلالم يصعد عليها ، وتثبت في مشبك ، وتقفل لأن لا تسرق من محلاتها ، فهي تسرج منذ الغروب حتى الشروق ، ولها موظفون مكلفون بتصعيدها وتنزيلها .

كما أعطينا صورة عن الفوانيس في هيئتها وشكلها في الصفحات السابقة من هذا الكتاب .

وكانت هذه البلدية تزيل القمامة ، وتنقلها على ظهر الأتن ، وتكنس الشوارع بمكانس مصنوعة من الليف الّتي تنتجه النخيل ، وتوضع في مقبض من شجر النوام ، أو اللوز ، أو الرمان ، بحيث تمكن العامل من التكنيس قائماً ، وماشياً ، وهذه من صنع الوطن .

وقد خصصت محلات معينة للمواطنين لرمي القمامة فيها لا تتعداها أرباب البيوت محافظة علي الصحة ، وهذه المحلات طينت بالطين ، والحصى لحصر القمامة بها لئلا تتبعثر فتلوث الشوارع ، وبهذه الطريقة تحصر في دائرة ضيقة مخصصة لها ، وتسمى باللهجة الشعبية القطيفية « معالف » ، ولعلها متصيدة لما يجتمع حولها من حيوانات يأكلون منها لأنها مكشوفة غير مغطاة .

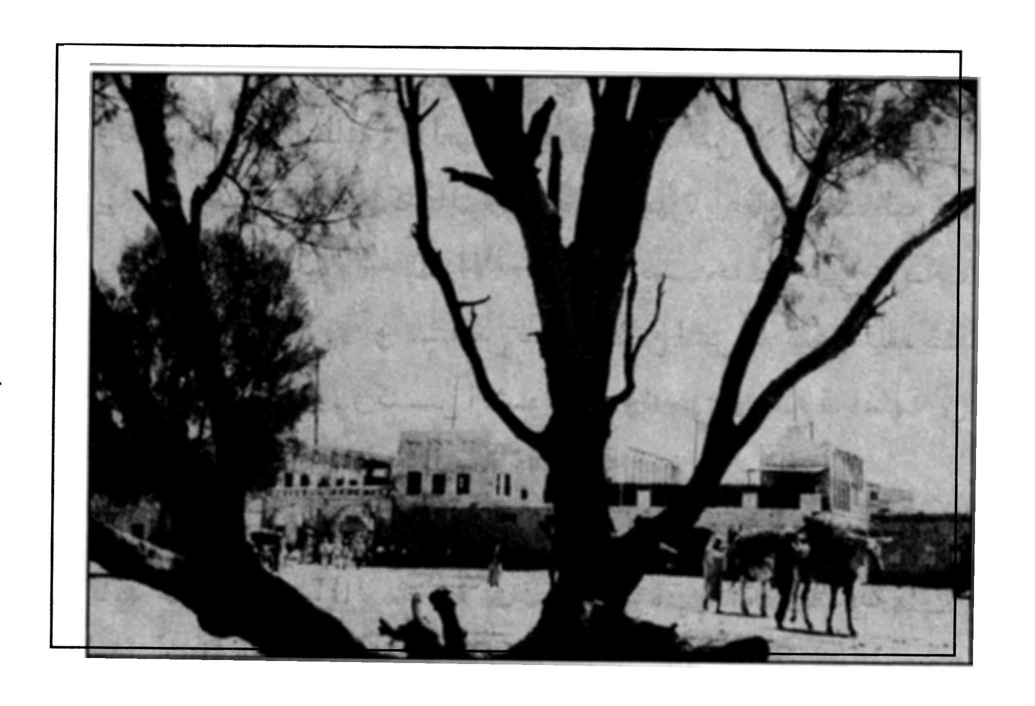
كما فتحت شارعاً بحريًّا يربط ميناء القطيف بجمركها لأنهما الشريانان الحيويان الوحيدان - آنذاك - العاملان لهذه المنطقة .

ويبدأ من جمرك القطيف على جانبيه البحر إلى ميناء القطيف الّتي ترسو فيها السفن التجارية الذاهبة ، والآيبة .

فكان لهذه البلدية دوراً كبيراً في تطوير العمران الإصلاحي، وتنظيم حركة النظافة، والصحة، لأن النظافة من الإيمان على ما بها من حسور ظل الإمكانيات المادية، وأجهزة باهتة لا تستطيع أن تعمل كأجهزة اليوم، حيث الأجهزة الّتي تستخدمها هي عربات عادية تجرها الأتن، أو تستعمل ظهور الأتن لنقل ما تقوم البلدية به من نقل القمامة، وكنس الشوارع، وتلقي جميع قمامتها في البحر لتفتح بعض الطرق البحرية.

كما قامت بتشجير الشوارع الرئيسية، وتخضيرها، وسقيها بأيد عاملة تجلب الماء من محلاتٍ نائية تملئ منها أوعيةً، وتحملها على أكتافها، وهذه الأوعية مصنوعة من التنك، وتعرف باللهجة الشعبية «أيباب»، فتسقي بها هذه الأشجار، وعلى ما فيها من جهد، وكلفة أثمرت هذه العملية، وازدهرت الشوارع.

* * *



صورة تمثل واجهة من واجهات جمرك القطيف
والشارع الذي يمتد من البوابة البحرية الرئيسية إليه.

فأعمال البلدية في ذلك الوقت أثبتت إخلاص رجالها لوطنهم، بحيث أوجدت لها أعمالاً واقعيةً ملموسة.

وبعد الحديث عن تاريخ بلدية القطيف نعود فنتحدث عن ما اشتريته من مخططها الذي جرنا إلى الحديث عن تاريخها، وهي قطعة الأرض الّتي أجهل مساحتها، وحدودها، وكنت في هذا الشراء كالآخرين الذين ابتاعوا من هذ المخطط، وقد ابتعتها بثمن ضخم يبهظ كاهلي - في ذلك الوقت - قدره خمسة وأربعون ألف ريال سعودي، بتاريخ ثلاثة وتسعين بعد الثلاثمائة والألف هجرية، من تاجري الأراضي: منصور الحاج رضي الشماسي، وعبدالله أحمد البيات المتوفي عام ثلاثة بعد الأربعمائة والألف هجرية، وقد أشرنا لإشتراكه في المؤسسة الخيرية.

وقد بقيت مدة بحراً لا أنتفع بها برغم مطالبتي بدفن هذا المخطط البحري حتى يتحقق لنا الاستفادة من هذا الشراء، مع تباشير ميلاد مشروع جديد، حيث أن الدولة أنشأت صندوقاً عقاريًّا للتنمية والقرض في مطلع عام ١٣٩٤ هجرية، يقرض المواطنين قروضاً لبناء بيوت لهم، ويسترجعها الصندوق على أقساط تقسط على مراحل مُدتها خمسة وعشرون سنةً يدفعُ المقترضُ في كل عام قِسطاً.

فهنا خَشِيتُ أن يفوتني هذا المشروع الجديد فلا أستفيد منه، وألحت على البائع بدفن مخططه، وبعد مكابرة ولأيٍ طويل دفن هذا المخطط، وحزت على وثيقة رسمية من كاتب العدل بالقطيف تُملكني هذه الأرض.

وتقدمت لمشروع الصندوق العقاري للتنمية والبناء ، فحصلت على مبلغ وقدره ثلاثمائة ألف ريال سعودي ، لأُضِيفَ لها ما يُمَاثُلها لأن تكاليف البناء كانت مفجعة .

فأقمت عليها بيتاً يتألف من دورين ، كل دورٍ به شُقَتَانِ ، وأعددته إلى سكنَاي مع العائلة ، ولأسباب وعوامل بيئية ، وصحية ، رفض الأولاد النزول في ذلك المسكن الجديد .

فالعامل البيئي : بُعْدُهَا عن القلعة حاضرة القطيف ، لأنها كانت قائمة كما هي لم يشوه من هيكلها ، وصورتها الطبيعية شيء .

أما العامل الصحي : فكان هناك مجرى يقع أمام المنزل الجديد فيه تيارات مائية راكدةٌ آسنةٌ ، ولهذين العاملين رفضوا الانتقال لهذا المنزل الجديد ، فحولتُه للأجورِ للاستفادة منه ، وأعددتُه للمستأجرين .

وبَقِينَا في بيتنا القديم بحي البستان ، فضاقت منازله على العائلة ، مما اضطرتني الضرورةُ الملحةُ إلى إنشاء دور ثاني به ، وبَقِينا فيه ردحاً من الزمان ، حتى أصبح هذا البيت لا يواكب حركة العمران ، والنهضة المتطورة الصاعدة ، فكان علينا أن نبحث عن أسلوب حياة سكنية لنوجد لنا أرضاً ، أو أرضين لنقيم عليها بيتاً يواكب هذه الحياة الصاعدة .

فابتعنا أرضين في المنطقة الشمالية في البحر ، من تجار الأراضي ، بمبلغ أربعمائة وعشرين ألف ريال سعودي عام أربعمائة وألف هجرية .

ولضخامة المبلغ الذي كان أثقل من حمل بعير ، تركنا الأرضين دون الإنتفاع بهما فترة طويلة استغرقت خمس سنوات ،

لأستعيد أنفاسي المادية، وألملم ما انهار، وأضمد جراحات فتحت عدة فتحات في هذه الحياة المادية.

وبعد هذه الفترة بدأتُ بإنشاء فلتين عليهما من أحدث المخططات الّتي يُبنَى عليها في القطيف عند وقت بنائهما. وبعد استكمالهما، وتأثيثهما بفضل الله نزلنا في البيت، أو الفلة الجديدة ليلة سبعة وعشرين من شهر رمضان المبارك عام سبعة بعد الأربعمائة والألف هجرية على مهاجرها أفضل الصلاة والسلام، الموافق خمسة وعشرون من شهر مايو عام سبعة وثمانين بعد التسعمائة والألف ميلادي.

إن بين الصفحات الماضية الّتي انطوت عليَّ حياة بها أحلام، وآلام، وجراحات كالعمليات الجراحية، وما فيها من أجواء فكرية، كالشعر، والأدب، وما تخللها من ألم، وأمل، ومن أحلامٍ، وأحداثٍ، وقضايا نمت في هذه الحياة، ومن حياةٍ خاصةٍ بي كأعمال التدريس لكوكبةٍ من الشباب في اللغة، والفقه، والمنطق، والمعاني، والبيان، وفصول لم أعرض لها حينما كتبت هذا الكتاب، ولم أسجلها، وإنما سجلت ما كان له ظاهرة في حياتي، وما كان طافياً على موجاتها من حلوٍ، أو مر.

كما أورد لمحة، أو فصلاً من حياتي العملية المحاماة، حيث تنطوي على أسفارٍ، وأسفار لم ننشر من صفحات هذه الأسفار حرفاً، ولعلنا سنفرد لها جزء نسجلها كلون من ألوان القضايا الاجتماعية.

وقد أشرت إلى بدء نقطة العمل في الصفحات الماضية على ما فيها من رتابة.

ونبدأ بمقدمات هي من صلب العمل الرتيب اليومي ، ففي كل يوم عندما أهبُّ من نومي أتناول أدوات السباحة ، كمعجون الأسنان ، والمنشفة ، فأذهب إلى حمام القلعة ، المسمى « إرتوازي » القلعة .

وهي تقع شرق بيتي « ببرحة الخيل » لا تبعد عنه إلا بضعة خطوات ، وهذا البئر حفرته بلدية القطيف بتاريخ ثمانية وخمسين بعد الثلاثمائة والألف هجرية - على مهاجرها وآله أفضل الصلاة والتسليم .

وهو ينقسم إلى حمامْين شعبيين ، واحد خاص بالرجال ، وآخر بالنساء ، وظل ماؤها يتدفق حتى عام أربعة وسبعين بعد الثلاثمائة والألف ، واستبدلت البئر القديمة ببئر ارتوازي جديدة .

وظلت تعيش ، ويستحم في حماميها كسالف عهدها ، وأقيم على طريقة صحية ، حيث تجري السباحة من الحنفيات يسبح كل شخص من حنفية واحدة ، والماء يتدفق طبيعيا من جوف الأرض يكون باردا في الصيف ، دافئ في الشتاء ، حتى يكاد أن يكون ماء معدنياً ، وهو ينبع من اليوم الأول من جمادى الأولى عام خمسة بعد الأربعمائة والألف هجرية ، الموافق يناير عام خمسة وثمانين بعد التسعمائة للألف الميلادية .

وبعد أن أستحم أعود إلى بيتي ، وأتناول وجبة الإفطار ، ثم أرتدي ملابسي ، وأحمل حقيبتي بما فيها من وثائق ، وأذهب للمحكمة الشرعية ، والدوائر الرسمية ؛ لأداء ما أنيط بي من عمل من مرافعة ، أو مراجعه بالدوائر ، أو تقديم لائحة ادعاء في المرافعات .

وقد تكون المرافعة في محكمة الدمام، أو الخبر، وأحياناً في الأحساء، فإذا كانت المرافعة في القطيف، أو الخبر، أو الدمام عدت ظُهراً إلى بيتي لأتمتع بالجو العائلي، وأنفض الأتعاب.

وبرغم الجهد، وأنا أسير في طريقي إلى بيتي قد تداعبني آلهة الشعر فأكتبه، وأحيانا يهبط عليَّ في صالات إحدى المحاكم وأنا أنتظر أن يحين وقت الساعة الّتي حدد فيها النظر في المرافعة، لأن الشعر لا يُحددُ بزمان، أو مكان.

وبعد إنتهاء عملي من المحكمة، أرجع سائراً تحت أشعة الشمس في صيفنا الملتهب، الذي يكاد أن ينضج الجلود، وهذه المعاناة ووهج القسوة التي أعانيها سواء كانت من محكمة القطيف، أو من موقف السيارات، إذا رجعت من إحدى المحاكم التي تقع خارج منطقة القطيف.

وما دمنا نصف حرارة الصيف في بلادنا، فلابد من إعطاء لمحةً عنه، فهو معطاءٌ رخي الظل بالثمار، تحنو نخيله على البائسين، والفقراء، والأغنياء، فإنه هو الربيعُ الذي ينتظره كل قطيفي ليملأ جيبه، وبيته بالخيرات، وبالعطاء المثمر.

فكان يمر على هذه الأجواء صيف حار ملتهب الآفاق، محموم الهواء، لا يكاد يتنفس جوه بنأمة نسمةٍ باردةٍ تهب عليك لتخفف ما يتصبب جسمك من عرق، وتكاد من هذا العرق أن تغط أنت، وثيابك فيه.

كل هذا يمر على هذه الربوع، ويخفف هذه الويلات عطاء هذا الصيف الكريم بما فيه من أحلام ذهبية تداعب العيون.

وليس هناك وسائل تُخففُ من هذه الحرارة الملتهبة المحمومة ، إلا العيون الّتي هي أثمن ثروة منحها الله هذه البلاد ، إذ لا يوجدُ في ذلك الظرف تيارٌ كهربائي يساعدُ على قسوة الصيف ، وقرِّ الشتاء الذي يلسعُ بشدة برودته أجسام الفقراء الذين يعيشون في أكواخ تغط في مستنقعات يتولد منها البعوض ، والحشرات ، وليس لديهم من كساءٍ يقي ظهورهم من لسعات برودة الجو .

وإذا هطلت السماء ، وسكبت أمطارها غرقت بيوتهم ، وكانت كالزوارق الّتي تسبح في أمواج البحر.

كل هذه الحياة كانت تُشَاهَد وتُرى في أعوام الخمسينيات بعد الثلاثمائة والألف هجرية ، وما قبلها ، وما بعدها .

وكان هذا الشتاء القاسي الجبار يأخذ من حياة الفقير مأخذاً ، لا يستطيع أن يقف أمامه ، إذ ليس لديه سلاحٌ يشهرهُ في وجهه من كساء أو غِطاء ، فيلجأ إلى التدفئة عن طريق أسلوبٍ بدائي فيجمع الحطب - وهو ما تنتجه النخيل من كرب ، وتله ، وسعف - ويكدسهما وسط كوخهِ لوقود الطهي والتدفئة له ولعائلته ، فإذا أراد التدفئة أشعل منها حزماً لإيقاد النار ؛ وهذا الأسلوب التدفيئي البدائي فيه أخطارٌ ، ربما سبب له حريقاً فتأكل الكُوخ ، وساكنيه .

وكانت قسوة الشتاء قديماً كقسوة الصيف ، حتى جاء عامٌ قست فيه الطبيعة ، فكان بردها في قسوته وشدته كأنه من فصول شتاء أوروبا كما تحدث عنه الآباء ، فأمات هذا البرد الأشجار ، وقضى على قضوب اللوز ، وهي الشجر المنتج للوز .

فكان القطيفيون من شدة ما لاقوه من عنت هذا الشتاء، وتأثيره على حياتهم الزراعية، والجسدية، أرخوه بعام «موت القضوب»، حيث لم يبقَ قضبٌ واحدٌ من القضوب يعيش تحت ضوء الشمس؛ فقد كان للوز موسم عطاء يعيش منه الفلاح، لذلك سمي ذلك العام - وهو عام السادس والأربعون بعد الثلاثمائة والألف هجرية - بعام موت القضوب.

وهذا الشجر المبارك تغنى به الشعب في أغنية عاطفية، تناغي بها الأمهات أبناؤهنَّ إذا وضعنهنَّ في حجورهنَّ يمثلن قدود أَبناءَهُنَّ، بغصونِ شجر اللوز، ويرددن في نغم ملحَّن: «تهزهز يا قُضَيب اللوز، تهزهز».

هكذا كانت الحياة بألوانها وظروفها، في سلبياتها، وإيجابياتها، لأن الحياة مهما تطورت ارتفعت، أو نزلت، فلها سلبيات، وإيجابيات، لأنها لا تكتمل صورتها، فالكمال لخالقها العزيز الحكيم.

إنك لو نشرت هذه الصفحات، وشاهدتَ هذا المنظر، لم تَرَ تلك الصور البائسة، فقد اختفت وراء أنقاض تاريخ الزمن بما فيها من حُسنٍ، وقُبح، ومن خيرٍ، وشر، ليحلّ محلها القصور المسلحة، والتكييف، والثلاجات الأمريكية، وجميع الأجهزة الحديثة المُريحة.

وعلى حساب هذا التغير فقدنا ثروةً قومية ضخمة فنأسف على ما فقدناهُ!..... كالعيون الطبيعية القديمة، والنخيل، والبساتين الغناء، والحياة المثمرة الّتي تزود أقطار الخليج بكل أثمار هذه الأرض الخيرة، فقد صُحرت بساتينُها، وعادت أراضيها يعشعش فيها نبت

«الحيج» ، الذي لا يصلح أكله حتى للحيوان غير الناطق ؛ فبعد تصحيرها ارتفعت حرارةُ جوها أكثر من ذي قبل ، لأن الشجر، والنخيل يعطيان ظلالهما برودة في الصيف ، ودفئاً في الشتاء .

ومن المفارقات والعجائب ، أن الشتاء القاسي الذي كان يمر بأجوائنا لم يعد يهبط بقسوته ، وبرودته الثلجية المعهودة ، وآخر فصلٍ شاهدناه من قسوة قره ، وتَجَمُدِ مائه ، عام الثلاثة والثمانين بعد الثلاثمائة والألف هجرية ، الموافق تقريباً عام ثلاثة وستين بعد التسعمائة والألف ميلادية .

ولعل إرتفاع هذه الحرارة لما علق بجونا من تلوثٍ من السيارات ، والطائرات ، والمكيفات ، والغاز وغيرها من الأدوات الحديثة التي تنشر سحباً كثيفة تبطن الأفاق حتى لا ترى النجوم المتلألئه ، فلها سلبيات وإيجابيات .

هذه لمحة عما سَمِعتُه ، وشاهدتُه عن فصول طبيعة بلادنا ، وعن حياتها المثمرة بالعطاء ، فكنت أُقاسي هذا الجو بما فيه من لهبٍ ، إذ لا سيارة لدى ، ولا وسيلة نقل إلا قدماي .

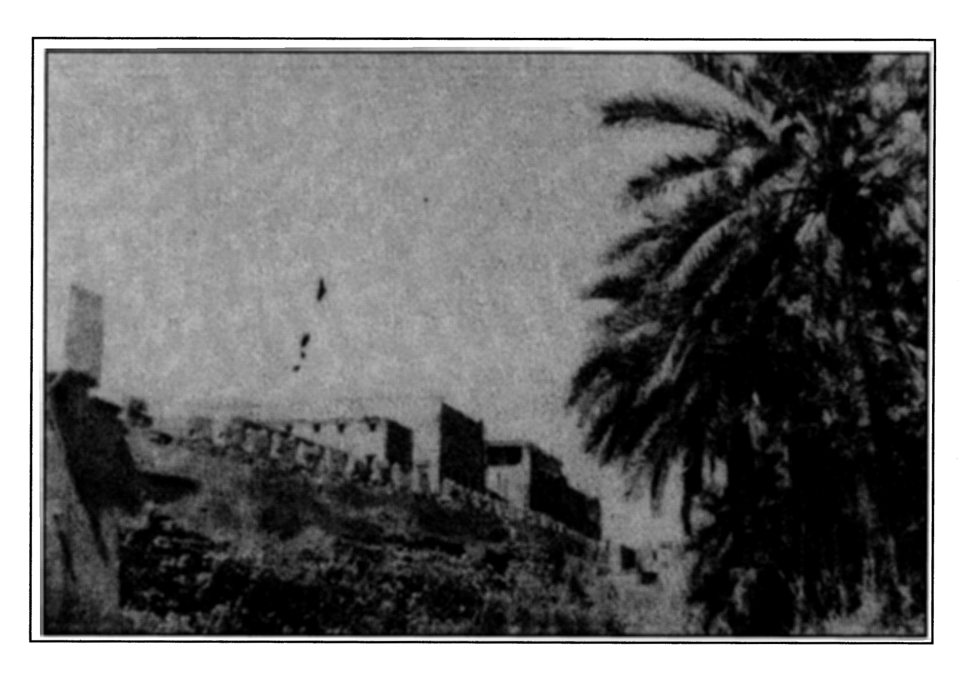




ملحق الصور



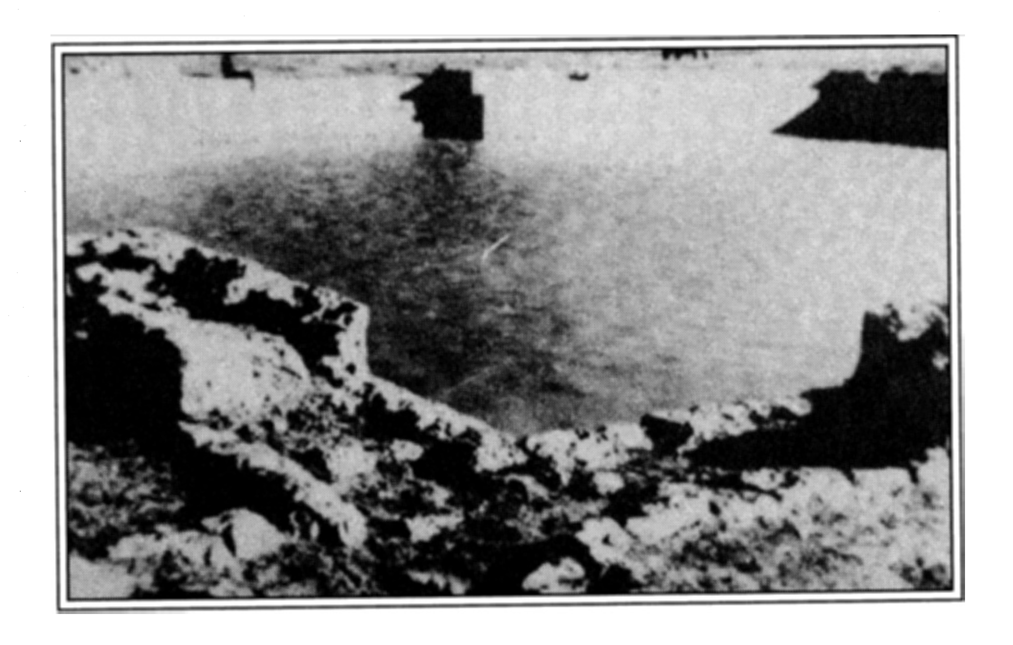
(١) المؤلف وأبناؤه : من اليمين : حسين، علي، المؤلف: نبيه، أديب، وديع



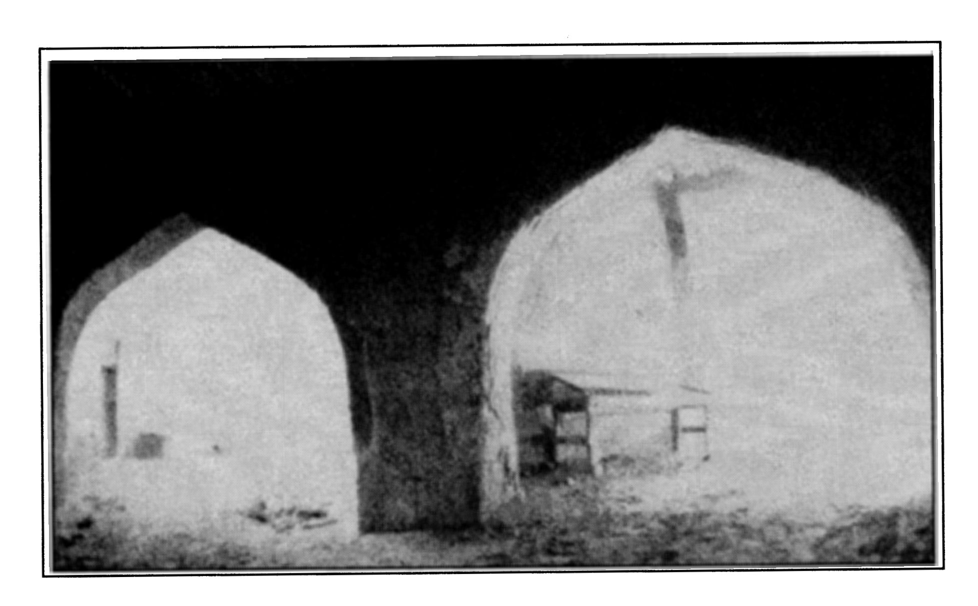
(٢) الواجهة الشمالية من سور القلعة يفصل بين السور شارع يقع بينها وبين البساتين



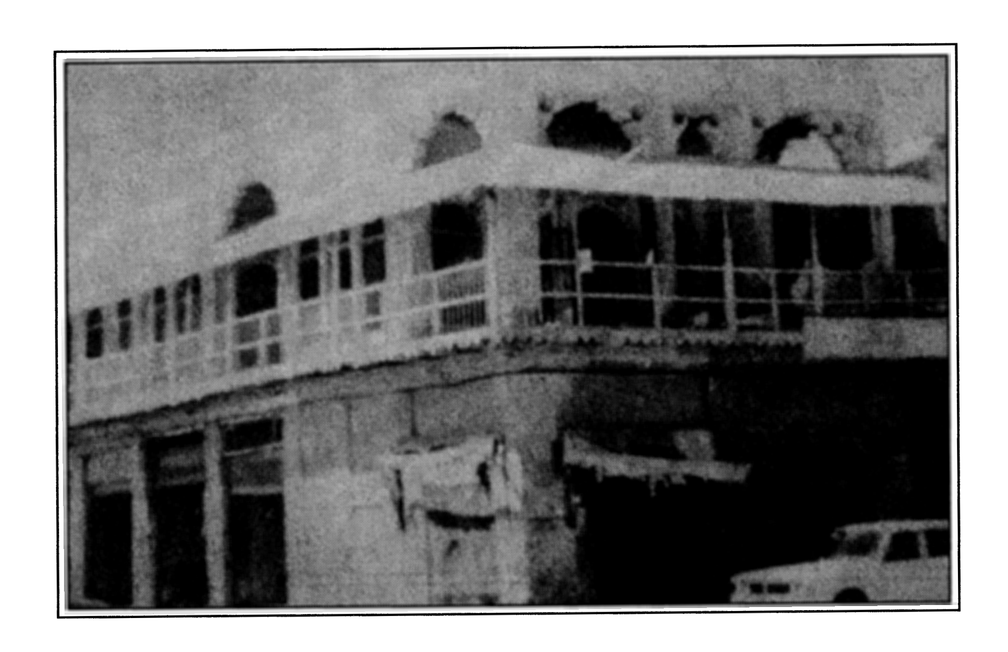
(٣) إحدى البيوت المعماري القديمة



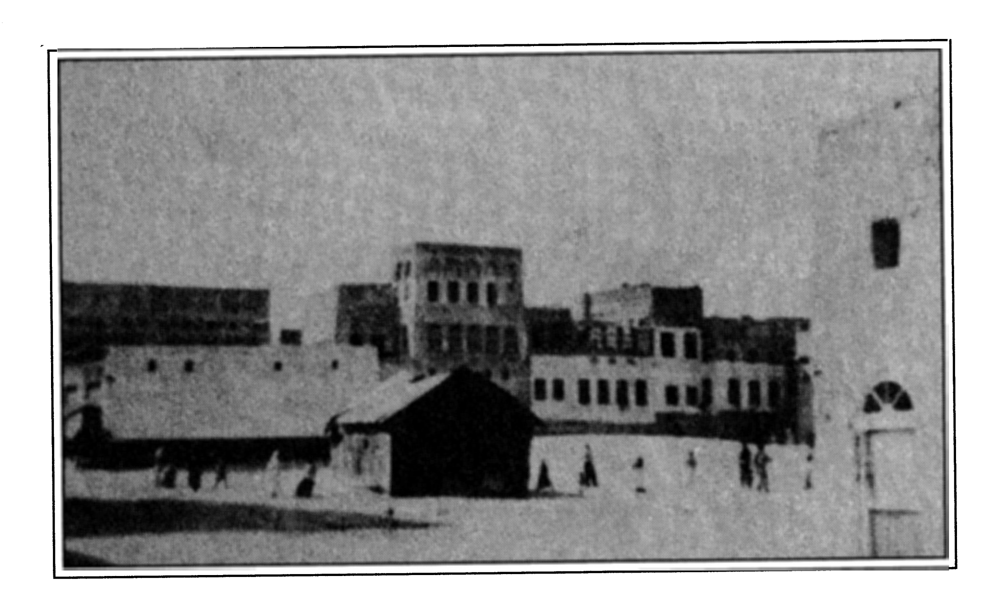
(٤) عين الجميمة في القطيف



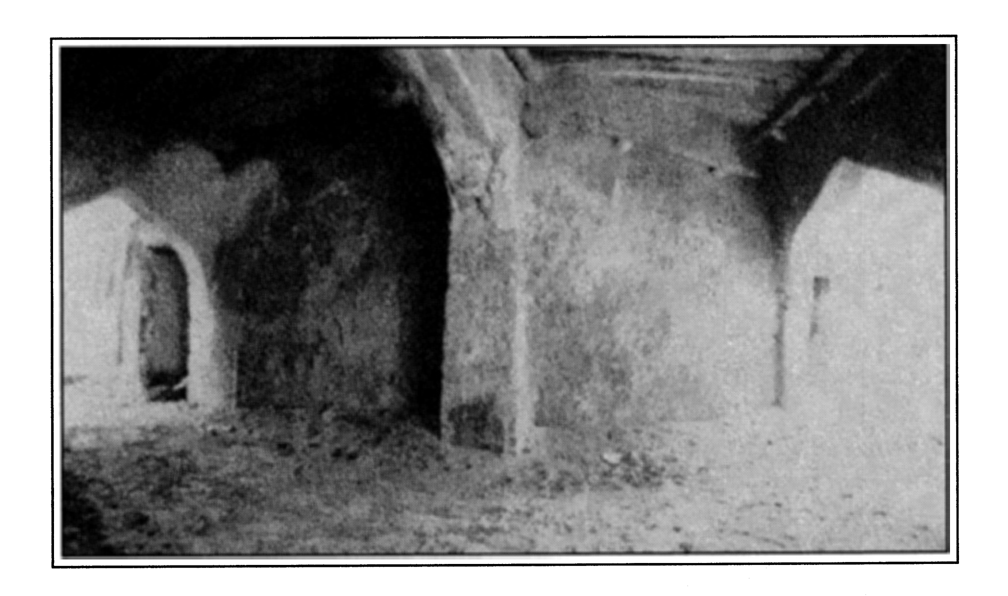
(٥) ساباط في القلعة



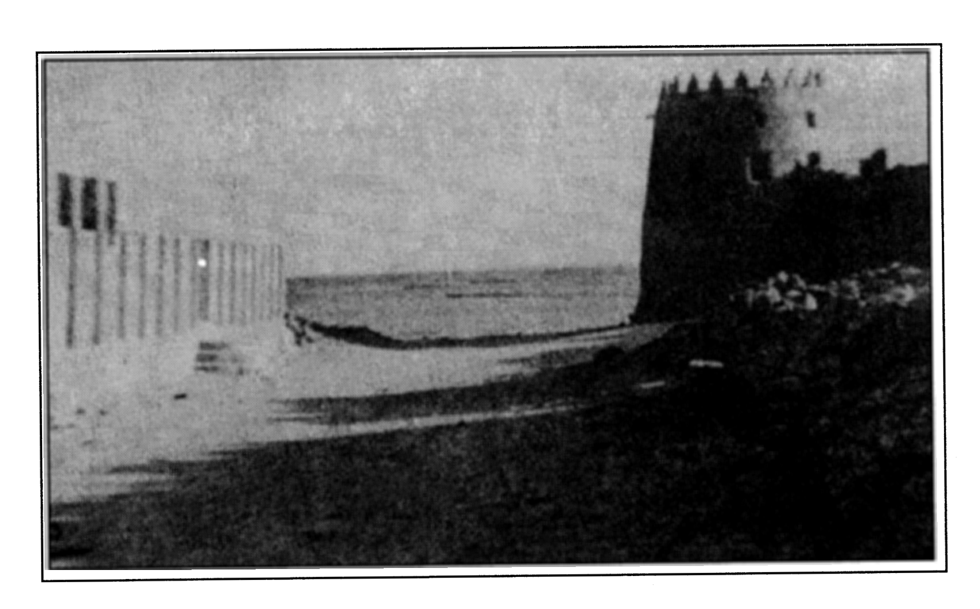
(٦) مبنى البلدية في جهة سوق القطيف الشمالية



(٧) صورة براحة الخيل وبعض معالم القلعة القديمة



(٨) صورة للسوابيط داخل القلعة



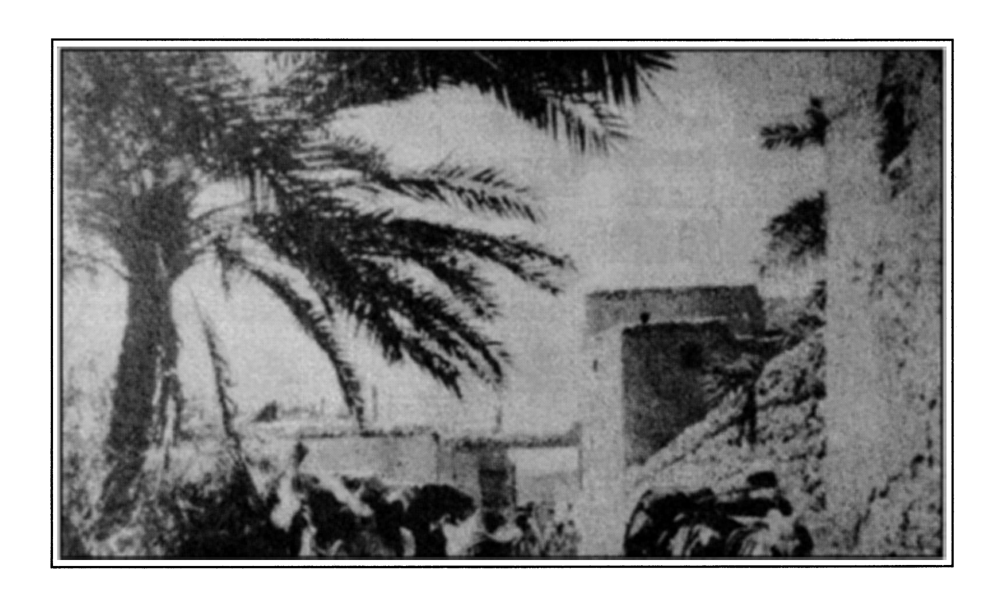
(٩) منظر لقلعة عبد الوهاب في دارين، وتقع على الساحل جنوب غرب تاروت



(١٠) قهوة الغراب التي تقع قرب الجبلة ١٣٨٩هـ



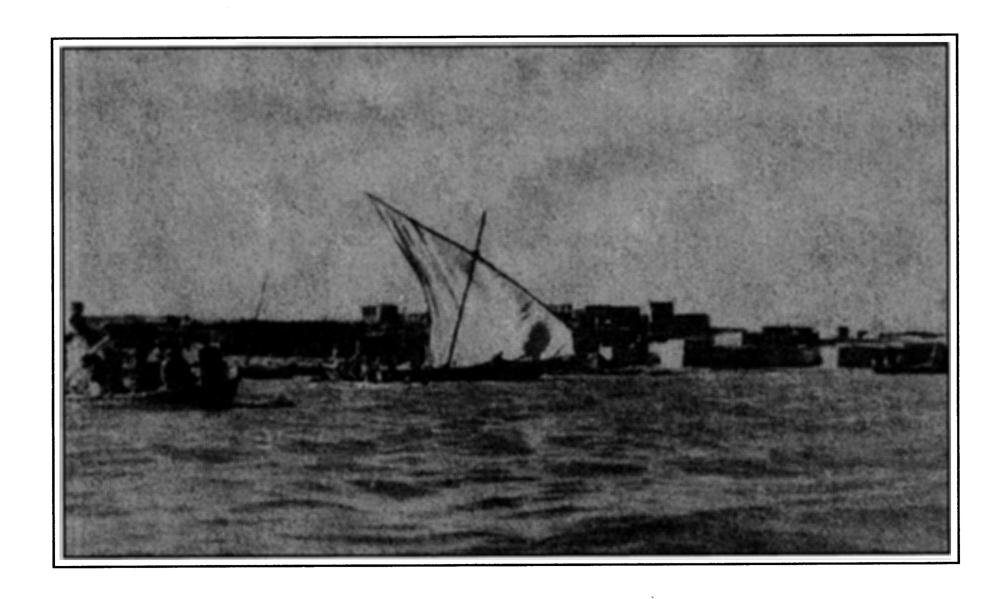
(١١) تارت سنة ١٩٦٠ هـ



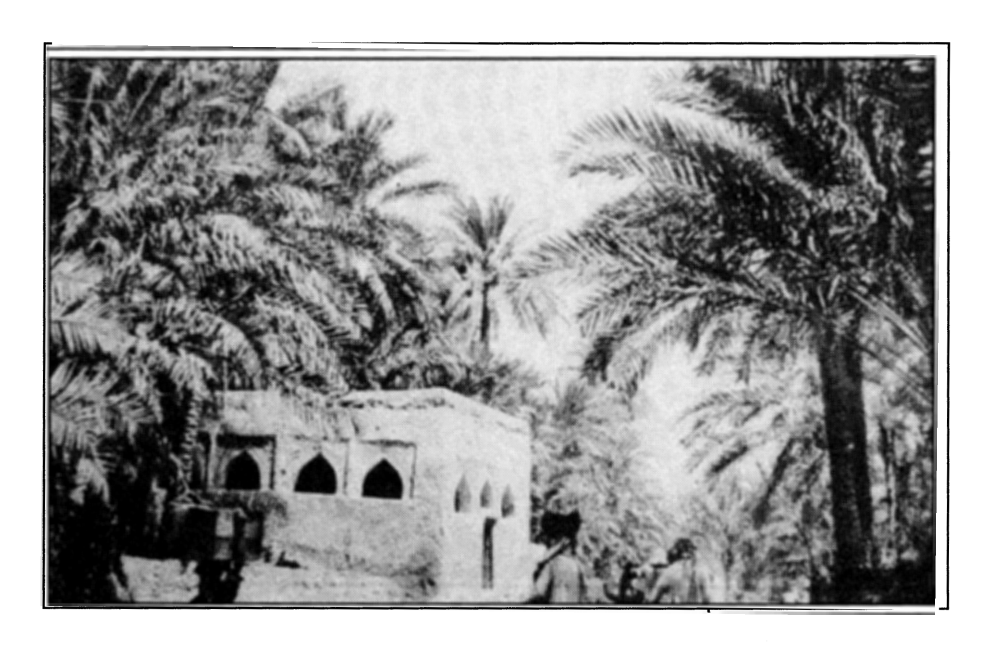
(١٢) شارع الحرية ١٣٥٥ هـ



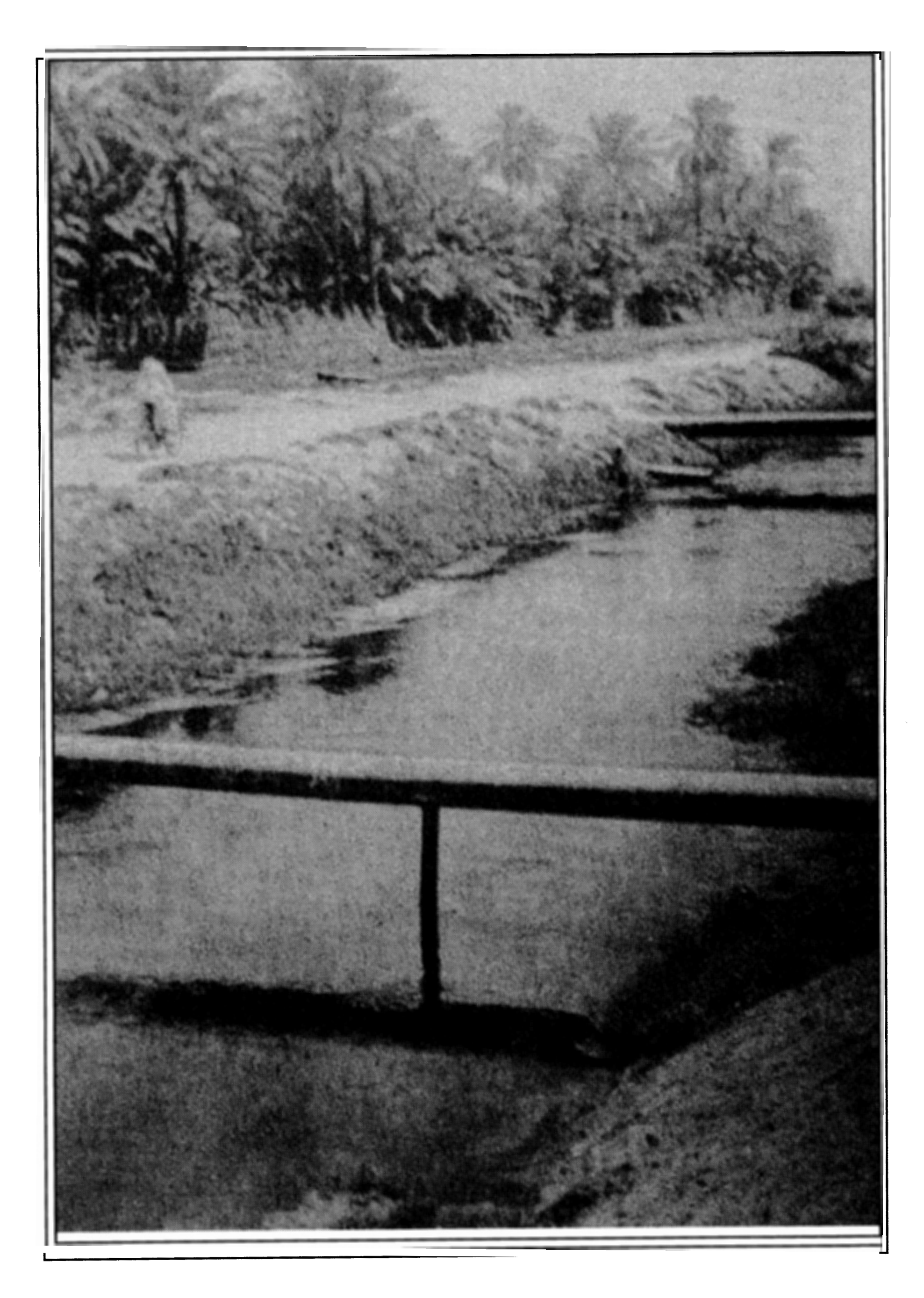
(١٣) بالقرب من حمام تاروت



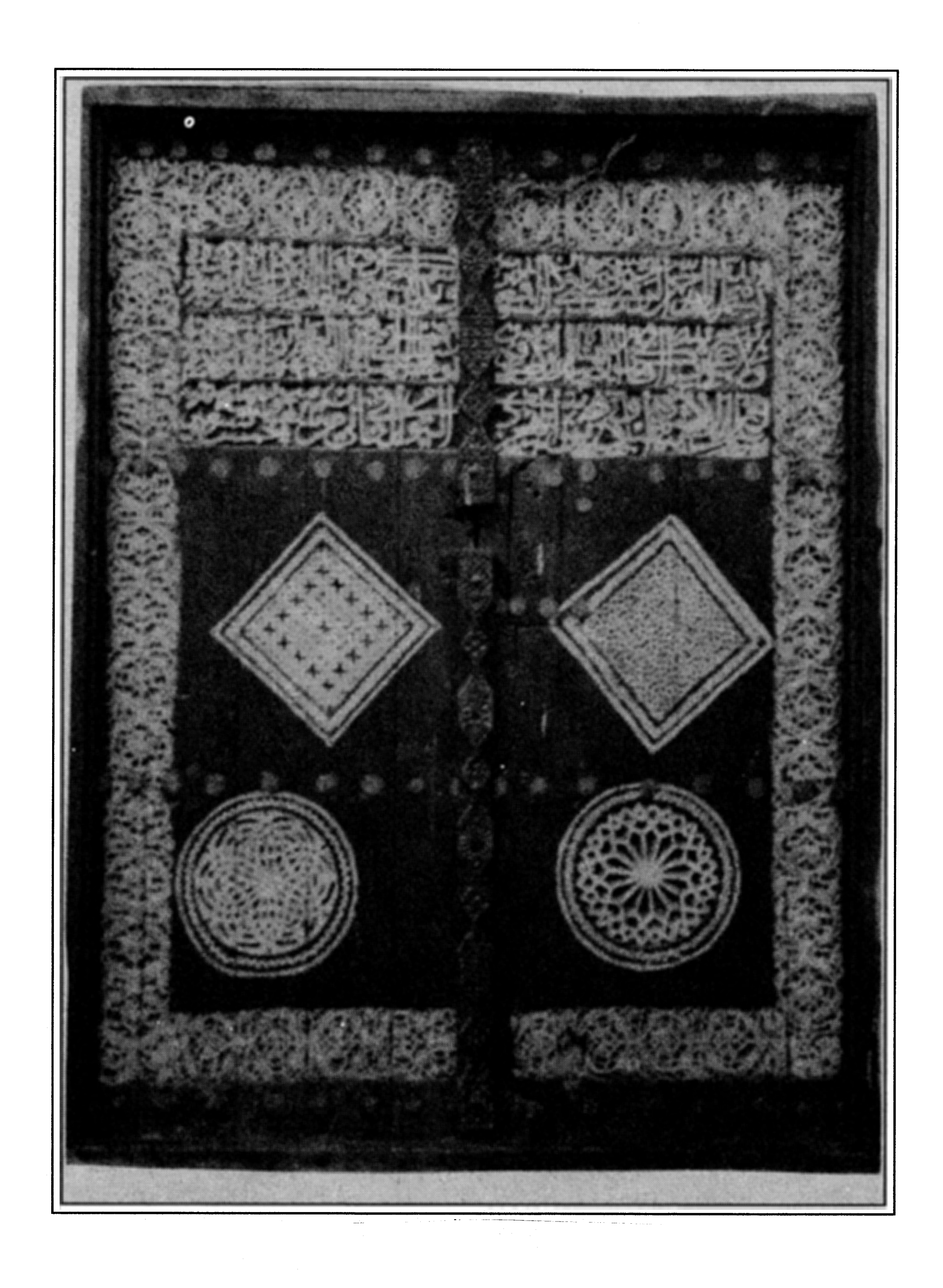
(١٤) صورة البحر في القطيف



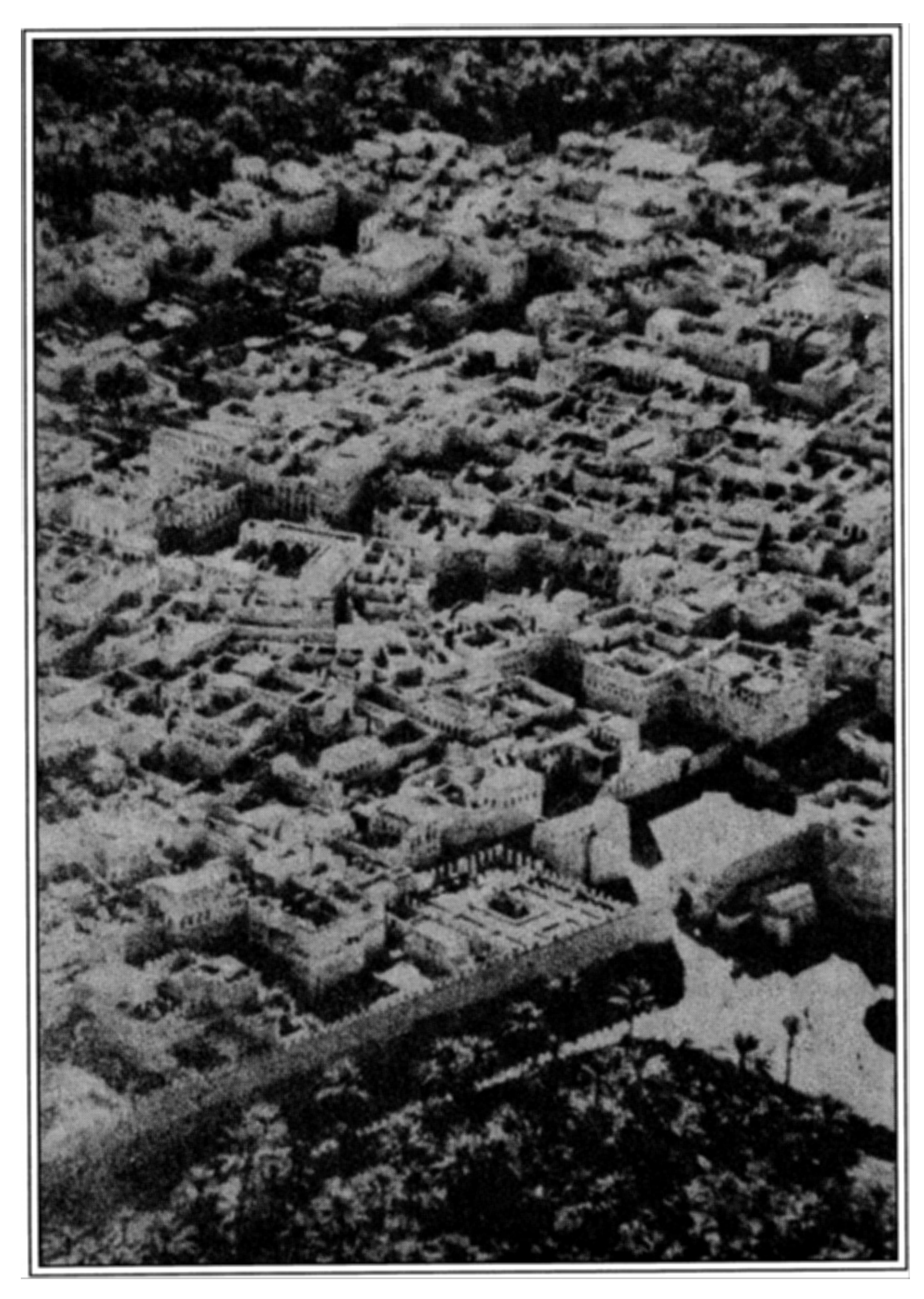
(١٥) مسجد الشرايع عام ١٩٧٣م



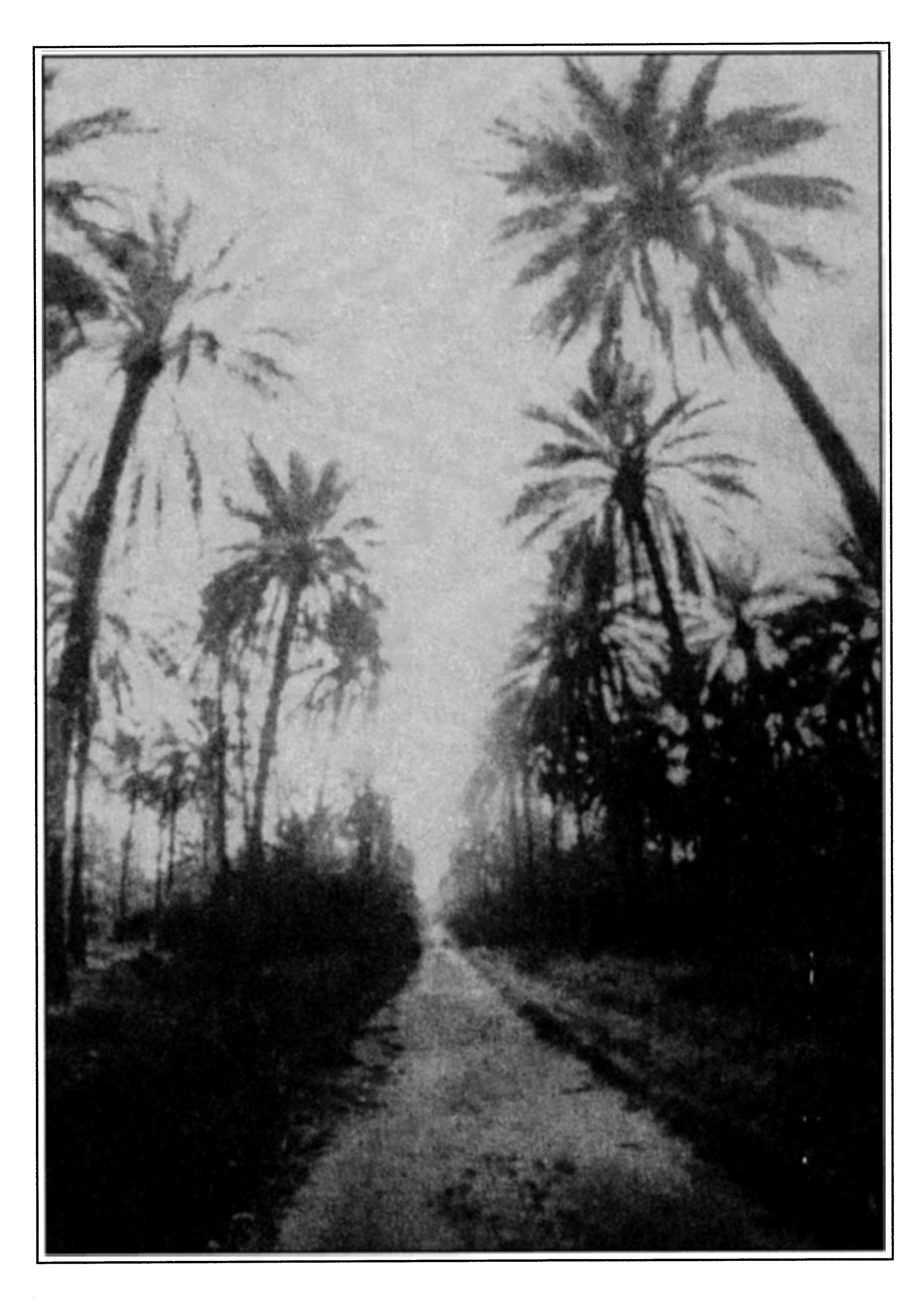
(١٦) مصرف المياه في القطيف ١٩٧٢م



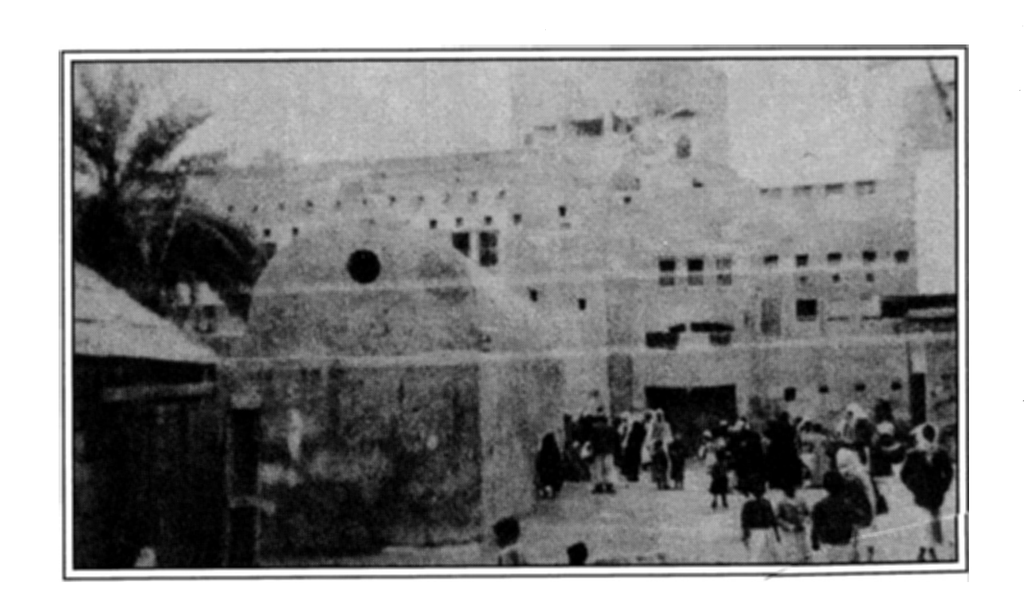
(١٧) نقوش لأحد أبواب القلعة القديمة



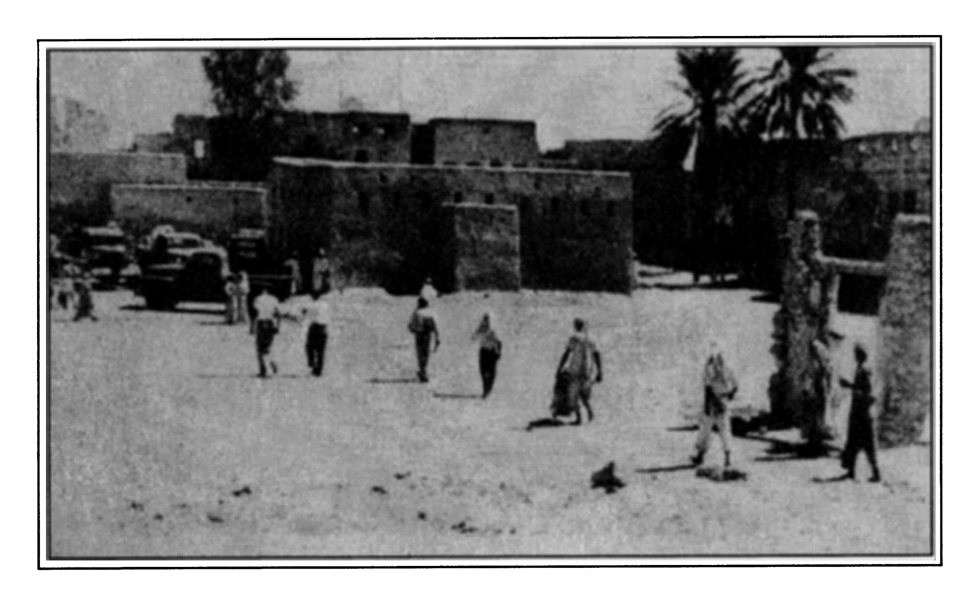
(١٨) منظر جو لمنطقة القطيف



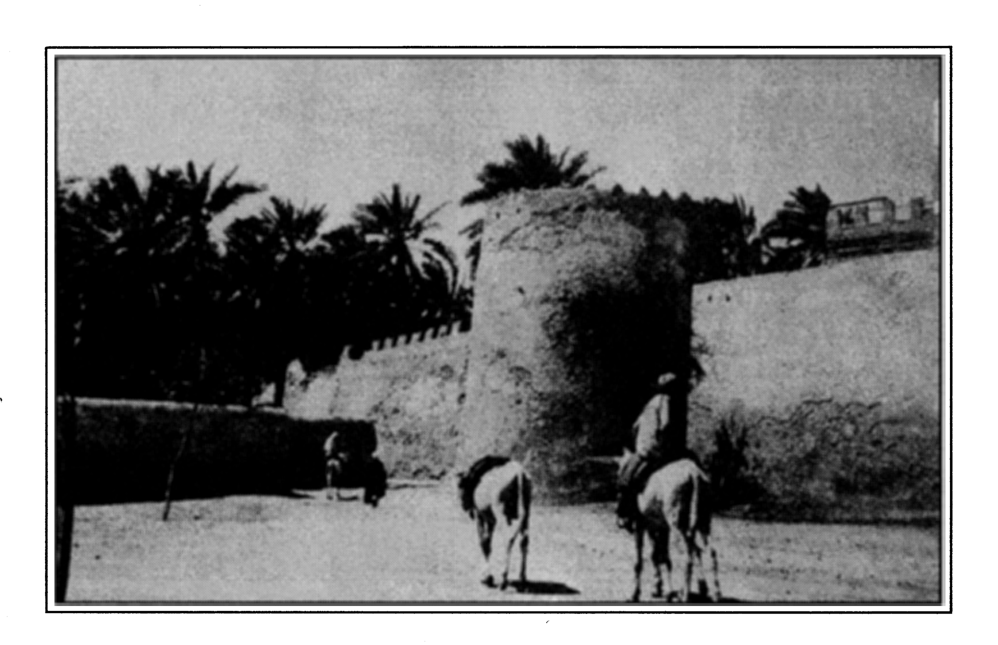
(١٩) إحدى الطرق المؤدية إلى بساتين القطيف



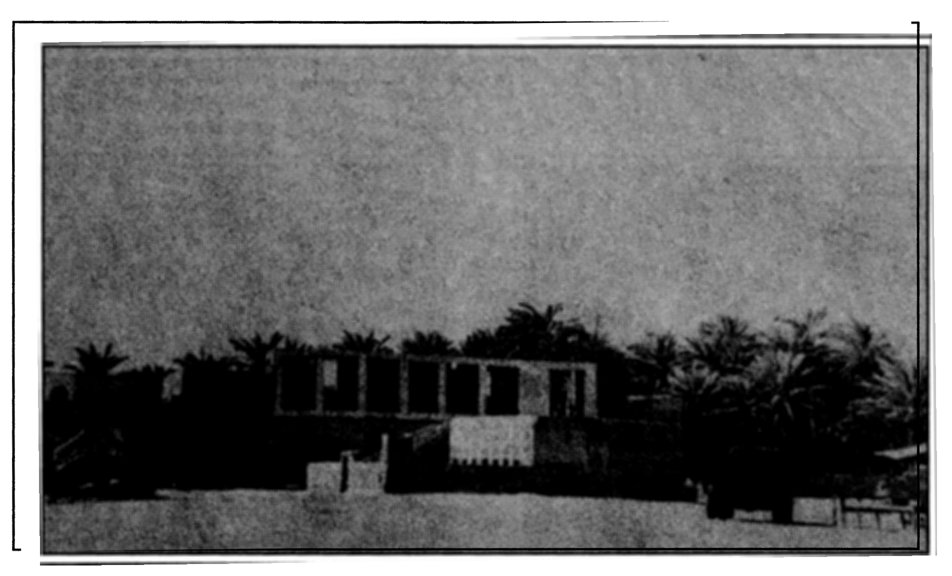
براحة الحليب ١٣٨٢ هـ



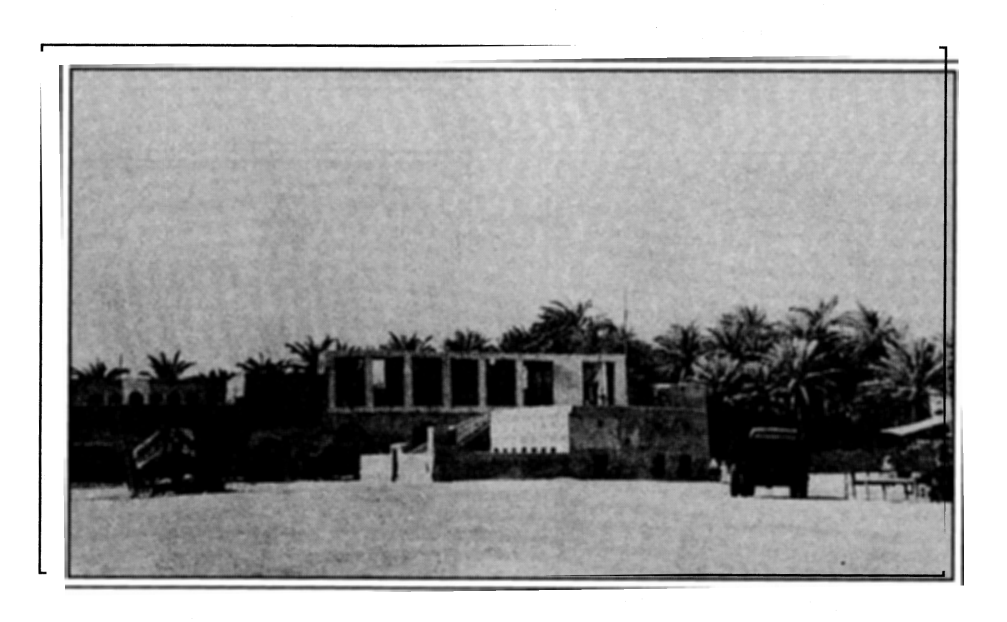
(٢١) براحة الخيل ١٣٧٤ هـ



(٢٢) باب بسور القلعة من ناحية الغرب مقابل الدرويشية سابقاً والإمارة حالياً



(٢٣) قصر الإمارة القديم (الدرويشية)



(٢٤) هذه صورة تمثّل قصر الإمارة في هيكله المعماري القديم الذي أنشأ على طراز المباني المعمارية الإسلامية القديمة قبل أن يهدم ويبنى بالبناء المسلح الجديد والمسمى (الدرويشية) كما يشاهد البوابة الرسمية بالصورة. ويظهر أمام القصر (مسجد) الإمارة ببنائه القديم قبل التجديد

المؤلف في ميعة الشباب











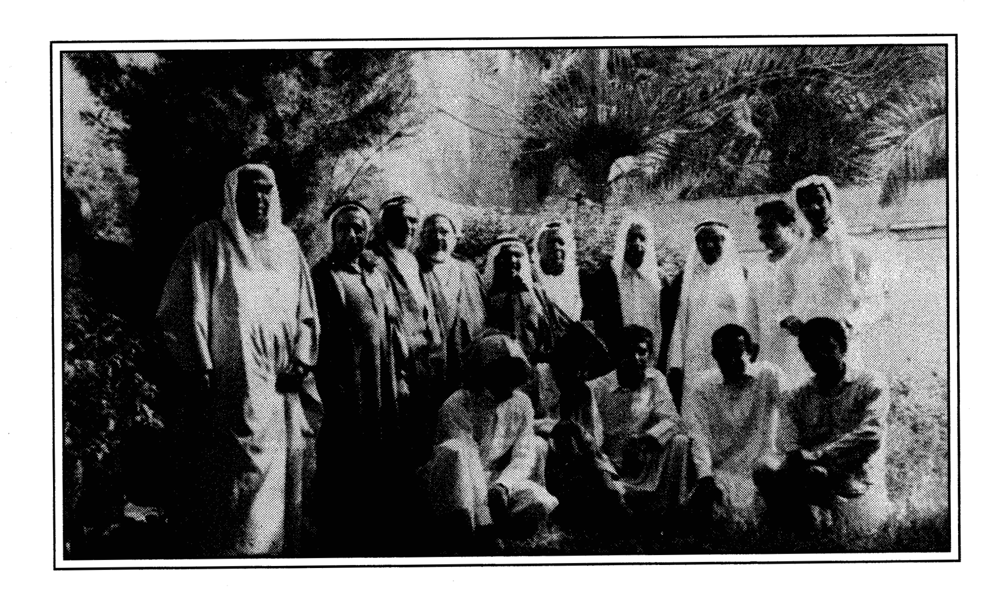
(٢٩) المؤلف في مكتبته



(٣٠) إحدى الجلسات الأدبية في صالون بيت المؤلف يتوسطها العلامي الخنيزي الخطي

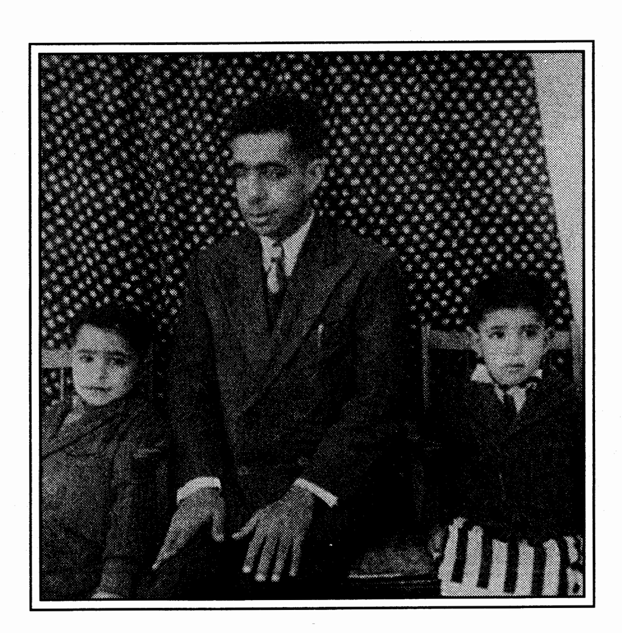
صورة للمؤلف في أحد بساتين القطيف في نزهة







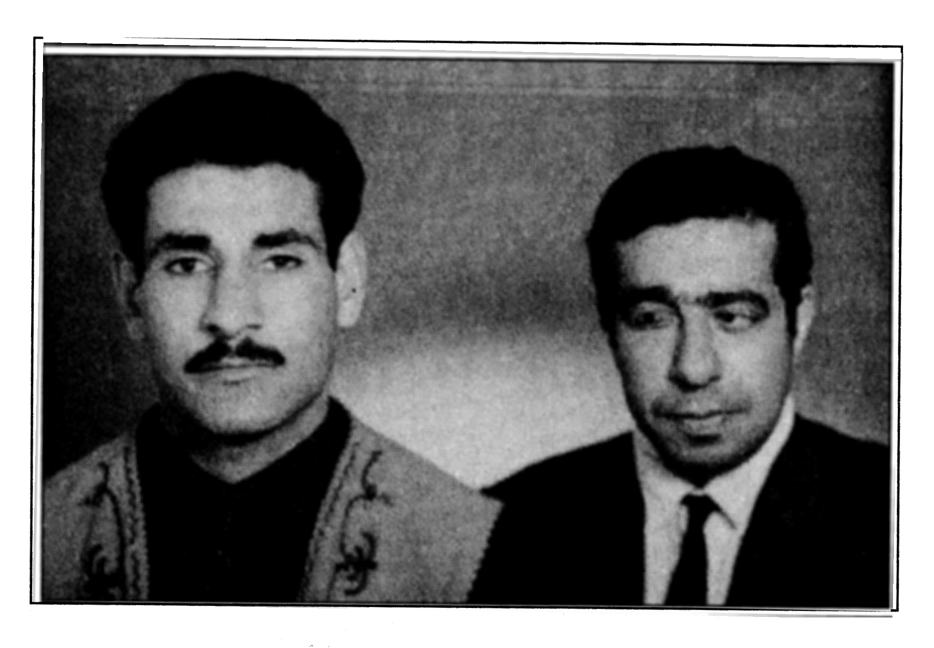
(٣٣) المؤلف وإخوته : من اليمين : فضيلة العلامة الشيخ عبد الحميد الخنيزي الخطي، فضيلة الأستاذ، الشيخ عبدا لله الشيخ علي الخنيزي، الأستاذ رسول الشيخ علي الخنيزي



المؤلف وابنيه : أديب – علي



(٣٥) صورة للمؤلف في ربيع الشباب مع أبنائه: من اليمين :
أديب – وديع – علي



المؤلف وصهره الأستاذ سعيد سلمان عبد الهادي

زاد علاه

الى جناب الاجل الاكرم الافخم رئيس بلدية قفا القطيف صاحب العزه الحاج علي الاخوان افندي المحترم

بعد تقديم واجبات الاحترام لا زلتم في صحة وعافيه على الدوام الامل عدم قطع المخابره

واشوف مضت ايام كثيره ما وردنا من جنابكم تحرير يبشرنا عن صحت احوالكم لنصير

مسرورين بعده مولانا بهذه الدفعه اقتضالنا اربعة ابوال مقطوع احدهم تحت عشرة

غروش واربعة الاخره كذا على ثلثة غروش وعشرة ابوال نبي على عشرين باره المرجو

من احسانكم ارسالهم سا[illegible] لان ملزومين للغايه فيهم ولم يوجدون هنا وحسب

ما نعرف من شفقتكم المساعده صنعتكم بارسالهم هذا ونهدي السلام لمن يعز

لديكم والداعي من جهت المخابره لازم تعفوعن قصورنا لان صار مدة ثلاثة

اشهر مريض والآن من فضل الباري بالصحه والسلامه ومنظورنا [illegible] افندي

ابراهيم البكباشي ثابت افندي كثير يسلم على جنابكم ودمتم محروسين افندم

[illegible] الداعي

١٨ محرم سنة ١٣٢٨ [illegible]

(٣٧) إحدى الوثائق التي ذكرت داخل الكتاب

جناب الأجل الأكرم علي منصور افندي [illegible] بلدية القطيف المحترم سلمه الله تعالى

بعد السلام عليكم . بهذا اليوم أخذنا مكتوب من صاحب العزة قومندان لواء نجد مرالاي سعيد

بذكر فيه بأن بعد التاريخ بأسبوع يتوجه طرفنا بحراً فعلى هذا الأمل وصول قريب لرأس التنورة

بحيث أن الموما إليه من أخص أحبابنا ومن ذوي العفة والصداقة والاقتدار والديانة فيقتضي علينا

لزوم [illegible] فطالما هذا البيك يلزم ترقب وصول البيك الموما إليه إلى رأس التنورة تحيل

بأن تأخذون مواصلة بالذات تروح إلى المحل المذكور وتلتقي بخدمة وتستحضر جميع لوازم وتجري

تسهيلات اللازم بخصوص استحضار ما يقتضي من سفائن [illegible] من كل الجهات بحيث لحين

ويقتضي تأتي معه إلى الهجير وعند ذلك هذه موجب الممنونية وتوقفنا عن تاريخ وصول وحركة

من القطيف [illegible] وطي كتاب إلى [illegible] يداً بيد تسلمه له مع تبليغ سلامنا

إلى الشيخ منصور وأحمد [illegible] رئيس الديوان ومن يعز عليكم والسلام ١٢ [illegible] متصرف لواء نجد

[illegible] محررات منهم إلى [illegible] بلزوم [illegible]

[illegible]

(٣٨) إحدى الوثائق التي ذكرت داخل الكتاب

حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم – ايده الله واعزه ·

بعد تقديم مايليق لجلالتكم من التعظيم والاجلال ·

وبعد – ياصاحب الجلالة – فقد بلغتنا شرطة القطيف امر صاحب السمو الامير سعود الجلوى المعطوف على امر جلالتكم حول برقيتنا المرفوعة لجلالتكم التي نطلب فيها فتح مدرسة للبنات ·

ونرى ان نوضح لجلالتكم حول طلبنا هذا فاننا حينما طلبنا فتح مدرسة للبنات لم نطلبها مدرسة اختلاطية بين البنين والبنات اوان يكون المدرسون من الرجال فلوكان طلبنا من هذا النوع لكان "خطوة اولى في طريق الفساد" · ولكننا اوضحنا لجلالتكم في برقيتنا ان لايكون للرجال – اساتذة وتلاميذ – بمدرسة البنات اية سلطة او علاقة · لاننا – والحمد لله – لسنا من دعاة الاختلاط بين الجنسين او التبرج · بل اننا من اشد المعارضين لهذه الفكرة الهدامة ومن الد اعدائها · وليس ادل على مانقول من اننا رفعنا لجلالتكم لتامروا لنا بتعيين قابلة وممرضة · لان المراة قد تحتاج في بعض الحالات لامر في مواضع خاصة لاتبيح للطبيب – حتى في الحالات الضرورية التي لها احكامها الخاصة – ان يعطيها الابرة في مثل هذه المواضع · وتعود دون ان تستكمل العلاج اللازم · ونهتبل هذه الفرصة لنقول لجلالتكم ان امركم المكرر الذى مضى على صدوره امد طويل لم ينفذ حتى الان فلم تباشر القابلة عملها لدينا لذلك نرجو امركم على من عطل تنفيذه بانفاذه للحاجة الماسة للقابلة ·

اننا – ياصاحب الجلالة – نحرص على ان تحافظ المراة على سترها وحجابها ولكن حجاب المراة وسترها لايمنع من تعليمها وتثقيفها وتفقيهها لان تعليم المراة امر ضرورى لها لتقوم بواجبها في بيتها على اكمله كام وزوجة تربي رجال المستقبل وترعى ناشئة الغد وتقوم بواجبها الديني – حينما تحيط بواجباته – كامراة مسلمة · اما الجاهلة فلا تستطيع ان تعرف واجباتها تجاه ابنائها وزوجها · والعائلة التي تسكن معها ولا تدرى حينما تودى الفروض الدينية هل اتت بها صحيحة ام مختلة الشروط ·

ومن هنا تعرف سر الحديث الشريف من قول الرسول الاعظم (ص) "طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة" فلم يميز في طلبه بين الرجل والمراة بل هو يشملهما معا ولاسيما بعد ان فرض طلبه على الجميع ·

وتعلمون – ياصاحب الجلالة – ان المراة المتعلمة هي التي تستطيع ان تحافظ على شرفها وعفافها وهي التي تستطيع الصمود امام الاغراء والخداع · اما الجاهلة فهي التي تذهب ضحية الاغراء وتكون فريسة سهلة الاصطياد · اما تعليمها في بيوتنا فشيء خارج من الطاقة غير متيسر لاى فرد منا فمن ذا الذى يقوم بتعليم البنات مادامت الامهات اميات · وتوجد لدينا فعلا كتاتيب نسائية تعلم البنات امراة · ولكنه تعليم ناقص بل ميت لايفيد شيئا · فهو لايتعدى تعليم القران الكريم بحيث تخرج البنت من الكتاب وهي لاتجيد حتى ان تقرا القران فضلا عن ان تقوم بواجبها الديني او واجبها العائلي · وليس يخفى على جلالتكم ان البنين كانوا قبل انشاء المدرسة يتعلمون في كتاتيب ايضا فكل ما هنالك ان طلبنا – ياصاحب الجلالة – ان نستبدل بهذه المعلمة التي لاتعرف شيئا بمعلمة تجيد القراءة الصحيحة والكتابة وتعلم – الى ذلك – الواجبات المنزلية وفن الخياطة والتطريز مما تحتاج اليه المراة وليس – ثمة – من ذلك اى خطر مادامت البنت تخرج من دارها الى المدرسة متحجبة وتعود كذلك مثلما تخرج – الان – الى "الكتاب" وهذا لايضر بالشرف ولا العفاف ·

لهذا فاننا نرفع لجلالتكم مكررين طلبنا بفتح مدرسة للبنات حتى يستطعن القيام بواجبهن تجاه ازواجهن واولادهن ويقمن بواجباتهن الدينية · كل ذلك على الوجه الاكمل ·

وختاما نبتهل الى الله العلي القدير ان يمد ظلكم الوريف وعهدكم الاصلاحي الزاهر فيزهر العلم وتنتشر الثقافة التي ترعونها وتسهرون عليها وتنشرونها بين ابناء الشعب · والله نسال ان يحفظكم ويبقاكم ذخرا للاسلام والمسلمين والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ·

١٨/٢/٧٤

١	عبدالله الجيزي	١	سعيد السيد مجيد		ناصر الشايب
١	سعيد علي العوامي	١	فارس الفارس	١	منصور عطية السنان
١	عبدالحميد البركي	١	محمد السيد مجيد	١	حسن علي السنان
١	حسين علي الشايب	١	رضا محمد الشايب	١	عبدالرسول الجشي
١	طالب عيسى	١	علي آل زاير	١	عبدالرزاق الجيزي
١	منصور سيد هادي	١	فوزي الجشي	١	عبدالرزاق البريكي
١	سعيد عمران	١	عبدالكريم ريضا	١	عباس حزام
١	محمد الزهيري	١	عبدالرسول الصالح الجشي	٢٦	عبدالعظيم الجيزي
١	محمد الشايب	١	عبدالهادي آل غانم	٢٧	محمد سعيد المسلم
١	احمد علي الشايب	١	عبدالله السيح	٢٨	
١	عبدالله علي الغانم	١	احمد المصطفى		
١	حسين علي العبدالوهاب	١	احمد مهدي الجشي		
١	محمد حسين المسلم	١	انور الجشي		
١	عبدالله علي المنصور	١	عبدالرسول الجشي		
	منصور عبدالله	١	عبدالحسين سنان		

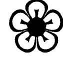
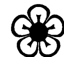
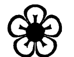
(٣٩) الخطاب الذي أشرنا إليه داخل الكتاب

آثار المؤلف

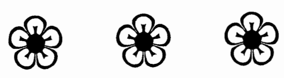
اسم الكتاب	اسم المطبعة	سنة الطبع	نوع الكتاب
النغم الجريح	دار مكتبة الحياة بيروت	١٣٨١هـ ١٩٦١م	شعر
شيء اسمه الحب	مكتبة الإنجلو المصرية	١٣٩٦هـ ١٩٧٦م	شعر
شمس بلا أفق	الدار العالمية - بيروت	١٤٠٦هـ ١٩٨٦م	شعر
مدينة الدراري	مطابع الرضا - الدمام	١٤١٤هـ ١٩٩٣م	شعر
كانوا على الدرب	مؤسسة البلاغ - بيروت	١٤١٦هـ ١٩٩٥م	شعر

* * *

اسم الكتاب	اسم المطبعة	سنة الطبع	نوع الكتاب
خيوط من الشمس	جزئين هو ذا		نثر
أضواء من النقد الحديث	مخطوط		شعر
تهاويل عبقر	مخطوط		شعر
أجراس حزينة	مخطوط		شعر
الشعر العربي ودوره في الحياة	جزئين مخطوط		نثر

فهرس الكتاب

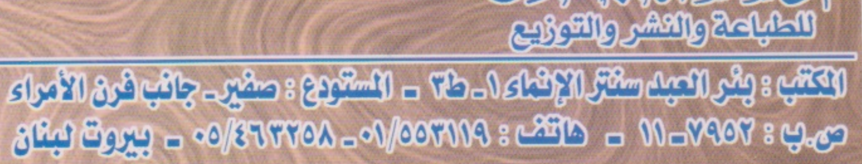


جدول الخطأ والصواب للجزء الأول لكتاب خيوط من الشمس

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٧	١٧	أثار	آثار
١٧	٢٠	إني	أني
١٩	٥	فكرةَ	فكرةٌ
١٩	١٧	أمتد	امتدَّ
٢٦	٦	سأحاولَ	سأحاولُ
٢٦	١٠	كلَّ	كلُّ
٣٢	٧	جاهلةً	جاهلةٌ
٣٧	١٣	التغيّر	التغيير
٣٩	٢	متاعبِ	متاعبَ
٤٣	٢	ويأخذ	ويُؤخَذُ
٤٤	٦	خيالاً	خيالٌ
٤٦	١	كتابتا	كُتّابنا
٥٤	١٥	أشهر	أشهراً
٦١	٣	نزال	تزال
٦٥	٨	يخصّصلطلابه	يُخصّص لطلابه
٦٧	عنوان	الكتاب	الكُتّاب
٧٩	عنوان	الكتاب	الكُتّاب
٨٩	٢٠	الدعوى	الدعوة
٩٠	١٠	مستقاةٌ من	مستقاةٌ من بلدية القطيف
١٢٦	١٦	أخر	آخر
١٣٦	١٨	تَسيجعية	تَشجيعيّة
١٤٥	١٤	فلن نلملم	فَلْنُلَمْلِمْ
١٤٦	الأخير	النهر	النخل
١٦٢	٢٠	عبد ا لله، وعبد الواحد الخنيزي	عبدا لله، وعبد الواحد الخنيزيان
١٩٦	١٢	تُنكأ	تُنكِئ
١٩٩	٦ مكرر	للكتَاب، والكتاب	للكُتّاب، والكُتّابُ
٣٧٦	الفهرس الأخير	٣٤٩	٣٧٣
٢١٤	١٨	عناء	غناء
٢٣١	١٥	قرابة خمسون	قرابة خمسين
٢٦٤	٢٠	مستقبلاً	مستقبلا
٢٧٦	٢	الكتاب	الكتّاب
٢٨٣	الأخير	عناصرٌ	عناصرُ
٣٠٦	١١	مهدي بن علي حسن أحمد	مهدي بن علي أحمد
٣٢١	٨	هجرية	ميلادية
٣٣٧	١	دورًا كبيرًا	دورٌ كبيرٌ
٣٥٤	الصورة الأولى	تارت	تاروت
٣٦٥	الصورة الثانية	العلامي	العلاّمة
٣٧٤	٥ آثار المؤلف	شعر	نثر
٣٧٥	الفهرس ١٠٩، ١٢٠	الكتاب	الكتّاب







مؤسسة البلاغ
للطباعة والنشر والتوزيع
المكتب : بئر العبد سنتر الإنماء ١ ـ ط٣ ـ المستودع : صفير ـ جانب فرن الأمراء
ص.ب : ٧٩٥٢ ـ ١١ ـ هاتف : ٠١/٥٥٣١١٩ ـ ٠٥/٤٦٣٢٥٨ ـ بيروت لبنان

